جائزة نوبل



حيوان القلب



آداب



هيرتا مولر

ترجمة: د. علي يحيى منصور





هيرتا مولر

حيـوان القلـب

رواية

ترجمة: علي يحيى منصور

تقديم: حاتم الصكـر

مراجعة: أسامة الشحماني



حيـوان القلـب

المؤلفة: هيرتا مولر، روائية ألمانية من أصول رومانية ولدت العام ١٩٥٣ في قرية Banat، إحدى قرى غرب رومانية الناطقة باللغة الألمانية.

بعد أن انهت دراساتها الأولى انصرفت للإختصاص باللغة والأدب الألماني، وعملت بعدها في مجال الترجمة والتدريس العام والخاص. رفضت مولر العمل كمترجمة لحساب أجهزة الحرس الخاص التابع للديكتاتور نيكولاي تشاوشيسكو، ومن هنا بدأت سلسلة تعرضها لقمع واضطهادات أجهزة المخابرات في النظام الروماني السابق، وفي محاولة لتحجيمها ككاتبة منعت رقابة أمن الدولة الرومانية مجموعتها القصصية القصيرة الأولى (Niederungen) التي صدرت العام ١٩٨٢، ولم يتسن لهذه المجموعة أن تنشر كاملة الا بعد عامين، وبعد أن تم تهريبها إلى المانيا.

نجحت مولر في الهروب من رومانيا وادراك برلين العام ١٩٨٧، ومنها بدأت رحلتها في عالم الكتابة والابداع فنالت اعمالها شهرة عالمية واسعة. سلطت جل أعمال مولر الضوء على ما عاشه الإنسان الروماني من عنف وانسحاق وظروف حياتية صعبة إبان حكم الطاغية الروماني نيكولاي تشاوتشيسكو، وتناولت في إحدى أهم رواياتها «أرجوحة التنفس» Atemschaukel، والتي صدرت العام ٢٠٠٩ موضوعة نفي الأقلية الرومانية الناطقة بالالمانية إلى الاتحاد السوفياتي السابق.

رواية «حيوان القلب» تعد واحدة من بين اشهر النصوص الروائية التي قدمتها مولر، صدرت العام ١٩٩٤ وسرعان ما حققت شهرة واسعة في المانيا وسائر الدول الناطقة بالألمانية. ترجمت الرواية لسبع لغات عالمية وحصدت جوائز عديدة أهمها الجائزة العالمية للآداب والفنون في دبلن.

في ٨ أكتوبر. ٢٠٠٩ حصلت هيرتا مولر على جائزة نوبل في الآدب عن مجمل ما قدمته من أعمال إبداعية.

المترجم: أ.د. علي يحيى منصور، أكاديمي عراقي ولد في كركوك العام ١٩٣١. حائز على درجة الدكتوراه في الأدب الألماني في جامعة هايدلبيرغ/ ألمانيا العام ١٩٦٦. عمل أستاذاً للأدب الألماني في جامعتي بغداد وصنعاء. صدرت له عشرات البحوث والترجمات الأدبية باللغتين العربية والألمانية.

الطبعة الأولى ٢٠١١م
ISBN: 978-9953-417-80-6

مؤسسة شرق غرب ـ ديوان المسار للنشر



Berlin Office
west-östlicher Diwan e.V., Giesebrecht.str 3,
D-10629 Berlin
E-mail: eastwest@diwanalmasar.com
www.diwanalmasar.com

تم دعم ترجمة هذا الكتاب
من قبل معهد غوته/ وزارة الخارجية الألمانية



التوزيع في الوطن العربي والعالم: الفرات للنشر والتوزيع
ص. ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان ● هاتف: 750054 1 961
فاكس: 750053 1 961
التوزيع عبر الإنترنت: www.alfurat.com

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنيت: نيل وفرات كوم
www.neelwafurat.com

كلُّ واحدٍ له صديق في كلِّ قطعةٍ من الغيم
هكذا يمضي الحالُ مع الأصدقاء حيث العالم ممتلئ بالأهوال
وأمي تقولُ بأن هذا الأمر جد عادي
الأصدقاءُ فوق الشبهات
فلتفكر بأمور أكثرَ جدّية

غيلو نعوم

* حيوان القلب عنوان يشكلُ محض علامة دلالية متخيَّلة أوجدتها الروائية هيرتا مولر للتعبير عن بوهيمية ما يجثم في صدور شخصياتها المحورية في النص من دوافع وهواجس وحشية لا يمكن السيطرة عليها، أو اخضاعها لمنطق عقلي أو شعوري محسوب. وقد نجحت مولر في تذويب هذا المصطلح داخل نسيجها الحكائي، ومن ثمَّ إخراجه بصور لغوية/ صرفية متعددة للتعبير عن مضمون إشاري واحد.

هيرتا مولر: سرد الحرية

يمكن تلخيص الموضوعة الأساسية لكتابة هيرتا مولر السردية بأنها قضية الحرية في المقام الأول. هناك من رأى بعد حصول الكاتبة على جائزة نوبل للآداب٢٠٠٩ أنها تمثل سرد الأقليات المعذبة، أو الغربة اللغوية، والاشتغال على التمركز القومي لكونها عاشت حقبة طويلة من حياتها وراء أسوار رومانيا تشاوشسكو؛ فكانت معاناتها من الدكتاتورية مضاعفة: كمواطنة وكألمانية في بلد آخر.

وعندما تتحدث مولر عن أدبها وعبر اهتماماتها المتعددة: روائية وقاصة وشاعرة ومقالية ومترجمة تقول إنها تكتب عن الدكتاتورية لأنها (لم تعرف شيئا آخر ولم تر شيئا آخر).

كان عليها مثلا أن تقابل مترجمة روسية محترفة لتصحح لها مفرداتها أثناء الدراسة، ولكن في غابة بعيدا عن الأنظار كي لا يراقبها احد.

بطلات روايتها هذه(حيوان القلب) هن أيضا يذهبن إلى الغابة

ليلاقين عشاقهن، بعيدا عن الأعين، متعرضات للعقاب في أية لحظة و. يغدو

(الراندي فو) بترميز الفتيات وتشفيرهن للقاءات الغرامية عملا فدائيا يمارسنه بسرية وخوف.

مولر نفسها ستعمل مترجمة في مصنع، لكنها تضطر لترك عملها بسبب الاضطهاد والكبت ومحاولة إجبارها على التجسس.

ذلك الخوف سيدفعها أخيرا إلى الهجرة لألمانيا والاستقرار فيها. كما سيفعل أبطال (حيوان القلب). كثير من الناس ماتوا في محاولات الهرب وكثيرون انتحروا. اثنان في (حيوان القلب) من المثقفين أصدقاء ساردة الرواية سوف ينتحران، وانتحار غيورغ وكورت ليس إلا مثالا. وآخر هو خطيب أنّا سيكون مصيره مجهولا؛ فقد اختفى لأنه وشي به..

الحرمان هو أول ما يطالعنا في الرواية. لولا الطالبة التي تروي عنها صديقتها وزميلتها في السكن الجامعي لا تفارقها عادات الريف وثقافته. لكن العوز يظهر على فتيات السكن اللواتي يحولن السخام الأسود مثلا إلى مادة تجميل، ويتبادلن الجوارب، ويسرقن من بعضهن اللوازم العادية.

لكن السرد في (حيوان القلب) ينتصف للمضطَهدين، فيبدو الجلادون والقتلة بصورة كاريكتيرية تذكرنا بجنرالات ماركيز المضحكين في روايات مثل (مائة عام من العزلة) و(خريف البطريرك). هنا سيكون للنقيب بيله المراقب الدائم للفتيات كلب يحمل اسمه نفسه كناية عن وحشيته ولا إنسانيته.. في (حيوان القلب) وأعمال مولر الأخرى ليس ثمة فواصل بين المتخيل السردي والسيرة الذاتية؛ فهي تقترض من يومياتها الكثير، وتسرّب

إلى أعمالها أجزاء من حياتها ذاتها، فالمعاناة ممكنة وسوف تتكرر مادامت الدكتاتورية مستمرة بخطابها الفاشي الذي لا يوفر مثقفا أو فقيرا، مواطنا أو من الأقليات. يتصاغر الفرد بينما الديكتاتور يعلو ويتضخم: تصور مولر مشاهد ملتقطة من يوميات العسف في رومانيا كما عاشتها. عندما يزور الدكتاتور مدينة يحقنون الشجر الذابل ليغدو أخضر عند زيارته، ويغسلون الأبقار في الريف بمساحيق التنظيف.

في (حيوان القلب) على الجميع أن ينتموا للحزب ويحضروا الاجتماعات ويبلغوا عن زملائهم وأهلهم؛ فتغدو الوشاية عنصرا فاعلا في الحياة والخوف سلوكا عاديا: الخوف من كل شيء حتى من الأهل.

السرد نفسه تصيبه عدوى الخوف والحلم بالحرية، فالساردة في (حيوان القلب) ليست واحدة، بل هي تختفي لتروي بدلاً عنها ساردة أخرى، والمشاهد البصرية مرمزة دائما رغم أن مولر تحتفي بالتفاصيل بشكل لافت: إنها تشتغل كناسجة: خيوط تلتقي ببعضها وتتقاطع. هكذا نقرأ الوقائع والمصائر والنهايات في (حيوان القلب).

واللغة نفسها في حالة خوف أيضاً: تلغي مولر هنا علامات الترقيم الضرورية، ولا نعرف للجمل حدودا واضحة؛ فليس من نقاط ولا علامات استفهام ولا أقواس أو فوارز عدا نقاط نهايات المقاطع. ونلاحظ أن الرواية مكتوبة كجملة واحدة، فلا فصول مرقمة أو معنونة، ولا مساحات بيض لانتقال الأحداث، ما يجعلها عسيرة على الفهم، بالإضافة لما نقلته الكاتبة من تقاليد اللغة الرومانية ونحوها؛ فكان عنوان الرواية نفسه إشكاليا، فنقله إلى العربية مترجمو سيرتها بصياغات مختلفة.

مولر تريد أن ترينا القسوة داخل القلوب. ثمة حيوان في قلب كل فرد. هذا بعض ثمار شجرة الدكتاتورية أوالتي كان لها شواهد في بلداننا أيضا فهاجت تلك الحيوانات لتقتل وتمارس الجريمة بوحشية- . أما النسخة الإنجليزية من الرواية فقد تجنب مترجمها إشكالية التركيب اللغوي؛ فوضع لها عنواناً دلاليا جديدا هو(بلاد الخوخ الأخضر). الخوف يلاحق الدلالة أيضا رغم أن الرواية مكتوبة عام ١٩٩٤، وبعد وصول مولر إلى ألمانيا. وهذا يفسر الترميز والكنايات الكثيرة في الرواية وفي أعمال الكاتبة الأخرى.

تعد (حيوان القلب) التي نطالع ترجمتها العربية عن دار ديوان شرق-غرب أفضل ما كتبت مولر بشهادة النقاد والقراء، ومنهم سكرتير الأكاديمية الملكية السويدية مانحة نوبل، لما تميزت به تقنيتها الحديثة وأسلوب السرد الروائي فيها واشتمالها على إشارات بليغة لأحداث لن تسقط من الذاكرة الإنسانية، وحيث المونولوجات المطولة، واستكناه دواخل الشخصيات، وكشف خوفهم الذي يسكن داخلهم، وحذرهم من الآخر، وأحلامهم المقموعة أيضا. وهي درس في ما يمكن أن تفعله الدكتاتورية من مسخ للنفوس، وتشريع للوحشية التي تجعل الفرد لا يفكر إلا بالهرب من وطنه أو الانتحار.

المذهل هو تطويع الكاتبة للغة نفسها ولفاعليتها السردية وصفا وحوارا واستبطانا، ومزجها الذكي لسيرتها بخيالها، وانسيابية وصفها وسردها بغربتها اللغوية: كمواطنة مولودة في قرية ألمانية ضُمت بعد الحرب إلى رومانيا. لكن الحرية هي الملخص الذي تفرزه الرواية على المستوى الدلالي، وهي الجملة التي تقال في النهاية ويجب ألا تثير الضحك كما تقول الكاتبة في مطلع الرواية وختامها: إذا تكلمنا ضحك منا الآخرون!

وسيضاف لمعرفتنا بهيرتا مولر الكثير عبر هذه الترجمة العربية الرصينة والمدققة لغرض مضاهاة لغة مولر وسردها العذب واحتواء دلالاتها السياقية التي يمكن تعميمها - شأن الأدب المكتوب من أجل الحرية لفضاء إنساني أوسع، أرى أن العربية من أكثر الأمكنة واللغات حاجة له.

حاتم الصكَر

إذا لزمنا الصمت أثرنا الضجر وان تكلمنا ضحكوا علينا،

قال إدغار: كنا قد اطلنا الجلوس أمام الصور على الأرض ومن الأطالة في الجلوس أحسست بخدر في ساقيَّ.

متى تسكن الكلمات أفواهنا ندوس على أشياء كثيرة بذات القدر الذي تدوس فيه أقدامنا العشب، صمتنا وقعُه ثقيل ايضا.

صمت إدغار..!

- لا أستطيع اليوم أن أتخيل قبراً لكن بإمكاني أن أتخيل حزاماً ونافذةً وعقدة ورمٍ وحبلا. أرى أن كل موت في جميع أشكاله يشبه الكيس.

قال أدغار: متى سمع أحد ذلك، سيحسبكِ مجنونة. وحين أفكر بذلك أتخيل أن كل ميت يترك خلفه كيساً مليئاً بالكلمات. كما أتخيل ايضاً الحلاق ومقص الأظافر لأن الموتى لا يعودون بحاجة إليهما، وأنهم لن يضيّعوا زراً أبدا.

لربما، كانوا يحسّون، على العكس منا، ان الدكتاتور خطأ لاً غير،

قال ادغار: كان لديهم الدليل، إذ كذلك كنا خطأً في نظرنا. كنا في هذا البلد مجبرين تحت وطأة الخوف أن نمشي ونأكل

وننام ونحب شخصاً ما حتى نحتاج من جديد إلى الحلاق ومقص الأظافر.

فالإنسان الذي لمجرد أنه يمشي ويأكل وينام ويحب أنساناً ما، ويرتكب فضائع، يصبح عند ذاك مخلوقاً موغلاً في الخطأ أكثر منا وخطأ بالنسبة للجميع، وخطأ فاحشاً .

العُشب ينمو في الرأس، فإن تكلمنا يتم قصهُ وتقليمهُ غير أنه يُقص ايضاً إذا صمتنا. ثم تنمو الوجبة الثانية من العشب تليها الثالثة كما تشاء. وبالرغم من كل هذا نحن محظوظون.

جاءت لولا من جنوب البلاد وكان يبدو عليها أنها قادمة من منطقة مبتلاة بالفقر. ولا أعلم اين ذلك المكان في جسدها الذي يدلُ على بلوى الفقر، قد يكون بادياً على عظمي الخدين أو حول الفم، أو في عمق العينين. من الصعب قول شيء كهذا سواءً أكان ذلك مرتبطاً بالمكان أو الوجه. فكل منطقة في البلاد كانت تئن تحت الفقر كما نراه مرسوما على كل وجه. أما منطقة لولا فربما كانت أكثر فقراً كما كانت تبدو للناظر في عظمي الخدين او محيط الفم أو عمق العينين. كانت تبدو منطقة لا ترتقى إلى منظر طبيعي.

ـ الجدب يلتهم كل شيء عدا الخراف والبطيخ واشجار التوت. لكن جدب المنطقة لم يكن الدافع الذي حملها على الهجرة إلى المدينة وعلى قدر معرفتي، تدون لولا في كراستها، فإن الجدب لم يكن بذي تأثير. فهو لايدرك مدى ما اعرفه بل يقتصر إدراكه على معرفة كينونتي أي من أكون. أن اصبح شيئاً في المدينة، تكتب لولا، وأعود بعد اربع سنوات إلى القرية، وبشرط ألاّ يتم ذلك على الطريق الترابي بل من بين أغصان أشجار التوت.

كانت في المدينة أيضا أشجار توت ولكن ليس في الشوارع في الخارج. إذ كانت تنتصب في أفنية الدور الداخلية، ليس في الكثير منها. كانت تلك الأشجار موجودة في أفنية بيوت المسنين فحسب. وكان تحت الأشجار كرسي كبير، ومقعده منجّدٌ بقطيفة، لكن القطيفة كانت مشوبة بالبقع وممزقة والفتق محشواً من الأسفل بحزمة من التبن. كانت حزمة التبن مضغوطة بفعل كثرة الجلوس عليها وتتدلى من أسفل المقعد مثل ضفيرة.

وحينما يصل أحد إلى الكرسي العتيق المتهاوي يستطيع أن يرى بيسر العيدان التي مازالت عالقة بالضفيرة وكيف أنها كانت خضراء في وقت مضى.

وفي الأفنية الحاوية على أشجار التوت كان الظل يسقط مثل السكون على وجه رجل عجوز يجلس على الكرسي، مثل سكون، لأنني كنت ارتاد تلك الأفنية بصورة متقطعة ولا أعود إليها إلا في ما ندر. وفي حالة نادرة مثل تلك ظهر خيط نور آتيا بأستقامة حادة من قمة الشجرة ليسقط على ذلك الوجه العتيق وكاشفاً لفضاءٍ يتسع مداه إلى البعيد. نظرت إلى الخيط أسفله وأعلاه. أحسست بقشعريرة تسري في ظهري، لأن ذلك السكون لم يكن آتيا من أغصان أشجار التوت بل من عزلة العيون في ذلك الوجه. لم أكن ارغب في أن يراني أحدٌ في تلك الأفنية، أو أن يسألني عن غرضٍ وجودي هناك. لم أقم بفعل أي شيء عدا ما رأيته. أمعنت النظر طويلاً في أشجار التوت. ثم، وقبل أن أغادر مجدداً، أطلت النظر مرة أخرى إلى الوجه الجالس على الكرسي. في ذلك الوجه تمثلت لي منطقة.

رأيت شاباً، أو شابة، يغادر المكان حاملاً كيسا فيه شجرة توت إلى الخارج. رأيت أشجار التوت الجديدة التي تم إحضارها

في أفنية المدينة.

قرأت فيما بعد في كراسة لولا: إن ما يحمله المرءُ من تلك المنطقة إلى الخارج ينعكس على وجهه من الداخل.

كانت لولا تنوي دراسة اللغة الروسية لأربع سنوات. اجتازت امتحان القبول بيسر نظراً لوجود مقاعد شاغرة كثيرة في الجامعة كما هي الحال في المدارس الريفية. لم تكن اللغة الروسية موضع رغبة للقليل من الناس فحسب. فالرغبات صعبة المنال، تكتب لولا، الأهداف اسهل منالاً. فالرجل الذي يدرس اختصاصاً ما، يملك أظافر نظيفة. فهو يأتي معي لأربع سنوات لأن رجلا مثله يعلم أنه سيد في القرية، وان الحلاق يأتي أليه في بيته ويخلع أحذيته أمام الباب. لا خراف بعد اليوم، لا بطيخ بعد اليوم، سوى أشجار التوت لأننا جميعاً نملك أوراق الشجر.

حجرة مربعة صغيرة للسكن، ست بنات، ستة أسرّة نوم تحت كل منها حقيبة. وعلى جانب الباب دولاب مبني في داخل الجدار وفي السقف فوق الباب مكبرة صوت. كانت فرقة إنشاد العمال تغني من السقف نحو الجدار، ومن الجدار نحو الأسرّة حتى يحل الليل. ثم تصمت كالشارع أمام النافذة والمتنزه الكثيف الذي لم يعد يمر به أحد. كانت ثمّة أربعون حجرة صغيرة مربعة في كل دار من دور الطلبة.

كانت ملابس البنات الست معلقة لصق بعضها في الخزانة ولدى لولا عددا قليلا منها من بين صاحباتها وطالما دأبت لولا على ارتداء ملابس البنات كلهن وكانت جوارب البنات محفوظة في الحقائب تحت الأسرّة.

كانت إحداهن تغني:

تقول أمي

إنها ستعطيني

إن تزوجت مرة

عشرين وسادة كبيرة

مملوءة كلها بالبعوض

وعشرين وسادة صغيرة

مملوءة كلها بالنمل

وعشرين وسادة ناعمة

مملوءة كلها بأوراق أشجار عفنة.

جلست لولا على الأرض قرب السرير وفتحت حقيبتها. فتشت بين الجوارب على غير هدى ورفعت أمام وجهها كتلة متشابكة من السيقان وأصابع القدمين والكعوب. تركت الجوارب تسقط على الأرض كانت يدا لولا ترتجفان وكانت عيناها في وجهها تبدو أكثر من عينين. كما كانت يداها فارغتين وبلغ عددها أكثر من يدين في الهواء مثل عدد الجوارب السائرة على الأرض.

عيون، أياد وجوارب لم تكن متلائمة لتتناسق في أغنية واحدة. كانت تغنى على بعد سريرين، كانت تدندنها رأسٌ صغيرة تتمايل وعلى جبينها آثار هموم، أغنية لم يلبث ذلك الأثر الذي فيها ليختفى من جديد

كانت تحت كل سرير حقيبة مليئة بمجاميع مكورّة من الجوارب. كانت معروفة في كل أرجاء البلاد باسم جوارب العلامة المسجلة. جوارب ممتازة للفتيات اللواتي كن يرغبن في اقتناء جوارب لبنطلون لماع وناعمة كالنسيم. الفتيات يردن أيضاً

صبغة الشعر وكحل الرموش وطلاء الأظافر.

كانت تحت وسائد الأسرّة ستُ علب ملأى بكحل الرموش. كانت ست بنات يبصقن في تلك العلب ويقلبن السخام الأسود بأعواد الأسنان حتى تلتصق العجينة بها. ثم يفتحن أعينهن إلى أبعد مدى. كان عود السن يخدش الجفن وتسْودُّ الرموش وتزداد كثافة. ولكن بعد مرور ساعة ما تلبث أن تظهر على الرموش شقوق رمادية اللون. ويجف البصاق ويسيل السخام على الخدود. البنات كن يفضلن سخاماً على الخدود وكحلَ رموش على الوجه. ولكنهن لم يكنّ يرغبن في المزيد من سخام المصانع. كن يتمنين الكثير من جوارب البنطلون الرقيقة كالنسيم بالرغم من أن غرزاتها لا تلبث أن تتفتق مما يدفع البنات إلى الإمساك بها عند الركبة والفخذ، الإمساك بها وترميمها بطلاء الأظافر.

سيكون الأمر صعباً إن سعينا إلى إبقاء قميص الرجل أبيض ناصعا. سيكون هو حبي حينما يأتي إليَّ بعد أربع سنوات إلى القحط. فإذا استطاع في القرية أن يُبْهِرَ الناس بقمصانه البيضاء فسيكون حبي. وإذا كان حقا رجلا يأتيه الحلاق إلى بيته ويخلع أحذيته عند الباب. وسيكون صعباً أنْ تُبقي على القمصان بيضاء بين كل هذه القذارة التي تنط فيها البراغيث، هكذا تكتب لولا.

قالت لولا: إن البراغيث موجودة حتى على لحاء الأشجار. قال أحدهم، إنها ليست براغيث، أنها قمل أوراق الشجر. تكتب لولا في كراستها: براغيث أوراق الشجر اكثر ضرراً، قال أحدهم، إنها لا تقترب من البشر لأن ليس للبشر أوراق. لولا تكتب: أنها تهاجم كل شيء حينما تزداد حرارة الشمس، بل إنها حتى تهاجم الريح. نحن جميعاً لنا أوراق. الأوراق تسقط إذا

توقف الإنسان عن النمو لأن فترة الطفولة ذهبت. الأوراق تعود من جديد حينما تنتشر الغضون على بشرته لأن الحب قد ذهب. الأوراق تنمو كما يحلو لها، تكتب لولا: مثل العشب عميق الجذور. طفلان أو ثلاثة أطفال في القرية ليست لهم أوراق ولهم طفولة كبرى. انهم أطفال نادرون لأن لهم أباً وأُماً متعلمين. تقوم براغيث الأوراق بصنع أطفال صغار من الأطفال الاكبر سناً، تصنع طفلاً عمره ثلاث سنوات من طفل في الرابعة ومن آخر في الثالثة طفلاً في السنة الأولى من عمره. ثم طفلاً عمره نصف سنة، تكتب لولا، وحتى طفلا حديث الولادة. وكلما زاد عدد ما تصنعه براغيث الأوراق من الاخوة والأخوات قصرت الطفولة.

يقول جَدٌّ: مقلمة الكروم العائدة لي. أشيخ واصبح أقصر قامة واكثر نحافة. لكن أظافري تنمو أسرع. كان يُقلّم أظافره بمقلمة الكروم

يرفض الطفل أن تقلّم أظافره. إن ذلك مؤلمٌ، يقول الطفل، تربط الأم الطفل بأحزمة ملابسها إلى الكرسي. تكتئب عينا الطفل ويصرخ. تسقط قلامة الكروم غالباً من يد الأم. تسقط القلامة على الأرض لكل إصبع، يتصور الطفل.

وعلى أحد الأحزمة الخضراء كالعشب تسقط قطرات دم. الطفل يعرف: إذا نزف المرء يموت. تغرورق عينا الطفل بالدموع فتتكّدر فيهما صورة الأُم. الأم تحب الطفل، تحبه بشغف بالغ يصل حد الإدمان ولا تستطيع الكف عن ذلك لأن عقلها مشدود بالحب مثل الطفل بالكرسي. الطفل يعرف: الأم مجبورة في إنشدادها بالحب على جرح يديها. وعليها أن تضع الأصابع المبتورة في جيب ردائها المنزلي وتخرج إلى فناء الدار وكأن الأصابع أشياء يتوجب طَرحها بعيداً. وعليها هناك في الفناء حيث

لا يراها أحد أن تأكل أصابع الطفل.

الطفل يدرك أن الأم في المساء ستكذب وتحني رأسها أن نعم حينما يسألها الجد: هل رميتِ الأصابع بعيدا.

أما ما سيفعله الطفل نفسه في المساء فقد أحسَ به مقدماً أي أن الأمّ لديها الأصابع ويصف كل شيء:

لقد خرجت والأصابع معها إلى الفناء المبلط. مشت فوق العشب. وكانت في الحديقة أيضاً وعلى الطريق وعند حوض الزرع. وسارت بمحاذاة الجدار ودارت خلفه. وصلت إلى صندوق العُدَد والصواميل. وكذلك وصلت دولاب الملابس. بكت في داخل الدولاب. مسحت وجنتيها بيد. وفي الوقت نفسه أخرجت اليد الأخرى من جيب رداء المنزل ودستها في فمها وكررت ذلك.

يضع الجد يده على فمه. لعله يريد هنا في الغرفة أن يبيّن كيف تؤكل الأصابع في الفناء، يفكر الطفل. لكن يد الجد لا تتحرك.

يواصل الطفل حديثه. وفي أثناء كلامه تبقى بقية أصابعه فوق لسانه. يفكر الطفل، ليس سوى الحقيقة وحدها تبقى على اللسان مثل نواة كرز لا تريد النزول إلى الحنجرة. وطالما وصل الصوت أثناء الكلام إلى الأذن فإنه يبقى في انتظار الحقيقة. ولكن بعد الصمت مباشرة يفكر الطفل مع نفسه: أن كل ما قيل كذب في كذب لأن الحقيقة بقيت في الحنجرة ولأن الفم لم يقل كلمة ط أكلت س.

لا تخرج الكلمة من بين شفتي الطفل. عدا أن: كانت الأم عند شجرة الخوخ. لم يدهسها الجرار على ممشى الحديقة إنما

زلق حذاؤها عن الطريق.

الجد يغض الطرف في نظرته.

الأم تغير موضوع الحديث وتتناول من الدولاب إبرة وخيطاً وتجلس على الكرسي وتفرش ثوب المنزل على الأرض حتى يظهر جيبه. تصنع عقدة في الخيط. لابد أن تقوم الأم بخدعة، يفكر الطفل.

تثبت الأم زرا. يغطي الخيط الجديد الخيط القديم. في خدعة الام يكمن شيء من الحقيقة لان الزر في ثوبها مُرْتخِ. لتعالج الزر بأمتن خيطٍ. ولضوء مصباح الكهرباء خطوط شعَاعٍ شبيهة بالخيوط.

ثم يغمض الطفل عينيه. خلف عينيه المغمضتين تتدلى الام والجد بحبل كضوء وخيط، فوق المنضدة.

سيبقى الزر المثبت بأقوى خيط مقاوماً لأطول مدة ولن تضيعه الام أبداً، يفكر الطفل، والأرجح أن الزر سيتكّسر،

ترمي الأم المقص في دولاب حفظ الأغطية. وفي اليوم التالي وفي كل أربعاء قادم منذ ذلك الوقت يأتي حلاق الجد إلى الغرفة.

يقول الجد: حلاقي

الحلاق يقول: مقصّي

عانيت من تساقط شعر رأسي أثناء الحرب العالمية الأولى، يقول الجد. وعندما صار رأسي اصلعاً تماما عالج حلاق السرية لي فروة رأسي بعصير الأوراق. عاد شعري وقال لي حلاق السرية: سينمو بأجمل مما كان. كان شغوفا بلعبة الشطرنج. لقد اختار حلاق السرية عصير الأوراق لأنني احضرت أغصاناً مورقة بشكل كثيف ونحتُّ من تلك الأغصان قطع شطرنج كاملة. كانت

على أغصان الشجرة نفسها أوراق رمادية وحمراء. وكان خشب الأغصان أيضاً متباين الأشكال مثل الأوراق. قمتُ بنحتِ نصف قطع الشطرنج من اللون الغامق والنصف الآخر من اللون الفاتح. أصبحت الأوراق الفاتحة في نهاية الخريف غامقة اللون. وكانت الأشجار بهذين اللونين لأن الأغصان الرمادية الغامقة كانت أثناء نموها في كل سنة تمر بفترة تأخر طويلة. كان اللونان كلاهما مناسبين لقِطعِ الشطرنج خاصتي، قال الجد.

يقوم الحلاق بداية بحلق شعر الجد. يجلس الجد على الكرسي دون أن يحرك رأسه. يقول الحلاق: إذا لم يحلق المرء شعره يصبح رأسه كأرض أدغال. تقوم الأم بربط الطفل في هذه الآونة على الكرسي بأحزمة أثوابها. يقول الحلاق: إذا لم يقلّم المرء أظافره ستتحول تلك الاظافر إلى مجارف. لا يسمح ألا للأموات بحملها.

أطلقوها أطلقوها

كانت للولا من بين البنات الست في الحجرة المربعة فيما العدد الأقل من جوارب البنطلون متناهية الرقة. وكانت القلة منها مرقعة عند الكعوب والأفخاذ بطلاء الأظافر وكذلك عند بطون السيقان. كانت الغرزات تسير أيضا إذا ما عجزت لولا عن الإمساك بها لأنها نفسها كانت مجبرة على السير في الشارع، على ممشى أو عبر المتنزه الكثيف.

كان على لولا أن تجري وراء رغبتها في اقتناء القمصان البيضاء أو الابتعاد عنها. فقد ظلت فرصة الحظ في أدنى درجة كما بان ذلك على ملامح وجهها.

لم يكن باستطاعة لولا في بعض الأحيان أن تتعامل مع

تعقيدات المسائل الحرجة أثناء جلوسها على مقعد الدراسة وكانت تقول بعفوية تامة إن كلمة مقعد الدراسة تعجبها.

في الليالي كانت لولا تنشر جوارب البنطلون العائدة لها على الشباك بحيث تتدلى أقدام الجوارب في الخارج. لم يقطر من الجوارب الماء لأنها لم تكن مغسولة أبدا. كانت جوارب البنطلون تتدلى من الشباك وكأن أرجل لولا وسيقانها في داخلها بما في ذلك أصابع القدم والكعوب المتقرنة وبطون السيقان المتدلية والركبتان. كان من الممكن أن تسير بدون لولا عبر المتنزه الكثيف والوصول إلى المدينة المظلمة.

سألت إحداهن في الحجرة المربعة أين مقص اظافري. قالت لولا: في جيب المعطف، سألت إحداهن في أي جيب، في جيبك، ولماذا أخذتِه أمس مرة أخرى. قالت لولا إلى الترام ووضعت المقص على السرير.

اعتادت لولا على تقليم أظافرها أثناء ركوب الترام. كانت تتنقل بالترام دون هدف. كانت تقلّم وتبرد وهي في داخل العربة المتحركة وتضغط بأسنانها على جلد الظفر نحو الداخل حتى تصبح الدائرة البيضاء في كل ظفر بحجم حبة فول بيضاء.

وعند الوصول إلى محطةِ توقفٍ كانت لولا تضع مقص الأظافر في حقيبتها اليدوية وتنظر إلى باب المركبة كلما صعد أحدٌ إذ يحدث أثناء النهار أن يكون الشخص الصاعد من الذين تعرفهم، تكتب لولا في كراستها. أما إذا كان الوقت ليلاً فأظن أن الذي يصعد إنما يبحث عني.

وفي الليل حين لا يتواجد أحد على الطريق في الخارج أو يعبر المتنزه المترب وحين يسمع المرء حفيف الهواء ولا تصدر

السماء غير ذلك الحفيف، كانت لولا ترتدي جوارب البنطلون الرقيقة العائدة لها. وقبل أن تُحكمَ غلق الباب من الخارج كان المرء يرى في ضوء الحجرة المربعة أن للولا أقداماً كبيرة. سألت إحداهن، إلى أين تذهبين. لكن خطوات لولا كانت تقرقع في الدهليز الطويل المقفر.

لربما كنتُ موضع اهتمام في الحجرة المربعة أثناء السنوات الثلاث الأولى. لأن الآخرين كافة عدا لولا كانوا يتمتعون بموقع ما. كان هناك شخص في الحجرة المربعة لايكن للولا حبا. كان الجميع كذلك.

اقتربت إحداهن من الشباك ولكنها لم تر شارعاً في الأسفل ولا لولا مارة. لم تكن هناك سوى بقعة صغيرة لافتة.

اتجهت لولا إلى الترام. وكلما صعد أحد في الموقف التالي كانت تفتح عينيها بنهم.

كان الصاعدون إلى الترام في منتصف الليل حصراً من الرجال العائدين من نوبة العمل المتأخرة في مصنع مسحوق الغسيل ومن المذبح في طريقهم إلى بيوتهم. إنهم يصعدون من ظلمة الليل إلى نور المركبة، تكتب لولا، وأرى رجلاً متعباً من ثقل اليوم إلى حد يبدو معه وكأنه شبحٌ شاخص داخل ملابسه ولا يوجد أي أثر للحب في رأسه. ولا في محفظته أية دراهم إلا كميّة مسروقة من مسحوق غسيل الملابس او بقايا متفسخة من المواشي المذبوحة: ألسنة أبقار وكلى خنازير أو كبد عجل. كان رجال لولا يجلسون على المقعد الأمامي في غفوة تحت النور ويطرقون رؤوسهم ويرتجفون بفعل صرصرة المركبة. وفي لحظة ما يمسكون بقوة بحقائبهم اليدوية لضمها إلى أجسادهم، تكتب لولا: أرى أيديهم القذرة. وبسبب الحقائب يلقون نظرة سريعة على وجهي.

وفي هذه اللحظة القصيرة تشعل لولا ناراً في رأس مُنهك.

لحظة توقفوا بعدها عن اغماض عيونهم، تكتب لولا.

وبعد الموقف التالي نزل رجل خلف لولا.

كان يحمل في عينيه ظلمة ليل المدينة وشهوة كلب هزيل، تكتب لولا. لم تلتفت لولا، حثت الخطى سالكة طريقاً قصيرة طالما تسببت باغراء الرجال، إذ تترك الشارع الرئيسي وتدلف عبر ممرٍ يؤدي إلى المتنزه الكثيف. ولا حاجة لي هنا بالكلمات، تكتب لولا، أتمددُ فوق العشب بينما يضع هو حقيبته تحت أحد أطول الاغصان المتدلية. لا مجال بعد لأي كلام.

أطلق الليل ريحاً وأدارت لولا رأسها يمنة ويسرة من دون أن تنبس بكلمة ثمَّ حركت بطنها. تناثرت الأوراق فوق وجهها، بمشهدٍ اعاد لذاكرتها صورة مضت حين تساقطت عليها وهي في السنة الأولى من عمرها وفي المرتبة السادسة بين ستة أطفال دفع بهم الفقر إلى الدنيا. وكما جرى في الماضي البعيد فقد تعرضت سيقان لولا إلى خدوش أحدثتها الأغصان. لكن وجهها لم يتعرض إلى سوءٍ أبدا.

منذ شهور دأبت لولا على القيام مرة في الأسبوع بتغيير الصحيفة الجدارية في الصندوق الزجاجي العائد لدار سكن الطالبات. وقفت عند باب الدخول وحركت أردافها داخل الصندوق الزجاجي. نفخت على الذباب الميت في محاولة للدفع به خارج الصندوق ومسحت الزجاج بزوج من الجوارب ذوات العلامة المسجلة استلتها من حقيبتها. بللت الزجاج بأحد

الجوربين وفركته بالآخر ليجف ثم غيرت قصاصات الصحيفة وجعّدت خطاب الدكتاتور ما قبل الأخير وطوت الخطاب الأخير داخل الصندوق وبعد أن فرغت رمت الجوربين بعيداً .

ما أن أكملت استخدام كل ما كانت تحمله في حقيبتها من جوارب تقريباً التقطت جوارب من حقائب أخرى. قالت إحداهن: هذه ليست جواربك. أجابتها لولا: إنكن لم تعدن تلبسنها فعلاً .

يقضي أحد الآباء صيفه بالعمل في الحديقة. طفلة تقف جنب حوض الزرع وتفكر: الوالد ملمّ نوعا ما بشؤون الحياة، إنَّه لا يتوانَ عن وضع ما يتكلس على ضميره من سوء بأتفه ما يعزق من أصناف النباتات. قبل ذلك بوقت قصير كانت الطفلة قد تمنت لو أن النباتات التافهة تلك استطاعت أن تنجو بنفسها من المعزقة وتواصل الحياة حتى ما بعد الصيف، لكنها لا تستطيع فعلاً أن تهرب لأن ريشها الأبيض لا ينمو إلا بحلول الخريف وعند ذاك تستطيع أن تطير.

لم يضطر الأب إلى الطيران أبدا. لقد زحف منشداً إلى العالم. كان في الماضي قد ارتكب جرائم في اماكن في العالم وتركها على عجل. حرب خاسرة، عسكري من قوات الحماية (أس أس) عائد إلى الوطن، قميص حديث الكي مودع في الدولاب ولم يكن قد ظهر على رأس الأب أي شعر رمادي.

كان الأب ينهض في الصباح الباكر ويطيب له التمدد على العشب. يجد المتعة أثناء الاستلقاء، يحدِّق في غيوم قرمزية تستقدمها صفحة النهار. ولما كان الصباح بارداً كالليل صار على الغيوم القرمزية أن تمزق السماء. في سرة السماء هناك ينعقدُ النهار، في الاسفل فوق العشب تسرَّب الشعور بالعزلة ليجد

طريقه لرأس الأب، ساقه الى جسدٍ دافئ لامرأةٍ، تدفأ به، كان في الماضي قد ارتكب الفضائح فمنح المرأة طفلةً على عجل. يحتفظ الأب بالمقابر في عمق حلقه حيث تتموضع الحنجرة بين الياقة والحنك. الحنجرة مدببة ومسدودة، لذا لا تستطيع المقابر ابداً أن تفصح عن نفسها وتبزغ فوق شفتيه. يشرب فمه العرق المصنوع من أشد أثمار البرقرق سواداً واغانيه في مدح الفوهرر صعبة وسكرى.

للفأس ظِلٌ في المزهر وهو لا يشارك في اعمال البستنه والظل يبقى ساكنا وينظر الى طريق الحديقة. وعند ذاك تقطف طفلة مِلءَ جيوبها من أثمار البرقوق الخضراء.

ويقول الأب عن النباتات البرية المقطوعة بالفؤوس: لا ينبغي ان يأكل المرء اثمار البرقوق الخضراء إذ ان بذورها ما تزال لينة ويؤدي أكلها الى الموت. لا يستطيع أي أحد ان يمد يد المساعدة، يموت الانسان. اذ يلتهب القلب من الداخل بحمى مستعرة.

خيَّم الحزن على عيني الأب أمَّا الطفلة فتدرك تماماً أن حب الأب لها وصل حد الإدمان لدرجة لا يمكنه المحافظة فيها على مشاعره. إن ما اقترفه في حياته من فضائع جعله، يتمنى موت الطفلة.

لذا تأكل الطفلة ما تملأ به جيوبها من اثمار البرقوق تفرغها تماماً. وفي كل الأيام، حين لايرى الأب الطفلة، تلتهم الصغيرة نصف شجرة من اثمار البرقرق في بطنها. تقضم وتفكر أن هذا يقودها الى الموت. ولكنِ لا الأب رأى ذلك ولا الطفلة تحتم عليها الموت فعلاً.

كانت النباتات البرية من العصفر الشوكي. كان الأب ملماً بشؤون الحياة شأنه في ذلك شأن كل انسان يبوح بشيء عن الموت ويعرف كيف ستتواصل الحياة فيما بعد.

كنتُ ارى لولا احياناً واقفة في الحمام تحت مِرشّةِ الاستحمام، يحدث ذلك عصراً حين يكون موعد اغتسال الظهيرة قد فات وأنه ما يزال مبكراً لحمّام الليل. رأيت على ظهرها خيطاً مغطىً بالحصف وعلى ثنية قفاها دائرة يغطيها الحصف. بدا الخيط والدائرة كرقاص ساعة.

ادارت لولا ظهرها على عجل فرأيتُ الرقاص في المرآة. كان المفروض ان أدرك الموقف لأنها فزعت حينما دخلتُ الحمام.

فكرتُ، للولا بشرةٌ مكشوطة ولكنها لاتملك حبا أبدا. ثمة اثار لركلات على بطنها، كانت تتلقاها على أرض المنتزه. كانت عيون الرجال شبيهة عيون الكلاب نهمة تلتهم تضاريس جسمها، رجال اعتادوا على امتداد النهار سماع سقوط مسحوق الغسيل عبر الانبوب الغليظ وعلى الاصوات الشبيهة بحشرجة البهائم. كانت عيونهم تتقد ناراً عند النظر الى لولا بينما تخبوا طوال النهار.

البنات الساكنات في دار الطلبة تتجاور بيبان حجراتهن المربعة الصغيرة باباً جنب الأخرى، ويحتفظن بطعامهن في برادٍ بمطعم الدار، جبن اغنام من اهلهن وبيض وخردل.

وحينما كنت افتح البراد أجد في عمق الدرج لساناً او كلْية. بفعل التجمد كان اللسان يجف والكلية تنفطر مكتسبة لوناً بنيا. يفرغ الدرج عادة بعد ثلاثة أيام.

يظهرُ على وجه لولا أثر المكان البائس الذي جاءت منه. ولم استطع أن أرى إن كانت لولا ترمي بالألسنة والكلى بعيداً أم

تأكلها، لا على عظام خديها ولا حول الفم ولا في العيون.

لم أكن أمعن النظر الى لولا لا في المطعم ولا في قاعة الجمباز لكي أعرف إن كانت تأكل تلك البقايا التافهة للحيوانات المذبوحة أم ترميها بعيداً. كنت اريد أن أعرف ذلك. كان فضولي يتقد لكي أزعج لولا. تظاهرت باللامبالاة. لكنني كنت قادرة على النظر الى لولا طويلاً أو أن القي عليها نظرة عابرة، طالما رأيت أثر منشأها على تقاسيم وجهها. ضبطتها مرة تقلي بيضاً فوق قاعدة المكواة الحامية وتأكله ثم تحك القاعدة بسكين. وتمده إليَّ برأس سكين لأتذوق ما أعدته. هذا طيب المذاق، قالت لولا، لأنه مازال نيئا،ً لا كما في المقلاة. وبعد أن فرغت من الأكل وضعت المكواة في الركن.

غباء كان يعذبني، ففي أوقات الظهيرة وحين كنت أقف في الطابور مع لولا امام المطعم وأجلس بعد ذلك معها على الطاولة نفسها كنت افكر في أن سبب هذا الغباء كامن في أننا كان علينا أن نأكل كالبهائم، لأننا لم نكن نحصل أثناء تناول الطعام إلا على الملاعق. لم يحدث أبداً أن حصلنا على شوكات او سكاكين. كنا نضطر الى تقطيع اللحم بالملاعق فقط ومن ثم نقسمه في الفم الى اجزاء اصغر حجما. وفكرت إن سبب هذا الغباء يعود الى اننا لم يكن يسمح لنا ابداً أن نقطع بالسكاكين او نخز بالشوكات.

المطعم هو اكثر الأماكن التي نشعرُ فيها بالجوع، تكتب لولا في كراستها، طغمة ثقيلة الظل، نَهِمة. ولو تناولناهن فرادى لوجدنا أن كل واحدة بمثابة شاة جموحة. ويكون الجميع كصورة قطيعٍ من كلابٍ نهمة.

في قاعة الجمباز فكرت، أني امتلك الغباء ذاته، لأن لولا لاتستطيع أن تقفز من فوق حصان الوثب لأنها تطوي مرفقيها

تحت بطنها بدلاً من مدهما بقوة ولأنها ترفع ركبتها برخاوة بدلاً من أن تباعد بين ساقيها مثل مقص. عَلِقت لولا فوق حصان الوثب. لم تستطع أن تقفز ولو لمرة واحدة من فوق الحصان. كانت تسقط ويرتطم وجهها بالبساط وليس اقدامها. تبقى ممدة فوق البساط حتى يصرخ مدرب الجمباز.

كانت لولا تعرف أن مدرب الجمباز سيبادر الى رفعها من كتفيها وعجزها وخاصرتيها وأنه، بعد زوال نوبة غضبه، سيلمسها في الفرصة المواتية، ولذا زادت من تثاقل حركتها لكي يتسنى له أن يحتك بجسدها أكثر.

البنات يقفن خلف حصان الوثب، لم تقفز واحدةٌ منهن ولم تجرؤ واحدة منهن على أن تثب من فوق الحصان لأن مدرب الجمباز أحضر للولا قدحَ ماءٍ باردٍ. أتى به من المنزع وقربه من فمها. عرفت على الفور بأنه سيمسك برأسها مدة أطول إذا شربت الماء على مهل.

وبعد ساعة الجمباز وقفت البنات امام الدواليب النحيفة في المنزع وارتدين ملابسهن. قالت احداهن: انك تريدين بلوزتي. قالت لولا، لن التهمها، انا بحاجة اليها لهذا اليوم فقط فثمة ما أنوي فعله.

في كل يوم، نادت احداهن من جوف حجرة مربعة صغيرة، ان الملابس ليست لكِ، هل تفهمين، لا تعود لكِ. لكن لولا كانت رغم ذلك ترتديها وتذهب الى المدينة. هكذا ومثلما تعاقبت على غايتها الأيام تترى آنذاك دأبت لولا على ارتداء الملابس. كانت متقبضة ورطبة بفعل التعرق او المطر او الثلج. حرصت لولا على أن تعيدها الى الدولاب وتعلقها متراصة الى بعضها.

الدولاب عامرٌ بمستعمرات البراغيث وهكذا هي حال الاسرّة كانت ملأى بالبراغيث. وفي الحقائب الحاوية على الجوارب ذات العلامات الفارقة وفي الدهليز الطويل. وحتى غرفة الطعام وغرفة الحمَّام والمِقصف. كانت البراغيث في الترام والمتاجر ودار السينما.

الجميع يحكّون أثناء الصلاة، تكتب لولا في كراستها. آثرت الذهاب الى الكنيسة صباح كل أحد. حتى القسيس هو الآخر يحكَ مجبراً. يا أبانا الذي في السماء، البراغيث تجتاح أرجاء المدينة، تكتب لولا حلَ المساء في الحجرة المربعة لكن الوقت لم يكن متأخرا. مكبرات الصوت تطلق أناشيد العمال، في الخارج على اسفلت الشارع ما يزال صدى وقع أحذية يتناهى للسمع في المنتزه الكثيف. كان العريش مايزال رمادي اللون وليس اسود.

لولا مستلقية على الفراش ولم تكن ترتدي سوى جوارب ثخينة، لاشيء غيرها. أخي يسوق الخراف مساءً الى الدار، تكتب لولا، يتوجب عليه أن يقطع حقل البطيخ بكامله. لقد ترك المرعى متأخراً جدا، الظّلام يخيم، الخراف تسير بسيقانها النحيفة عبر الحقل وتدوس البطيخات، ينام أخي في الحظيرة وتبيت الخراف ليلها كله بأرجل حمراء.

دسّت لولا قنينة فارغة بين الساقين. أدارت رأسها يمين ويسار وحركت بطنها، كل البنات تجمّعن حول سريرها. امسكت احداهن لولا من شعرها ضحكت اخرى بصوت عال. دسّت اخرى يدها في فمها وتابعت التفرج فيما بدأت اخرى بالبكاء. لم أعد أعرف من منهن كنت أنا.

لكنني مازلت اعرف بأن دوارا اعتراني في ذلك المساء المبكر

بعد أن أطلت النظر عبر النافذة واهتزت الحجرة في زجاج النافذة. تضاءل الكل امام عيني الى حد كبير وتضاءلت نفسي ايضاً الى حدٍ دانٍ جدا ونحن وقوف حول سرير لولا ولكنني رأيت لولا فوق رؤوسنا صورة كبيرة جداً تنعكس على النافذة المعلقة قبالة هبوب الهواء، تسير في المتنزه الكثيف. رأيت رجالها واقفين عند محطة الترام في الانتظار. هز صدغي هدير ترام قادم. كان ينطلق مثل علبة كبريت. وحتى الضوء في داخل المركبة كان ينير مقطعاً مثل لهب يقرب المرء يديه اليه أثناء هبوب الريح في الخارج. تزاحم رجال لولا وتدافعوا. كانت حقائبهم تنثر جنب سكة الترام مسحوق الغسيل والبقايا التافهة للحيوانات المذبوحة. ثم اطفأت احداهن النور فاختفت الصورة من على لوحة زجاج النافذة وبقيت وحدها مصابيح الشارع الصفراء معلقة في صف واحد على الجانب الآخر منه. ثم عدتُ الى الوقوف مع البنات حول سرير لولا. سمعت خرخشة تحت ظهرها في السرير لن انساها ولن اخطأ في تشخيصها مادمت حيةً في هذه الدنيا. سمعت لولا تحش الحب الذي لم يبلغ حد النضوج أبداً وشاهدت كل عود طويل فوق شرشفها المتسخ.

كانت دقات رقاص الساعة المشوهة تنقر في رأسي آنذاك بينما كانت لولا تلهث وقد فقدت الوعي.

لم تفتن سوى رؤية واحد من رجالها في الصورة المنعكسة على لوحة النافذة الزجاجية.

اعتادت لولا على العودة دائما الى مقعد الدراسة وكانت كلمة مقعد تعجبها كثيراً. تذكر امام الآخرين كم أنها تستحسن تلك الكلمة. كانت تتحدث دوماً عن الادراك وانسجام المدينة مع القرية. اصبحت لولا عضوا في الحزب منذ اسبوع وكانت تري

هوية الحزب الحمراء للناس. صورتها ملتصقة على الصفحة الاولى وهوية الحزب تدور بين انامل البنات من يد ليد. ملامح الفقر البادية في الصورة تكشف عن المنطقة المتخلفة التي جاءت منها لولا لأن الورق الذي طبعت عليه كان صقيلا. قالت احداهن: انكِ فعلا تذهبين الى الكنيسة. فأجابت لولا: ذلك ما يفعله الاخرون ايضا. على المرء الا يُعلن انه يعرف الاخرين. قالت احداهن: يرعى الرب شؤونك في السماء والحزب يرعاك على الارض.

كراسات الحزب مكدسة الى جوار فراش لولا.

احداهن همست في الحجرة المربعة الصغيرة بينما التزمت اخرى الصمت. البنات يتهامسن طويلا ثم يصمتن حينما تتواجد لولا في الحجرة.

تدوّن لولا في كراستها: كانت الأم تذهب معي الى الكنيسة. المكان بارد هناك ولكنه يبدو دافئا بفعل بخور القسيس.

ينزع الجميع قفازاتهم ويُبقونها في اياديهم المطوية. كنت اجلس على مصطبة الأطفال، عند الحافة تماما لكي أستطيع أن ارى الأم.

ومنذ أن كانت لولا تنكب على تنظيف الصندوق الزجاجي، دأبت البنات الاخريات على التلويح باشارات بالعيون والايادي، حينما كن يفضلن السكوت على ذكر أي شيء امام لولا.

تقول الام، ان لولا تصلي من اجلي ايضا، تكتب لولا في كراستها. في قفازي ثقب عند نهاية الابهام، ولذلك الثقب اكليل مكون من غرزات مدببة. اعتبرها اكليل اشواك.

كانت لولا جالسة على الفراش تقرأ في كراسة حول تطوير

العمل الأيدولوجي للحزب.

اسحب الخيط، تدون لولا، فيدير اكليل الشوك نفسه نحو الأسفل. الام تقول، ايها الرب فلتشملنا برحمتك، وانا ارفع ابهام القفاز.

كانت لولا ترسم خطاً تحت كثير من جمل الكراسات الرقيقة وكأن يدها سلبتها قدرة الهيمنة على سياق المواضيع الواردة فيها. وتزايد كوم الكراسات جنب السرير حتى بدا مثل خزانة مائلة. وكانت لولا تفكر طويلاً قبل الانتقال من جملة الى اخرى.

لا أرمي الصوف بعيداً، تكتب لولا، حتى وإن كان مشعثاً للغاية.

كانت تضع الأقواس على طرفي الجمل في الكراسات. وترسم جنب كل قوس صليباً غليظاً في الحاشية.

تقوم الأم برتق ابهام القفاز لي، تكتب لولا في كراستها، وتستخدم الصوف الجديد لرأس الابهام.

وبينما كانت لولا تدرس في المرحلة الرابعة حدث أن وجدت في عصر أحد الأيام ملابس البنات كلها مطروحة فوق الاسرة أما حقيبتها فتقبع مشرعة تحت النافذة المفتوحة وفي داخلها ملابسها القليلة وعدد من الكراسات الحزبية.

في عصر اليوم ذاته عرفت سبب ذلك العجز الذي أعاقني عن رؤية أحد رجال لولا في مرآة النافذة. لقد كان مختلفاً عن رجال منتصف كل ليلة وكل نوبة عمل متأخرة. كان يتناول طعامه في جامعة الحزب، لا يستقل الترام ولم يكن يلاحقها الى المتنزه الكثيف أبدا. كانت عنده سيارة وسائق.

تكتب لولا في كراستها: الآن هو الأول الذي يرتدي قميصاً

أبيض. هكذا كانت الأمور في عصر ذلك اليوم قبل الثالثة بقليل.

حينما كانت لولا في المرحلة الرابعة من دراستها وتوشك أن تصبح ذات شأن: كانت ملابس البنات معزولة عن ملابسها ومطروحة فوق الأسرّة. كانت الشمس الساخنة تدخل الحجرة المربعة والغبار يتراكم فوق مشمّع الأرضية مثل فرو رمادي والى جنب سرير لولا ـ موضع الكراسات قبل اختفائها ـ بقعة جرداء غامقة اللون. لولا معلقة بحزامي داخل الدولاب.

حضر ثلاثة رجال. قاموا بالتقاط صور للولا متدلية داخل الدولاب. ثم فكوا الحزام ووضعوه في كيس بلاستيكي شفاف. كان الكيس في غاية الخفة مثل جوارب البنطلون العائدة للبنات. اخرج الرجال الثلاثة من جيوب جاكتاتهم ثلاث علب صغيرة وقاموا بسد غطاء حقيبة لولا وفتحوا سدادات العلب. كان في كل علبة مسحوق أخضر غامق. نثروه فوق الحقيبة ثم على باب الدولاب. كان ذلك المسحوق جافاً يشبه المواد المستعملة لتجميل الرموش.

مندهشة كنت أنظر اليهم مثل البنات الأخريات. لم يكن قد خطر على بالي أن هناك سخاماً اخضر اللون ايضا.

لم يقم الرجال بطرح الأسئلة علينا. كانوا يعرفون السبب.

خمس بنات يتسمرن قبالة مدخل دار الطالبات. صورة لولا معلقة تتوسط الصندوق الزجاجي، الصورة ذاتها التي رأيتها ملصقة على الهوية الحزبية. تحت الصورة ورقة تبرز وحيدة. قرأ أحدهم بصوت عال:

هذه صورة الطالبة التي إنتحرت. نحن نستنكر ما فعلته ونحتقرها. لأن الحدث عارٌ على البلاد كلها.

في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم عثرتُ على كراسة لولا. كانت قد أخفتها تحت جواربي قبل أن تأخذ حزامي.

دسستُ الكراسة في حقيبة يدي وذهبت باتجاه محطة الترام.

ما أن صعدتُ الترام حتى بدأتُ القراءة. بدأتُ بالصفحة الأخيرة. لولا تكتب: كان مدرس الجمباز يستدعيني كل مساء الى قاعة الجمباز ويحكم اغلاق الباب من الداخل. الكرات الجلدية السميكة كانت وحدها تتفرج. كان يكتفي بمرة واحدة. حدث أن تبعته خفيةً فعثرت على موقع بيته. سيكون من المستحيل ان يُبقي على قمصانه بيضاء. بلّغ ادارة المؤسسة عني. لن استطيع ابداً التخلص من القحط. أعرف أن ما عليّ القيام به لن يغفره لي الله. لكني لن أسمح لنفسي ابداً أن أترك طفلي يرعى خرافاً ذات حوافر حمراء.

في المساء وضعتُ كراسة لولا خفية في حقيبتي، تحت الجوارب. اغلقتُ الحقيبة واودعتُ المفتاح تحت وسادتي. وفي الصباح أخذتُ المفتاحَ معي. عقدته بتكةِ البنطلون المطاطية إذ كان عليّ حضور ساعة الجمباز في الثامنة. تأخرت في الحضور بسبب ذلك المفتاح.

اصطفت البنات في طابور وهن يرتدين بنطلونات سوداء قصيرة وقمصان جمباز بيضاء عند رأس حفرة الرمل. وقفت بنتان عند نهاية حفرة الرمل وهن يمسكن بشريط القياس. كانت الريح تخترق عرائش الاشجار الكثيفة. رفع مدرب الجمباز ذراعه وقرقع باصبعين فاطلقت البنات جميعاً أقدامهن في الهواء.

كان الرمل في الحفرة جافا، عدا في المواضع التي كانت

اصابع البنات تنغرز عندها في الرمل فقد كان يبدو رطبا. برودة الرمل الملامس لأصابع قدميّ تشبه برودة المفتاح المثبّت على بطني. نظرت الى الاشجار في الأعلى قبل أن أتحفّز للقفز. قفزت إثر أقدامي لكنها لم تصل بعيدا. فكرت اثناء القفز بمفتاح الحقيبة. وضعت البنتان شريط القياس على الرمل وأعلنتا الرقم وسجل مدرب الجمباز القفزة في كراسته مثل توقيتٍ محدّد ورأيت قلم الرصاص المبري حديثاً في يده وفكرت ان ذلك يتسق مع خلقه، ففي موضع القدم لا يستطيع المرء إلاّ قياس الموت.

حين قفزتُ للمرة الثانية، كان المفتاح قد اصبح ساخناً مثل جلدي ولم يعد ليوخزني. وما أن غرزت أصابع قدمي في الرمل الرطب حتى عاودت النهوض بسرعة لكي لا يلمسني مدرب الجمباز.

وبعد يومين، في العصر، الساعة الرابعة تم في القاعة الكبرى فصل لولا المنتحرة من الحزب وحذف قيدها من الجامعة. حضر التجمع مئات من الناس.

وقف أحدهم خلف المنصة وقال: لقد خيبت ظننا كلنا، ولا تستحق ان تكون طالبة في بلادنا وعضوا في حزبنا. فصفق الجميع.

في المساء قالت احداهن في الحجرة المربعة: لو لم يكن الأمر مبكياً للجميع لما صفقوا طويلا.

لم يجرؤ أحد أن يكون اول من يتوقف عن التصفيق. كل واحد ينظر الى أيدي الاخرين اثناء التصفيق. كان عدد منهم قد توقف لوهلة قصيرة لكنهم فُزعوا ثم استأنفوا التصفيق. لقد تمنى أكثرهم لو توقف ولوحظ انخفاض ايقاع التصفيق في القاعة، وبما

أن الاقلية استأنفت التصفيق مرة اخرى وحافظت على إيقاع ثابت، تداعى معها الاكثرية فتواصل التصفيق. وأخيراً حينما لم يتبق في القاعة كلها سوى مصفق واحد يحدث ضجة تشبه جعجعة ضربات حذاء كبير يهوي على الجدران، عند ذلك أعطى المتحدث بيده إشارة التوقف.

بقيت صورة لولا معلقة في الصندوق الزجاجي طوال اسبوعين. ولكن بعد يومين اختفت كراسةُ مذكرات لولا من حقيبتي المغلقة.

قام الرجال الذين كانوا يحملون المسحوق الاخضر الغامق بوضع لولا على السرير وسحبوه الى الحجرة المربعة. لماذا سحبوا السرير من نهاية موضع القدمين عبر الباب؟ اما الحقيبة وما فيها من الملابس والكيس الحاوي على حزامي فقد حملها شخصٌ يسير خلف نهاية موضع الرأس من السرير. كان يحمل الحقيبة والحزام بيده اليمنى. الغريب أنّه لم يغلق الباب خلفه برغم كون يده اليسرى حرة.

بقيت خمس بنات في الحجرة المربعة، خمسة أسرة، خمس حقائب. وحينما أصبح سرير لولا في الخارج أغلق أحدهم الباب. تشابكت مع كل حركة في الغرفة خيوط الغبار في الهواء الساخن اللمّاع للمكان. كانت أحداهن واقفة عند الحائط تمشط. واخرى اغلقت النافذة وواحدة شدت رباط حذائيها بطريقة غير مألوفة.

لم يكن لأية حركة في تلك الحجرة معنى. كن كلهن صامتات يشغلن ايديهن بعمل شيء ما وما كانت بينهن واحدة تجرؤ على نقل. ملابسها من على سريرها وتعيدها الى الدولاب حيث مكان تعليقها.

تقول الأم: اذا لم تتحملي اعباء الحياة فعليك ان تخلي الدولاب. فهكذا تتلاشى الهموم عبر يديك ويستريح بالك.

لكن الكلام سهل عند الأم. لديها خمسة دواليب وخمسة صناديق في البيت. وحينما تقوم طوال ثلاثة أيام متتالية باخلاء الدواليب والصناديق فإن ذلك يبقى على الدوام دليلاً على وجود عمل.

ذهبتُ الى المنتزه الكثيف ورميتُ بمفتاح الحقيبة في كومة الأحراش. إذ لا يوجد مفتاح يحمي الحقيبة من الايادي الغريبة حينما لا تتواجد احدى البنات في الحجرة. والمحتمل ايضاً انه لا يوجد مفتاح ضد الايادي الصديقة التي تعجن في الحجرة المربعة صبغة الرموش بعود السواك، او التي تضغط على الزر لتطلق النور أو تحجبه وربما تلك التي تقوم بعد موت لولا بحك ما تبقى على المكواة.

لم يكن أحد مجبراً على الهمس أو السكوت أثناء تواجد لولا هناك. لربما كان بمستطاع أحد أن يقول كل شيء للولا. وربما كان باستطاعتي ان اصارحها هي بالذات بكل شيء. لقد جعل قفل الحقيبة من نفسه كذبة. فقد كانت في البلاد أقفال مثيلة كثيرة بعَدَد فِرَقِ إنشاد العمال. على إنَّ كل مفتاح كان محض اكذوبة.

حينما عدت من المنتزه سمعت إحداهن تغني في الحجرة المربعة لأول مرة منذ ممات لولا:

في الامس مساءً دفعت الريح

بي الى ذراعيّ الحـــبيب

فلو أن دفعها ظل مســتمراً

لتكسّــرتُ بين الذراعين

ولكن الريح هدأت لحسن الحظ

غنت احداهن أغنية رومانية ورأيت في الاغنية خرافاً مارةً عبر المساء بحوافر حمراء. سمعت كيف ان الريح هدأت في تلك الأغنية.

طفل ممدد في السرير يقول: لا تطفئ النور وإلاّ ستدخل الاشجار السوداء الى هنا. جدةٌ تغطي الطفل. نَمْ بسرعة، تقول:

وحينما ينام الجميع تنام الريح في الأشجار.

لم تستطع الريح أن تهدأ فهي دائماً كانت تنام، بلغة الاطفال هذه.

بعد ان توقف التصفيق في القاعة الكبرى بإشارة من يد العميد ارتقى مدرب الجمباز منصة الخطيب. كان يرتدي قميصا أبيض ثمَّ جرى التصويت لطرد لولا من الحزب وحذف قيدها في الجامعة.

كان مدرب الجمباز اول من رفع يده فرفُعت الايادي الاخرى بعده. كان كل واحد ينظر اثناء رفع يده إلى اذرع الآخرين كيف تعلو! فإن كانت يد احدهم غير عالية بما يكفي في الهواء مثل ايادي الآخرين رفع بعضهم مِرفَقه قليلا. كانوا يمدون أيديهم باتجاه السماء حتى تتعب اصابعهم وتنحني نحو الامام لفرط ما تتوتر ثمّ ترتد مرافقهم مثقله نحوِ الاسفل. كانوا يتلفتون حول انفسهم يرفعون أصابعهم مستقيمة مرة اخرى ويعاودون رفع مرافقهم من جديد. بانت بقع العَرق تِحت الآباط وبرزت حافات القمصان والبلوزات إلى الخارج. إشرأبت الاعناق، احمرت الآذان وغدت الافواه نصف مفتوحه. أمّا الرؤوس فظلت جامده، وحدها العيون تجول يمنة ويسرة.

وبلغ السكون بين الأيدي حداً، وصفته احداهن في الحجرة المربعة، يستطيع المرء عنده أن يحس بالأنفاس وهي تتوالى صعوداً وهبوطاً فوق خشب المصاطب. وبقى الهدوء سائداً هكذا حتى وضع مدرب الجمباز يده على منصة الخطيب وقال: لا حاجة للعد فالجميع مؤيدون طبعاً.

خطر لي في اليوم الذي تلا الاحداث وانا في المدينة، إن الذين يمرون بهذه الشوارع، كانوا في القاعة الكبيرة سيتبعون إشارة ذراع مدرب الجمباز وسيقفزون من فوق حصان الوثب. كانوا جميعا سيرفعون اصابعهم باستقامة ويمدون مرافقهم مستقيمة ايضاً ويديرون عيونهم بهدوء يمنة ويسرة. قمت بعدّ الوجوه التي كانت تمر بي تحت الشمس اللاسعة. وصل عَدّي حتى تسعمائة وتسع وتسعين، بدأت كعباي تلتهبان فجلست على أحدى المصاطب ولممت اصابع رجليّ نحوي واتكأت على ظهري. وضعت سبابتي على خدي وعددت نفسي مع من عددتهم سابقاً. الف، تبادر الرقم لذهني فبلعته.

مرت حمامةٌ من فوق المصطبة التي كنت أجلس عليها تابعتُ النظر اليها. تباطأت في الطيران وخفضت جناحيها. ومن فرط حرارة الهواء ظل منقارها نصف مفتوح. نقرت فأحدث ذلك صوتاً كما لو كان المنقار من صفيح. إلتقطتْ حصاةً. وحينما بلعت الحمامة الحصاة فكرتُ: حتى لولا كانت سترفع يدها. لكن ذلك لم يعد مجدياً الآن.

كنت اراقب رجال لولا الذين كانوا يعودون من نوبة العمل المبكرة. كانوا فلاحين جيء بهم من القرية. كانوا قد قالوا ايضاً لا خراف بعد اليوم، لا بطيخ بعد الآن. وخرجوا كالمجانين من نفايات المدن وزحفوا من فوق الأنابيب الغليظة الممتدة فوق

الحقول حتى أطراف كل قرية.

كان الرجال يعرفون أن حديدهم وخشبهم ومسحوق غسيلهم لم تكن ذات قيمة، لذا بقيت أكفهم غليظة. لم يكونوا ينتجون من الخشب والحديد سوى ما هو سمج وبدائي بدلا من المنتجات الصناعية. فكل ما أريد أن يصنع بأيديهم كبير وذا زوايا آلت نتيجته حروفا من صفيح، وما اريد ان يكون صغيراً ومكوراً صار في أيديهم بطيخة من خشب.

كان بروليتاريا خراف الصفيح وبطيخ الخشب يذهبون بعد نوبة العمل إلى أقرب حانة، يتخذون شكل قطيع إلى الحديقة الصيفية لاحدى الخمارات. وبينما كان أصحاب الاجسام الثقيلة يقبلون على المقاعد ينصرف النادل إلى قلب غطاء المنضدة الأحمر. سقطت السدادات الفلينية وبقايا الخبز والعظام على الارض جنب البراميل الحاوية للازهار. اصاب الجفاف كلّ ما كان أخضر، الأرض منبوشة بفعل السجائر التي أطفئت على عجل. كانت أصص ازهار الجيرانيوم معلقة على سياج الخمّارة واغصانها عارية عدا نهايتها إذ نمت فيها ثلاث او اربع ورقات.

كان الطعام الرديء يبعث أبخرته من على الطاولات. على الطاولات وضعت الايدي والملاعق ولم توضع أبداً سكاكين أو شوكات. كان السحب والقطع بالفم، هكذا أعتاد الجميع على الاكل، حينما توضع في الصحون البقايا التافهة من الحيوانات المذبوحة.

وكذلك كانت الحانة نفسها محض اكذوبة، وأغطية الطاولات وانواع النباتات والقناني وأزياء النُدل الحمراء الداكنة. لم يكن هنا أحد ضيفاً بل مجرد زبون طارئ حل في المكان على عجل في عصر ذلك اليوم عديم الجدوى.

كان الرجال يترنحون ويصرخون فيما بينهم قبل أن يضرب بعضهم بعضاً بالقناني الفارغة على الرؤوس. كانوا ينزفون. فاذا سقطت سن على الارض، ضحكوا، وكأن أحداً فقَدَ زراً من قميصه. انحنى أحدهم والتقط السن والقاه في قدحه. ولما كانت السن جالبة للحظ فقد انتقلت من قدح إلى آخر. كل شخص كان يريدها.

في وقت ما ضاعت السن، اختفت مثل ألْسِنَةٍ لولا والكلى العائدة لها من البراد في غرفة الطعام. وفي وقت ما بَلَعَ أحدهم السن. لم يعرف أحدٌ الفاعل. انتزعوا من نبتات الجيرانيوم آخر الاوراق الغضة ومضغوا وهم في شك. تفحصوا الاقداح واحداً بعد الآخر وصرخوا والاوراق الخضراء في افواههم: فلتلتهمَ الخوخَ وليس الاسنان.

أشاروا إلى شخص، كلهم اشاروا إلى ذي القميص الاخضر الفاتح، فأنكر التهمة. دس اصبعه في حنجرته، أفرغ ما في جوفه وقال: يمكنكم الآن ان تفتشوا، إنها أوراق جيرانيوم ولحم وخبز وبيرة ولكن ليس بينها سن. ساقه النادلُ إلى خارج الباب أما الآخرون فصفقوا على الفور.

ثم قال شخص يرتدي قميصاً مخططاً بمربعات: أنا الفاعل. بدأ بالضحك منتقلا إلى البكاء. لزم الجميع الصمت ونظروا إلى الطاولة. لم يكن أحد منهم هنا ضيفا.

فلاحون، فكرت لنفسي، هم من ينتقل من الضحك إلى البكاء ومن الصراخ إلى السكوت. وبفرح ساذج وغضب في غاية الشدة خرج الجمعُ عن الهدوء. وفي نزوعهم إلى الحرص على الحياة كان كل فرد منهم على استعداد في أية لحظة أن يطفئ ومضة الحياة بضربة واحدة. ولا بد أنهم كانوا سيلاحقون لولا في

الظلام بعيون الكلاب ذاتها حتى أعماق الاحراش.

في اليوم التالي حين تتحول نشوة السكر الى صراخ كانوا يذهبون لوحدهم تماماً عبر المتنزه لكي يستعيدوا قواهم. كانت شفاهم متشققة بفعل السُكْرِ وزوايا افواههم مقوضة. كانوا يدسّون اقدامهم بتأنٍ في العشب ويعيدون في اذهانهم رسم كل كلمة استخدموها في صراخهم أثناء السكر ويعيشون بسذاجةٍ طفولية في ثغرات ذاكرة اليوم الفائت. كانوا يخشون من إحتواء صراخهم في الخمّارة على شيءٍ ذي طابع سياسي. كانوا يعرفون أن النُدل يبلّغون عن كل شيء.

لكن السكر يحمي الرأس من المحذور والطعام الرديء يحمي الفم. ولكن حتى وإنْ استطاع اللسان ان يُتمتم فحسب فإن عادة الخوف لا تتخلّى عن الصوت.

كان الخوف راسخاً في نفوسهم. المصنع والخمارة والمتاجر والأحياء السكنية وقاعات الانتظار في محطات القطارات وعربات القطارات المحمّلة بسنابل الحنطة وعباد الشمس وحقول الذرة، كلها كانت عيون حارسة. الترامات والمستشفيات والمقابر. الحيطان والسقوف والسماء المفتوحة. ولكن إذا صادف ـ ويحدث ذلك غالباً ـ ان السكران يقترف خطأً في مكان مقفر، فإن ذلك يُفسّر عادة بأنه خطأً قامت به الجدران والسقوف أو السماء المفتوحة وليس شأناً مقصوداً في دماغ انسان.

وبينما تربط الأم الطفل بالكرسي بإستخدام أحزمة الملابس، وبينما يَحلق الحلاق شعَر الجد وبينما يقول الأب للطفل أنه لا يجوز أكل البرقوق الأخضر، وبينما عبر كل هذه السنين تقف جدة في أحد أركان الغرفة وتتابع وهي شاردة الذهن حركة السير والحديث في البيت، وكأن الريح في الخارج قد هدأت منذ

الصباح وكأن النهار غط في نوم سماوي بعيد. الجدة تُدندِنُ لنفسها باغنيةٍ طوال كل تلك السنوات وتخزنها في رأسها.

للطفل جدتان. واحدة تأتي مساءً مع حبها إلى السرير والطفل ينظر إلى سقف الغرفة الأبيض لأن الجدة تهمُّ بالصلاة. والجدة الاخرى تأتي في المساء مع حبها إلى السرير والطفل ينظر إلى عينيها الداكنتين لأنها تهمُّ بالغناء.

وحينما يعجز عن رؤية سقف الغرفة والعيون الداكنة يستسلم للنوم. إحدى الجدتين لاتبلغ نهاية الصلاة. تتوقف في منتصفها وتغادر. والجدة الاخرى تغني الأغنيّة حتى النهاية، وجهها مائل لأنها تهوى الغناء.

وحينما تنتهي الأغنيّة، تفكر، أن الطفل غارق في نوم عميق. تقول: دع حيوان قلبك يخلد إلى الراحة. لقد لعبت كثيراً هذا اليوم.

تعمِّرُ الجدة المغنية لتسع سنوات أطول من الجدة المصلّية. وتعيش الجدّة المغنية لست سنوات أطول من وعْيها، ولا تستطيع التعرف على أحد في البيت، لم يبق في قعر ذاكرتها غير أغنياتها.

في هذا المساء تخرج من زاوية الغرفة وتذهب إلى المائدة وتقول تحت وهج ضياء يتلألأ: أنا فرحةٌ لانكم الآن جميعاً معي في السماء. لم تعد تعرف أنها ميتة وان عليها أن تغني حتى الموت. لا يصيبها أي مرض يمكن أن يساعدها أثناء الموت.

لم أشد حزاماً حول ثيابي طوال سنتين بعد موت لولا وصارت أشدَّ الاصوات ضجيجاً خافتةً في رأسي. فإن اقتربت مني سيارة شحنٍ أو ترام وبدأ حجمها يكبر شيئاً فشيئاً، شعرت براحةٍ في جبهتي. كانت الأرض تهتز تحت الأقدام. أردت أن

اتقرّب إلى العجلات فقفزت من فوق الطريق قبل وصول المركبات بلحظات. جعلتُ الامر متوقفاً على وصولي إلى الجهة الاخرى وتركت القرار للعجلات بدلاً عني. لفتّي الغبار لوهلة وطار شعري بين السعادة والموت، ضحكتُ وأصبحتُ رابحة. لكنني سمعت ضحكي من الخارج، من بعيد.

كنت أذهب غالباً إلى المتجر حيث كانت تعرض صحون الألمنيوم المملوءة بالأكباد والكُلى في الدولاب الزجاجي. لم يكن المتجر يقع على طريقي ابدا. كنتُ استقل الترام لأصل اليه. هناك في المتجر تتجسّم مناشئ الناس على وجوههم وتظهر بأقصى دقة. الرجال والنساء يحملون حقائب فيها خيار وبصل، لكنني رأيتهم يحملون اشجار التوت من ذلك المكان إلى خارجه ونظرت إلى وجوههم مباشرة. اخترت واحداً منهم لم يكن اكبر مني سنا، تعقبته. اقتربتُ اكثر فأكثر من المباني القائمة في المُجمّع السكني الحديث بعد أن سرت عبر نباتات شوك عالية في إحدى القرى. وبين الاشواك شاهدتُ رُقعاً من الأرض مفروشة بطماطم حمراء صارخة ودرنات بنجر أبيض. كانت كل بقعة تجسّد قطعة حقل فاشلة. لم أرَ باذنجاناً الاّ حينما أقتربتُ احذيتي منها. الباذنجانات تلمع ككفين مملوءتين بالتوت الاسود.

لم تنتظر الدنيا احداً، قلت في نفسي. فلِمَ يفرض عليَّ أن اسير واكل وأنام وأحب أحداً وانا في خوف. لم أكن احتاج لا إلى الحلاق ولا إلى مقص الأظافر ولم افقد زراً قبل ان آتي إلى الدنيا. كان الوالد ما يزال متعلقاً بالحرب، يعتاش على الغناء وإطلاق النار في العشب. لم يكن عليه أن يحب. كان ينبغي على العشب أن يحتفظ به. إذ أنه حينما رأى في البيت سماء القرية، نما بين لحمه وقميصه مرة أخرى فلاحٌ وبدأ بمزاولة مهنته. كان

العائد من الحرب قد أقترف الفضائع ووجب عليه أن ينجبني.

صرت طفلته ووجب عليّ ان أكبر رغم الموت وصاروا يخاطبونني باستهجان. كانوا يضربونني على يديَّ وينظرون بسرعة البرق إلى وجهي ولكن لم يسأل احدٌ ابداً اين كنت أفضّل العيش، في أي بيت في أي مكان على أي مائدة في أي سرير وبلد بدلاً من السير في البيت والاكل والنوم او حب احد وانا رهينة الخوف.

علينا الربط فقط دائماً لأن الحلَّ استغرق وقتا طويلا، حتى أصبح كلمة. اردتُ الحديث عن لولا وقالت البنات في الحجرة المربعة أن عليّ التزام الصمت ولأنهن أدركن أن غياب لولا صار يعني أن الرأس يصبح أخف حملا. كانت في مكان سرير لولا الان في الحجرة المربعة طاولة مع كرسي. وكانت على الطاولة حافظة زجاجية تحتوي على أغصان جيء بها من المتنزه الكثيف وزهيرات بيضاء وعليها أوراق مدببة. وفي الماء مدت الأغصان جذوراً بيضاء. كان باستطاعة البنات المشي والاكل والنوم في الحجرة المربعة. ولم يكنَّ يخفن من الغناء امام اوراق لولا.

كنتُ اريد الاحتفاظ بكراسة لولا في رأسي.

كان إدغار وكورت وغيورغ يبحثون عن أحد كان يسكن مع لولا في تلك الحجرة. ولما كنت غير قادرة على الاحتفاظ بكراسة لولا لوحدي في رأسي، التقيتُ بهم منذ أن بادروا بالتحدث اليّ في المقصف، وفي كل يوم. كانوا يشكّون في حقيقة موت لولا منتحرة.

قصصت عليهم عن براغيث الأوراق والخراف ذات الأظلاف الحمراء، عن اشجار التوت وسيماء المكان المحفورة في وجه

لولا. وحينما كنت أفكر بها لوحدي، كان يغيب عن ذاكرتي الكثير. ولكن حين يستمعون اليّ كانت ذاكّرتي تتفجر كينبوع. في مرمى أعينهم المحملقة تعلمت أن أقرأ ما في رأسي. وعثرتُ عبر تصدع جمجمتي على كل جملة من كراسة لولا. قرأتها بصوت عال ودوّنَ إدغار كثيراً من الجمل في كراسته. قلت: عاجلاً ستختفي كراستك ايضاً ، لأن إدغار وكورت وغيورغ كانوا يسكنون أيضاً في دار للشباب على الطرف الآخر من المتنزه الكثيف. لكن إدغار قال: لدينا مكان آمن في المدينة، بيت صيفي في كنف حديقة جرداء.

قال كورت: نعلق الكراسة، في كيس من الكتان على الجهة الداخلية لغطاء البئر. كان الثلاثة يضحكون ويقولون دائما: نحن. قال غيورغ: نعلق الكيس بكلاّب داخلي. البئر في الغرفة والبيت الصيفي والحديقة الجرداء ملك رجل لا يُدقق النظر ابدا. وهناك توجد الكتب ايضا، قال كورت.

كانت كتب البيت الصيفي قد جُلبت من مكان بعيد. تحتوي بين صفحاتها معلومات عن آثار مناشئ الناس، فقرهم البادي على وجوههم في هذه المدينة وعن كل خروف صفيحي وكل بطيخة خشبية، عن كل سُكر وضحكةٍ في الخمارة.

من هو الرجل صاحب البيت الصيفي، سألت وفكرت لنفسي: لا أريد أن اعرف ذلك. لزم إدغار وكورت وغيورغ الصمت، كانت عيونهم تنظر شزراً وفي الزاويتين البيضاوين هناك في وجوههم حيث تلتقي الأوردة الدقيقة يلمع صمتهم قلقاً. بدأت بالكلام مسرعة. تحدثتُ عن القاعة الكبيرة وعن إيقاع حذاءٍ كبير صعد الجدار أثناء تصفيق الأيادي، كما تحدثتُ عن الأنفاس التي تسللت من فوق خشب المصاطب، حينما ارتفعت الأذرع

اثناء التصويت.

وشعرت أثناء حديثي كما لو أن شيئاً يشبه حبة كرزٍ استقرت فوق لساني. كانت الحقيقة تنتظر مجموع الناس وإصبعي الذي كان على خدي. ولكن شفاهي لم تنطق كلمة الف كما أني لم اذكر شيئاً عن منقار الحمامة الصفيحي الذي كانت الحمامة تلتقط به الحصى. واصلت الحديث عن حصان الوثب وذباب الرمل وعن اللمس وشرب الماء، عن مفتاح الحقيبة المثبت بتكة السروال. كان إدغار يصغي إليَّ وفي يده القلم دون أن يكتب كلمة في كراسته. وفكرت لنفسي: انه ما زال ينتظر الحقيقة ويحس أنني الزم الصمت أثناء تحدثي، ثم قلت: الآن هو أول من يرتدي قميصاً ابيض. قلت: كلنا نملك أوراق الشجر فأجابني غيورغ: لا يمكن للمرء استيعاب كل هذا.

كان من السهل نطق جُمل لولا من الفم، لكنها بدت كما لو أنَّها عصّية على التدوين. ليس من جهتي وحسب. وكأنه مشهد مما يحدث في الأحلام. تُلائم الفمَ ولكنها لا تصلح للتدوين على الورق. كانت جُملها تمحو نفسها كلما هممت بتدوينها.

كانت هناك معلومات أكثر في الكتب التي جيء بها من البيت الصيفي، أكثر مما كنت أظنِ عادة. هكذا ذهبت بها إلى المقبرة وجلست على مصطبة. جاء أُناس مسنون، ثمَّ ذهبوا لوحدهم إلى أحد القبور الذي ما لبث أن صار قبراً لهم. لم يجلبوا معهم الزهور لأن القبور كانت مكتضه بها. لم يبكوا، كانت أبصارهم ممتدة للاشيء. وكانوا أحياناً يبحثون عن مناديلهم، ينحنون ويمسحون الغبار عن أخذيتهم ويحكمون شد أربطتها، ثم يعيدون المناديل إلى مكانها. لم يبكوا لأنهم لم يرغبوا في أن يُشغلوا خدودهم. ولأن وجوههم كانت عند شاهد القبر، قرب الميت،

خداً على خد في صورة مدوّرة. كانوا يعرفون مسبقاً وينتظرون، لا يعلم احدٌ منذ متى، ان اللقاء عند القبر مستحق لا محالة. كانت اسماؤهم وتواريخ ميلادهم محفورة. وكان موضع صقيل بحجم اليد مخصصاً في انتظار يوم موتهم. لم يطيلوا البقاءَ عند القبر.

كانوا يتجوَّلون بين الممرات الضيقة بين الأزهار وشواهد القبور وأنا معها ننظر اليهم. وحينما أصبحوا خارج المقبرة التصقت المواضع الصقيلة الكثيرة بذلك اليوم الصيفي الذي أثقلته تلال الأزهار وزادت من خموله. الصيف ينمو هنا بطريقة مخالفة لنموه في المدينة. لم يكن صيف المقبرة يستطيب الريح الساخنة. كان الصيف يطوي السماء نحو الأعلى ويترقب حالات موت. وكان يقال في المدينة: الربيع والخريف خطيران بالنسبة للمسنين. فموجة الحرارة الأولى وموجة البرودة الأولى تأخذان المسنين معهما وهنا أدرك المرء ان الصيف هو الذي كان قادراً بأفضل شكل على فتح المصيدة. وهو الذي كان يعرف دوماً كيف السبيل إلى صنع الأزهار من الناس المسنين.

اوراق الاشجار تعود دائماً، حينما يضمر الجسد لأن الحب قد انتهى، تكتب لولا في كراستها.

تنفستُ ببطء، جُملُ لولا تزدحم في رأسي تدور ولا يتسرَّب لها الزلل، بقيت كما هي مثلما دونتها في كراساتها.

كنت عادة اهيم على وجهي أتقلَّب بين أذرع الشوارع. كنت أعرف الشحاذين وأصوات النواح والتصليب واللعنات، والرب العاري والشيطان اللئيم والأيادي الكسيحة وأنصاف السيقان.

أعرف المجانين في كل أرجاء المدينة: أعرف الرجل صاحب

وردة العنق السوداء والذي كان يحمل دائماً باقة الزهور الجافة نفسها. اعتاد أن يتجمّد منذ سنين عند البئر الجافة يعلّق نظره باعالي الشارع حيث كان مبنى السجن قائماً. وحينما كنت ابادر بالتحدث اليه، يقول: لا استطيع التكلم الآن، انها ستحضر حالاً، لربما لن تتعرف عليّ.

انها ستحضر حالاً، كان يقولها منذ سنوات. فيأتي حينما يقول ذلك، شرطي احياناً من أقصى الشارع وجندي احيانا. كانت زوجته قد خرجت من السجن منذ مدة طويلة مضت، ذلك ما كانت تعرفه المدينة بكاملها، فقد كانت مدفونة في تلك المقبرة.

في الساعة السابعة من صباح كل يوم تمر من الشارع قافلة حافلات وقد أسدلت ستائرها الرمادية وكانت تعود مساءً في الساعة السابعة لتقطع الشارع في الأتجاه المعاكس. لم يكن الشارع يتجه نحو الأعلى فنهايته لم تكن أعلى من المكان الذي توجد فيه البئر، لكن الناس اعتادوا أن يروا الأمر هكذا، أو انهم كانوا يكتفون بالقول أنهم يسيرون صعوداً في الشارع لأن السجن كان قائماً هناك في ذلك الأتجاه حيث كان يتوجه رجال الشرطة والجنود فحسب.

وحينما كانت الحافلات تمر بموقع البئر يرى الناس من ثغرات ستائرها اصابع السجناء. وفي أثناء مرور الحافلات لم يكن الناس يسمعون صوت محرك ولا اصطدام او هدير ولا ضجيج الكوابح أو صخب العجلات. لم يكن يتناهى للسمع سوى نباح الكلاب. ضجيج يشق كبد السماء يعلو إلى حد كبير كما لو أن كلاباً على عجلات تمر مرتين في اليوم بموقع البئر.

التحقت بالخيول ذات الكعوب العالية كلاب على عجلات.

تتوجه أمّ بالقطار في كل اسبوع إلى المدينة. يُسمح لطفلٍ أن يرافقها مرتين في السنة، مرة في بداية الصيف ومرة في بداية الشتاء. في المدينة يشعر الطفل انه بحالة مزرية لأنه يُجبر على ارتداء ملابس ثخينة يضيق بها. تذهب في الساعة الثامنة صباحاً إلى محطة القطار صحبة الطفل. الطقس بارد، حتى في بداية الصيف فإن البرد شديد في الساعة الثامنة صباحاً. تريد الأم أن تصل المدينة تمام الثامنة صباحاً لأن المتاجر تفتح ابوابها في هذا التوقيت.

وبينما هما ينتقلان من متجر إلى آخر يخلع الطفل بعضاً من ملابسه ويحملها بيده. لذا فانه يفقد عدداً منها في المدينة. ولذلك السبب أيضاً لا ترغب الأم كثيراً باصطحاب الطفل إلى المدينة. لكن هناك سبباً اسوأ: فالطفل يتوقف احياناً ويريد من الأم أن تتوقف ايضاً وتنتظر حتى تقدم الخيول مرة اخرى. ليس لدى الأم وقتٌ للانتظار ولا تستطيع مواصلة السير بمفردها فتقول: هل تسمع أن للحوافر وقعاً مختلفاً عما لدينا؟

ومن متجر إلى آخر واثناء رحلة العودة في القطار وما بعد ذلك ببضعة ايام يسأل الطفل: لِمَ للخيول كعوبٌ عالية في المدينة؟

كنت اعرف المرأة القزمة في ساحة ترايان، مساحة الجلد البادية على رأسها تزيد على الجزء المغطى بالشعر، امرأة صماء بكماء لها ضفيرة تشبه الكراسي المهملة تحت أشجار التوت المخصصة للمسنين. كانت تأكل فضلات دكّان الفواكه. تحمل كل سنة من الرجال ذاتهم، رجال لولا الذين يعودون من نوبة عمل منتصف الليل المتأخرة. كانت الساحة مظلمة ولم يكن

باستطاعة المرأة القزمة الهروب في الوقت المناسب لأنها لم تكن تسمع حين يقترب منها أحد. ولا قدرة لها على الصراخ.

وحول المحطة كان الفيلسوف يتسكع. يخلط بين التعرف على الناس وأعمدة الهواتف وجذوع الاشجار. يحدِّث للحديد والخشب عن كانط ودنيا الخراف الشرهة، وفي الخّمارة كان ينتقل من طاولة إلى أخرى ويشرب بقايا ما فيها ويُنشّف الأقداح بلحيته الطويلة البيضاء. وفي ساحة السوق كانت تجلس العجوز ذات القبعة المصنوعة من أوراق الصحف والدبابيس. دأبت منذ سنوات في الصيف والشتاء أن تتسكع وهي تلبس زوجاً من مزلاج الثلج وتحمل أكياساً وتنطلق على امتداد الشوارع. أحد الاكياس يحتوي على صحف مطوية. كانت العجوز تصنع قبعة جديدة في كل يوم. وفي كيس آخر تحتفظ بالقبعات الجاهزة.

المجانين وحدهم كانوا سيمتنعون عن رفع الايادي في القاعة الكبرى، لأنهم نجحوا في استبدال الخوف بالجنون التام.

اما انا فقد استطعت أن اواصل عدّ الناس في الشوارع وأعدّ نفسي معهم وكأني سألتقي نفسي مصادفة. وكان باستطاعتي أن أقول لنفسي: أنتِ ياهذه. أو: انتِ يا ألف. لكنني لم استطع امتلاك القدرة على الجنون. كنت في كامل عقلي.

اشتريت شيئاً لتهدئة ما داهمني من جوع، شيئاً يمكن أن يتناوله المرء بيده ومن دون الاستعانة بأية آلة حادة. في الشارع وكما أفعل في المقصف أفضل قَطع اللحم بأسناني. بِعتُ بطاقة طعامي واشتريت ثلاثة أزواج من جوارب البنطلون الشفافة.

ما كنت أذهب إلى حجرة.البنات المربعة إلا للنوم ولكنني لم أكن أنام، بدا رأسي كما لو أنه أخف من المعتاد، حينما أضعه

على الوسادة في الحجرة المظلمة. كانت النافذة مضيئة بفعل مصابيح الشارع. رأيت رأسي في اللوحة الزجاجية وقد بدت جذور شعري مثل بصلات صغيرة مزروعة على فروة رأسي. إذا استلقيت، خطر لي أنَّ شعري سيتساقط. فاستدرت في فراشي كي لا أرى النافذة.

ثم رأيتُ الباب. وحتى لو أن الرجل الذي وضع حقيبة لولا وحزامي آنذاك في الكيس البلاستيكي الشفاف، قد أغلق الباب خلفه، لبقي الموت في الحجرة. كان الباب المغلق في الليالي هو سرير لولا ضياء مصابيح الشارع الشاحبة.

كانوا كلهم يغطون في نوم عميق. بين رأسي والوسادة سمعت حفيف أغراض المجانين الجافة: باقة وَرد المنتظِر اليابسة وضفيرةَ القزمة العشبية وقبعة اَلعجوز الزلاقة المصنوعة من الصحف ولحيةَ الفيلسوف البيضاء.

اثناء تناول وجبة الغداء يطرح الجد الشوكة من يده على المائدة وهو يأخذ آخر قضمة. يترك المائدة ويقول: الف خطوة. يمشي ويعدُّ خطواته، يسير من المائدة حتى الباب وعبر عتبة الباب إلى فناء البيت ثم على البلاط حتى يبلغ العشب. يفكر الطفل انه، سيذهب الان إلى الغابة.

حينذاك يتم عدّ الخطوات المائة. يأتي الجد، بدون ان يعدّ، من العشب حتى يبلغ البلاط ثم عتبة الباب ثم المائدة. يجلس وينصب قطع شطرنجه حتى يبلغ أخيراً نصب الوزيرين. يلعب الشطرنج. يفرش ذراعيه بطولهما على امتداد المائدة يمسك بشعره ويركل بساقيه محدثاً ضربات متسارعة تحت المائدة، يضغط على لسانه وينقله من خد إلى خد ويسحب ذراعيه اليه. يقطبُ وجهه ويشعرُ بالوحدة. تختفي الغرفة لأنه يلعب والجبهة الفاتحة

والغامقة ضده نفسه. وكلما اندفع طعام الغداء من فمه نحو أمعائه في الأسفل زادت تجاعيد وجهه. ثقُلَ وقع الوحدة على الجد إلى الحد الذي أضطره لمحاولة تخفيف الآم ذكريات الحرب العالمية الأولى كلها عبر اللعب مع الوزيرين الأبيض والأسود.

كان الجد قد عاد من الحرب العالمية الاولى كما لو أنّه عاد من خطواته المائة. الأفاعي في ايطاليا غليضة مثل ذراعي هذه، وتكوّرُ نَفسها مثل لفافة من الغزل ثمَّ تتمدد على الصخور بين القرى وتنام. وقد جلستُ مرةً على واحدةٍ من تلك اللفافات بينما يواصل حلاق السرية بدلكِ البُقع الصلعاء في رأسي بعصير الأوراق.

كانت قطع شطرنج الجد بحجم اصابع ابهاميه. الوزيران فحسب كانا بحجم الوسطى. كانا يحملان حجرةً صغيرة تحت الكتف اليسرى، سألتُ: لماذا يا ترى لك صدر واحد. قال الجد: الأحجار الصغيرة هي قلبه. لقد تركت الوزيرين حتى آخر الوقت، نحتّهما كآخر قطعتين. قضيت في نحتهما وقتاً طويلا.

قال لي حلاق السرية: لا تنبت أية أوراق في الدنيا بدلا من الشعرات التي ما زالت على رأسك. انها ضائعة ولابد أن تغادر رأسك. لدي القدرة على عمل شيء بالنسبة للبقع الصلعاء، ففي تلك البقع يَجبرُ عصير الاوراق الرأس على نمو شعر جديد.

وبعد انجازِ نحتِ الوزيرين تساقط شعري كله، قال الجد.

كنا نتحدث إدغار وكورت وغيورغ وبمجرد ان نرى بروليتاريا خِراف الصفيح وبطيخ الخشب يأتون ويذهبون طبقاً لنوبات العمل، كنا نتحدث عن كيفية مغادرتنا لبيوتنا. كنتُ وإدغار قد جئنا من قرى أمّا أصل كورت وغيورغ فمدن صغيرة.

رويت عن جوارب جُلبت مع اشجار التوت. وعن فناءات اناس مسنّين وعن كراسة لولا: من المنطقة إلى خارجها وثم إلى داخلها وانعكاس ذلك على وجه كل انسان، أومأ إدغار برأسه أن نعم وقال غيورغ: الجميع يبقون هنا قرويين. تركنا بيوتنا مع عقولنا ولكننا نقف وأقدامنا في قرية أخرى. لا توجد مدنٌ تحت سلطة دكتاتورية لأن كل شيء يبقى صغيراً حينما يكون تحت المراقبة.

قال غيورغ: المرء يسافر من مدينة إلى أخرى، ويتغير من قروي إلى قروي آخر.

قال كورت: المرء لا يستطيع أن يحذف نفسه كلياً، فالمرء يسافر بالقطار ولا يتحول إلا من قريةٍ أخرى.

قال إدغار: حينما غادرتُ، أدار الحقل نفسه من القرية ولم يبلغ المدينة إلا حين أُقتلع نفسه من تلك الأرض. كانت الذُرة ما تزال خضراء وتتمايل مع الريح. فكرت، أن حديقة الدار تتمدد وتسير خلف القطار. كان القطار يتحرك على مهل.

بدت لي الرحلة طويلةً والمشوار بعيدا، قلت. لم تكن قد بقيتْ لنباتات عباد الشمس اية اوراق وشكلت سيقانها السوداء فاصلاً آمنا. وكانت لها نوى سوداء إلى حدٍ أتعب الركاب في العربة من طول نظرهم اليها، وغلبَ النوم كل الذين كانوا يجلسون معي في المقصورة. كانت سيدة تُمسك في حجرها بطة رماديه وهي تغط في النوم والبطة قوقأت لمدة قصيرة وضعت رقبتها بعدها بين جناحيها وغطت في النوم.

قال كورت: الغابة تغطي مشهد زجاج النافذة دائماً، فجاةً رأيت شريطاً من السماء، فكرت، ان ذلك نهر في الأعلى.

فالغابة اكتسحت المنطقة بكاملها. ان ذلك يناسب نمط تفكير ابي. كان مخموراً اثناء الوداع إلى حد ظن عنده ان ابنه يغادرهم إلى جبهة الحرب. كان يضحك ويربت على كتف امي ويقول: الآن يتركنا ولدنا كورت يذهب للحرب! صرخت امي بوجهه. ثم انتقلت من الصراخ إلى البكاء. كيف يمكن للمرء ان يبلغ حالة السكر هكذا، كررتها مرات. لكنها بكت لأنها صدّقت ما قاله.

قال غيورغ: كان ابي يدفع الدراجة الفارغة بيننا، كنت أحمل حقيبتي في يدي. وحينما غادر القطار المحطة شاهدت أبي جنب الدراجة وهو يسير عائداً إلى المدينة. مشوار طويل وقصير على آن.

قال كورت: ابي يؤمن بالخرافات، امي تخيط له دائماً سترات خضراء. إن من يتجنب اللون الأخضر ستدفنه الغابة، قال. ان تمويهه لا يأتي من أي حيوان، إنه يأتي من الحرب.

أضاف غيورغ: ابي، كان قد أخذ الدراجة معه إلى المحطة لكي لا يضطر على السير بقربي عند الذهاب ولكي لا يشعر اثناء العودة إلى البيت بأنه وحيد خاوي اليدين.

امهات إدغار وكورت وغيورغ كن خياطات. ارتبطت حيواتهن بالبطانة والتقوية والخيط والأبر والزرار والمكواة. وحين يروي إدغار وكورت وغيورغ، يروون عن أمراض امهاتهم كان يخيل لي كما لو أن للخياطات في بنيتهن طراوةً تجاه بخار المكواة. كن مريضات من الداخل: ام إدغار في المرارة، وام كورت في المعدة وام غيورغ في الطحال.

امي كانت فلاحة فحسب وتتمتع بفضل العمل في الحقول بشيء من الصلابة. كانت مريضة من الخارج وتعاني من الآم الظهر.

وبدلاً من الحديث عن آباءنا من منتسبي فِرق (أس أس) النازية العائدين إلى الديار، كنا نتحدث عن أمهاتنا، الأمر الذي كان يثير فينا الدهشة لأن هذه الأمهات بالرغم من أنهن لم يلتقين أبداً في حياتهن ببعضهن فقد دأبن على ارسال الرسائل المتشابهة لنا والمحتوية على الشكوى من الآم أمراضهن.

القطارات التي توقفنا عن ركوبها، دأبت امهاتنا عبر الرسائل على موافاتنا لاحقاً بأخبار الآمهن في المرارة والمعدة والطحال والظهر. كانت أخبار تلك الامراض التي تبرز من اجساد الامهات تصلنا مدونة في رسائل، شأنها في ذلك شأن المسروقات من بقايا الحيوانات المذبوحة المودعة في درج البراد.

الامهات كن يفكرن، أن الامراض أنشوطة للأطفال تبقيهم مرتبطين بالأمهات وهم بعيدين. إنهم يتمنون أن يرزقوا بطفلٍ يسعى إلى ركوب القطار ويقطع حقول عباد الشمس أو الغابة ليتواجد عند العائلة فيرون وجهه.

رؤية تدويرة وجوه الامهات، تجسد رابطة الحب في وجنة أو جبهة. ونستطيع أن نرى بين حين وآخر أولى التجاعيد التي تقول للأطفال بأن أحوال الأباء في حياتهم الحالية أسوأ مما عاشوه في أيام طفولتهم.

لكنهم نسوا في الوقت نفسه، أنهم لم يعد لهم الحق الآن أن يمسحوا على ذلك الوجه أو يضربوه. ولا يمكن لهم أن يلمسوه حتى.

وأدركت أمراض الامهات بأن فك الارتباط مع العائلة. صارت عبارة جميلة عندنا، نحنُ جيل الشباب.

كنا ننتمي كلياً إلى اولئك الذين يجلبون معهم أشجار التوت

ولم نعد أنفسنا محسوبين سوى بمقدار النصف على السائد من الأحاديث. كنا نبحث عن الفروق وبما أننا من قراء الكتب. وبينما كنا نعثر على فروق رقيقة كالشعر كنا نترك الأكياس، تماماً مثلما يفعل الجميع خلف أبوابنا.

ولكن كان مدوناً في الكتب للقراءة أن تلك الأبواب لم تكن مكاناً للأختباء. الجبين وحده هو كل ما كنا نستطيع الأستناد عليه أو فتحه على مصراعيه أو صفقه بشدة. وفي الخلفية كانت لنا نحن أنفسنا امهات يبعثن لنا أمراضهن بالرسائل وكان لنا آباءٌ يخفون ضمائرهم السيئة في أكثر الأمور شراً.

جرى تهريب الكتب الموجودة في البيت الصيفي إلى الريف. كانت مكتوبة بلغة الأم التي تستقر فيها الريح، لم تكن لغة الدولة كما هي الحال في هذا البلد ولا لغة سرير الأطفال القادمة من القرى. لغة الأم موجودة في الكتب. لكن الهدوء القروي الذي يمنع التفكير لم يكن مدوناً فيها. لم تظهر فيها علامة المكان أينما يعم الهدوء وتطبق على الناس فكرة واحدة. كنا نشم الأوراق وضبطنا أنفسنا ونحن غارقون في عادة شم أيدينا. دُهشنا لأن أيدينا لم تتسخ أثناء القراءة بالسخام كما يحدث بفعل حبر الصحف الرسمية والكتب الشائعة في البلد.

كان كل الناس الذين يسعون في المدينة على اختلاف مناشئهم، يشمون أيديهم. لم يكونوا على معرفة بكتب البيت الصيفي. لكنهم يودون الذهاب إلى هناك، وكانت في المكان الذي وردت منه الكتب بنطلونات البلوجينز والبرتقال ولعب أطفال لينة واجهزة تلفاز نقالة للأباء اضافة إلى جوارب بنطلون متناهية الرقة وصبغة رموش ممتازة للأمهات.

كان الجميع يعيش على وقع أفكار الهروب. كانوا يريدون

السباحة عبر نهر الدانوب، حتى يصبح الماء جزءاً من البحث عن سماء أخرى، يريدون الركض وراء حقول الذرة حتى تصبح الارض قطعة من هروب مفترض. كان المرء يرى ذلك في عيونهم: كانوا سيسعون في القريب العاجل وبكل ما يملكون من مال إلى شراء خرائط للارض من المسّاحين. كانوا يأملون في أيام يلفها الضباب في الحقل والنهر لكي يتفادوا رصاص الحراس وكلابهم، لكي يهربوا أو يسبحوا بعيدا. كان بوسع المرء أن يرى ذلك في أيديهم: سيبنون لأنفسهم قريباً بالونات وطيوراً هشه من الشراشف والأغصان الطرية. كما يأملون في الاّ تبقى الريح هادئة لكي يهربوا بعيدا. كان ظاهراً على شفاههم: كانوا يهمسون أنهم قريباً وبمساعدة عامل السكك فضلاً عما يملكون من مال أن سيصعدون إلى قطار الشحن كي ينتقلوا بعيدا.

الاّ الدكتاتور وحراسه لم يكونوا يرغبون في الهرب. كان ذلك بادياً في عيونهم وأياديهم وشفاههم: سيقومون اليوم بل وغداً من جديد بارتكاب الفضائع بالرصاص والكلاب. وكذلك بالحزام والجوزة والنافذة والحبل.

كان الكل يشعر أن الدكتاتور وحراسه يعرفون أسرار خطط الهروب كافة كما كان الكل يحسُّ بأنهم متربصون وينشرون الخوف.

وفي كل مساء دار آخر مصباح عند نهاية كل الشوارع حول نفسه مرة أخرى. كان هذا المصباح مزعجا. كان يحذر المنطقة المجاورة قبل حلول الليل. أصبحت البيوت أصغر حجماً من البشر الذين يمرون بها. وصارت الجسور أصغر من مركبات الترام المارّة من فوقها، الأشجار بات أصغر من الوجوه التي تمر فرادى من تحتها.

كان أمامهم طريقاً يوصل إلى منازلهم على جناح سرعة متهورة. ولم تكن للوجوه القليلة في الشارع حواش رأيت فيها قطعة غمامة معلقة حينما توجهوا نحوي. وعندما أوشكوا على الوقوف امامي تقلصوا عند الخطوة التالية، عدا قطع بلاط الطريق فقد بقيت كبيرة. وبدلا من الغيمة تعلقت، عند الخطوة ما بعد التالية، مقلتان بيضاوان على جبهة. وعند الخطوة ما بعد التالية، قبل ان تصبح الوجوه خلفي اندمجت المقلتان مع بعضهما.

تمسكت بالسير وحافات الشوارع حيث كان الضوء أفضل. أما الغيوم فبَدتْ مثل لفائف من ملابس مكورّة.

وددت لو أن باستطاعتي التريث لأنني لم اكن أملك سريراً سوى في الحجرة المربعة مع البنات. كنت سأنتظر حتى تخلد البنات في الحجرة إلى النوم. لكن الأمر كان في ذلك الضوء الجامد متوقفاً على سرعة المسير وهكذا كنت أُسرع أكثر فأكثر. لم تنتظر الشوارع الجانبية الليلَ. حزموا حقائبهم.

إدغار وغيورغ ينظمان قصائد ويخفونها في البيت الصيفي. وكان كورت يتخفى خلف الزوايا والنباتات الكثيفة، يلتقط صوراً لرتل الحافلات ذوات الستائر الرمادية المسدلة. صباح مساء كانوا ينقلون السجناء إلى مواقع العمل خلف الحقول. انه لمخيف حقاً، قال كورت، أذا ما ظن المرء أن باستطاعته سماع الكلاب تنبح في الصور. فلو صَحَّ أن الكلاب تنبح داخل هذه الصور، قال إدغار، لا نستطيع اخفاءها في البيت الصيفي.

تبادر لذهني، ان كل شيء له فائدة إن كان يؤذي اولئك الذين يرتكبون الفضائع، إيدغار وكورت وغيورغ يُنظمون القصائد ويلتقطون الصور وبين وقت وآخر يدندنون باغنيةٍ ويثيرون الكراهية في نفوس أولئك الذين يرتكبون الفظائع. تلك الكراهية تلحق

الاذى بالحراس وأنه شيئاً فشيئاً سيفقدون رؤوسهم وأخيراً سيأتي دور الدكتاتور أيضاً سيزول حتماً بسبب تلك الكراهية.

لم أكن أعرف آنذاك بأن الحراس كانوا يحتاجون إلى تلك الكراهية من أجل الدقة اليومية لعمل دموي. وأنهم كانوا يصدرون الاحكام ضد الأعداء فحسب. وقد برهن الحراس على كفائتهم عبر عدد الاعداء.

قال إدغار، ان جهاز المخابرات نفسه ينشر الشائعات عن أمراض الدكتاتور لكي يَدفع الناس إلى الهروب ثم القبض عليهم. ويجبر الناس على التهامس ومن ثم يضبطهم. ولم يكن الحراس يكتفون بضبط الناس أثناء سرقة اللحم أو علب الكبريت أو الذرة أو مسحوق الغسيل أو الشموع أو البراغي أو مَشابِكِ الشعر أو الدبابيس والألواح.

وفي اثناء هيامي على غير هُدى لم أكن أشاهد المجانين وحاجياتهم المجدبة فحسب، كنت أرى أيضاً الحراس في الشوارع يسيرون جيئةً وذهابا. شباب ذوو أسنان بيضاء مائلة للصفرّة يقومون بالحراسة أمام مبانٍ ضخمةٍ وفي الساحات وأمام المتاجر وعند محطات توقف الترام وفي المتنزه الكثيف وأمام دور الطلبة وفي الخْمارات وأمام محطة القطار. لم تكن بزاتهم تناسبهم وكان ديدنهم إما التراخي أو شد الأعصاب. كانوا يعرفون، في كل قطاع شرطة يقومون بحراسته، مواقعَ أشجار البرقوق. وكانوا أيضاً يقطعون طرقاً التفافية لكي يمروا بأشجار البرقوق. كانت فروع الأشجار تتدلى نحو الأسفل كثيراً. وكان الحراس يملأون أكياسهم بالبرقوق الأخضر. كانو يقطفون على عجل ويملأون جيوبهم باكياس منها. كانوا يريدون ان يقطفوا لمرة واحدة فقط ولكن ليأكلوا منها لمدة طويلة. وحينما تمتلئ جيوب بزاتهم

يسارعون إلى الابتعاد عن الأشجار. إذْ أن كلمة ط ملتهمو البرقوقس كانت شتيمة. كان الناسُ يطلقون عليهم أسماءً شتى: الوصوليون، فاقدوا الذات، أشباح آدمية جاؤوا زاحفين كالحشرات من اللاشيء، عديمو الضمائر وهم يسيرون فوق الجثث. وأطلقت صفة « مُلتَهم البرقوق » حتى على الدكتاتور.

كان الشباب يتنقلون ذهابا وإياباً وهم يدسّون أيديهم في جيوب بزاتهم. يتناولون مِلءَ اليدِ من البرقوق مرة واحدة لكي لا ينتبه أحدٌ إلى القطفِ وما كان باستطاعتهم تكوير أصابعهم إلاّ بعد أن تمتلئ أفواهَهم تماماً.

ولما كانوا يلتقطون بأيديهم الكثير من البرقوق مرة واحدة يتساقط بعضه على الأرض أثناء الأكل بينما ينحدر غيره الى الأكمام. كان الحراس يدفعون بمقدمة أحذيتهم البرقوق الساقط على الأرض مثل كرات صغيرة إلى العشب. ويتلقفون المتحدر نحو الاكمام عبر ثَنيآت أذرعهم ويدسّون كراته في أفواه مملوءَة أصلا.

رأيت الزَبَدَ على أسنانهم فقلت لنفسي: لا ينبغي أن يأكل المرءُ البرقوق الأخضر، فنوياتها مازالت طرية ومن يأكلها يلقى الموت.

كان ملتهمو البرقوق فلاحين تدفعهم هذه الفاكهة إلى الجنون. كانوا يزدردون بافراط تخلصاً من متاعب الواجبات حتى انزلقوا إلى درك لصوصية الأطفال تحت أشجار القرية. لم يكونوا يأكلون عن جوع بل يشتاقون لنكهة الفقر الحامضة التي كانوا في الماضي القريب قبل سنة يخفضون عيونهم من أجلها وتنكمش رقابهم بخشوع أمام يد الأب.

كانوا يلتهمون كل ما في جيوبهم حتى تفرغ ويسيرون والبرقوق في معدهم. لم تصبهم حمى. كانوا اطفالاً بهيئة مكبرة. وبعيداً عن الاهل تنطلق مشاعرهم الداخلية الحامية في إطار الواجب.

كانوا يصرخون في وجه الشخص الأول لأن الشمس كانت ملتهبة، والريح تعصف بشدة، او لان المطر بدأ بالهطول. أما الشخص الثاني فيسحبوه لمسافة ثم يطلقوه. والثالث يصرعونه ارضا. كانت حرارة البرقوق تظل في جماجمهم هادئة جدا، ثم يلقون القبض على رابع بجدٍ وبدون ثورة غضب. وبعد ربع ساعة كانوا يقفون مرة اخرى في مركز الشرطة.

وإذْ جاءت النساء الشابات أمعنوا البحلقة على سيقانهن. وكان قرار اطلاقهن أو الامساك بهن بقوة يُتخذ في اللحظة الاخيرة. كان عليهم ان يدركوا بأن المسألة حول سيقان كتلك لم تكن متوقفة على الأسباب بل متعلقة بالمزاج فحسب.

كان المارّة يسيرون من أمامهم بسرعة وبدون ضجيج. تعرفوا على بعضهم من جديد إذ كانوا معارفاً في وقت مضى. وهذا ما جعل خطوات الرجال والنساء هادئةً بذلك الشكل. الساعات دقت من على أبراج الكنائس ووزعت الأيامَ المشمسة والماطرة بين الضحى والعصر. غيرت السماء نورها وغير بلاط الشارع لونه والريح اتجاهها والأشجار حفيفها.

كذلك أكل إدغار وكورت وغيورغ البرقوق مثل الأطفال. لم تبق في أذهانهم أية صورة من ذلك الثمر إذْ لم يكن هناك أب يزعجهم أثناء تناول الطعام. وضحكوا عليّ حينما قلت: يموت المرءُ ولا يستطيع أحد تقديم المساعدة، وبسبب حمى مستعرة يحترق قلبك من الداخل. هزّوا رؤوسهم حينما قلت: لم أكن

أهمُّ بِعضِّ الموت لأن والدي لم يرني وانا آكل. إن الحراس يأكلون علناً، قلت. انهم لا يعضّون الموت لأن المارّة على معرفة بكسر فروع الأشجار أثناء القطف كما أَنهم يُحسنونَ التجشؤَ الحامض كالفقراء.

كان كل من إدغار وكورت وغيورغ يسكنون في دار الطلبة نفسها، في غرف مختلفة، إدغار في الطابق الرابع وكورت في الثاني وغيورغ في الثالث. يسكن في كل غرفة خمسة شبان وتوجد فيها خمسة أسرة وخمسة حقائب تحتها. شباك ومكبرة صوت فوق الباب ودولاب مبني في الجدار. كانت الجوارب في كل حقيبة وتحت الجوارب كريم حلاقة وشفرة للحلاقة.

وحينما دخل إدغار الغرفة رمى أحدهم أحذيته من النافذه صائحاً: اقفز خلفها وآلبسها أثناء طيرانك. وفي الطابق الثاني اصطدم أحدهم بباب الدولاب وصاح: فلتقم بأعمالك القذرة في مكان آخر. وفي الطابق الثالث رمى أحدهم بكراسةٍ في وجه غيورغ وصاح أحدهم: حينما تتبرّز، كُلْ خراءَك بنفسك.

هدّد الشبان كلاً من إدغار وكورت وغيورغ بالضرب. كان ثلاثة رجال قد غادروا المكان لتوّهم. بعد أن فتشوا الغرف وقالوا للشبان: إن لم تعجبكم هذه الزيارة تحدثوا اذاً مع الذي ليس هنا. تحدثوا، قالوا رافعين قبضاتهم.

وحينما جاء إدغار وكورت وغيورغ إلى الحجرة المربعة، تلاشت فورةُ الغضب. ضحك إدغار ورمى بحقيبته عبر النافذة. قال كورت: إحذر أيها الدود. قال غيورغ: انك تتحدث عن البراز، وأسنانك ينخرها السوس في فمك.

في كل غرفة يغلي واحد غضباً فحسب من بين أربعة شبان،

قال إدغار وكورت وغيورغ. خبا لظى الغضب لأن الثلاثة الاخرين جنحوا إلى الشيء نفسه وتخلّوا عن الذي انتابه الغضب حينما حظر إدغار وكورت وغيورغ. ظلوا واقفين كمن أصابهم الشلل.

ضرب الشخص الغاضب من داخل غرفة إدغار الباب بقوة وأغلقها. أسرع نحو الاسفل وعادَ مع حقيبته جالباً معه أحذية إدغار أيضاً.

لم يكن في الحجرة المربعة الصغيرة شيءٌ يستحق التفتيش. قال إدغار: لم يعثروا على شيء. وقال غيورغ: لقد هيّجوا البراغيث وملاءات الأسرة مملوءة بالنقط السوداء. الشباب يطبقون جفونهم على قلق دفين ويغادرون الغرفة في الليل.

كانت هناك أشياءُ كثيرة تستوجب التفتيش عند والديّ كل من إدغار وكورت وغيورغ. بَعَثت أُم غيورغ برسالة تذكر فيها الآم طحالها والتي زادت بسبب الخوف. وبعثت أم كورت رسالة تذكر فيها الآم معدتها التي دأبت على الهياج بشدة. وكتب الآباء، ولأول مرة، في هذه الرسائل سطراً في الحاشية: لا يجوز لك الاساءة إلى أمك مرة أخرى على الاطلاق.

وصل والد إدغار بالقطار إلى المدينة وصعد إلى الترام ثم أخذ طريق تحويلة واتجه نحو سكن الطلبة متجنباً المرور بالمتنزه الكثيف. ورجا أحد الشبان لكي يستدعي إدغار إلى مدخل السكن.

وحينما نزلتُ الدرج ووصلت إلى الطابق الأرضي رأيت أبي وإلى جانبه شاب صغير، يقرأ الاعلانات الملصوقة على صندوق العرض، قال ادغار. ماذا هناك يستحق القراءة، قلت، ناوَلَني كيساً مملوءاً بالبندق الطازج المقطوف لتوه من البيت. أخرج

رسالة أمي من جيبه الداخلي وقال: المتنزه مُهملٌ ولا يطيب لأحد الذهاب اليه. أومأ إدغار برأسه وقرأ في الرسالة أن آلآم المرارة أصبحت لاتطاق.

ذهب إدغار بصحبة أبيه عبر المتنزه إلى الخمارة خلف موقف الحافلات.

ثلاثة رجال يستقلون سيارة، قال والد إدغار. بقي الأول واقفاً عند الشارع في الخارج. جلس على جسر المقبرة منتظراً، كان مجرد سائق، بينما دخل الاثنان الآخران إلى البيت. كانت لأصغرهم سِنّاً صلعةٌ وللأكبر شعرٌ ناله اللون الرمادي. كانت أُم إدغار تهمُّ برفع ستائر السَحْبِ نحو الأعلى فقال الرجل الأصلع: اتركيها مغلقة واشعلي النور. وكان الأكبر سناً قد عبث بالسرير وفتش محتوياته من الوسائد والاغطية والمطرحة. ثم طلب مفكاً وبدأ الاصلع بتفصيخ هيكل السرير.

انسحب إدغار ببطء ورافقه أبوه بخطئ ثقيلة إلى طريق المتنزه. كان ينظر أثناء الحديث إلى النباتات الكثيفة كما لو أن عَليه أن يعدّ الاوراق. سأله إدغار: عمَّ يبحث. قال الأب: لقد سحبوا السجادة بعيداً وافرغوا الدواليب من محتوياتها، لا أبحث عن شيء، إذ انني لم أفقد شيئاً.

أشار ادغار إلى بزة أبيه. كان أحد ازرارها ناقصاً حينما مدَّ الأب يده داخل جيبه الداخلي ليخرج الرسالة. ضحك إدغار: لعلك تبحث عن زرك. قال الأب: لابد أنه سقط في القطار.

لم يستطيعوا قراءة رسائل عَمّيْ إدغار المقيمين في النمسا والبرازيل. قال والد إدغار: لأنها مكتوبة بالالمانية. لقد أخذا معهما الرسالتين. وكذلك الصور التي كانت فيهما. كنتَ ترى في

تلك الصور بيتَي العمين وأقرباء الأسرتين وبيوتهم. كانت البيوت متطابقة. كم غرفة لديهم في النمسا؟ سأل الاكبر سناً. مانوع هذه الاشجار؟ سأل صاحب الصلعة، مشيراً إلى صورة من البرازيل

أما العجوز فسأل: عن الرسائل الآتية من ابنة الأخ، لم يسبق لها ان كتبت أبدا

قالت أم إدغار. هل أنتِ متأكدة؟

فأجاب: كلا، لربما تكتب وهو لا يتلقى أية رسائل.

في الخمارة حذراً جلس والد إدغار على كرسيه، كما لو أن أحداً كان يجلس عليه قبله. في غرفة إدغار صاحب الصلعة مزّق حاشية الستارة ورمى الكتب القديمة من الدولاب مع الأوراق إلى الأسفل. ضغط والد إدغار بكفيه المفروشتين على الطاولة لكي لا ترتجفا. قال: ما الذي يمكن أن يوجد في الكتب القديمة يا ترُى؟ إذ لم يخرج منها سوى الغبار. وانسكب العرق من الكأس اثناء محاولة التجرع.

لقد قلعوا نبتات الأزهار من بسطة النافذة وفتتوا بأيديهم تراب الأصص، قال والد إدغار. تساقط التراب على طاولة المطبخ وبقيت الجذور النحيفة عالقة بين أصابعهم. صاحب الصلعة تهجى كلمات من كتاب المطبخ: كبد برازيلي، أكباد دجاج مخلوطة بالطحين. كان العجوز قد ذهب إلى فناءِ البيت والحديقة وواصل التفتيش.

صب إدغار لأبيه مزيداً من العرق قائلا: خذ وقتك أثناء الشرب. كان السائق قد نهض وبال في الحديقة، قال والد إدغار، ووضع القدح الفارغ على الطاولة، وكيف آخذ وقتي، قال، انني لا أسرع على الأطلاق. السائق بال، قال والد إدغار، والبطات

أسرعن اليه للتفرج، ظناً منهن أنهن سيحصلن، كما هي الحال عصر كل يوم، على ماء جديد. ضحك السائق وزرّر بنطلونه وكسر قطعة خشب متعفنة من طرف الجسر. فتّت قطعة الخشب بيده ورماها في العشب. ظنت البطات أنهن يحصلن، كما هي الحال عصر كل يوم، على حبات ذرة لكنهن التهمن فتيت الخشب.

وتبين بعد أعمال التفتيش ان الرجل الخشبي الصغير الذي كان عم إدغار قد نحته في أيام طفولته في البرازيل، قد اختفى من على الكومودينو منذ حملة التفتيش.

كان عما إدغار من منتسبي فرقة أس أس الذين تواروا عن الأنظار بعد الحرب الخاسرة التي شردتهم إلى بلدان غريبة في مختلف جهات الدنيا. كانوا أثناء انتسابهم إلى وحدات الجمجمة قد قاموا بارتكاب فضائع وتفرقوا بعد انتهاء الحرب. كانوا يحملون في رؤوسهم البضاعة نفسها. لم يسعوا إلى البحث عن بعضهم قط. التقطوا امرأة من المنطقة وشيدوا معها في النمسا أو البرازيل سقفا مدبباً واربع نوافذ مزينة بصلبان بلون العشب وسياجاً باللون نفسه من العوارض الخشبية. تكيفوا مع الأماكن الغريبة عليهم وبنوا بيتين سفابيين، بطابع سفابي مثل أدمغتهم، وعلى مكانين غريمين حيث كان كل شيء مختلفا. وحينما كمل بناء البيوت انجبوا لزوجاتهم طفلين سفابيين.

الأشجار وحدها أمام البيت، والتي اعتادوا أن يقطعوها كل سنة، كما في الوطن قبل الحرب، تجاوزت في نموها النموذج السفابي وتناغما مع السماء المختلفة والأرض والمناخ.

جلسنا في المتنزه الكثيف نأكل من بندق إدغار. قال إدغار: ان لها طعم المرارة. كان قد نزع حذاءه وبدأ يطرق البندق

بالكعب. وضع الجوزات على صحيفة. ولم يشترك بالأكل. ناولني غيورغ مفتاحاً وارسلني لأول مرة إلى البيت الصيفي.

اخذتُ المفتاح من الحذاء. فتحتُ الباب ولم أشعل النور بل أشعلتُ عود ثقاب. كانت المضخة منتصبة هناك، كبيرة ونحيفة مثل رجل ذي ذراع. كانت سترة بالية معلقة على انبوب المضخة، وتحتها رشاشة صدئة. كانت مركونة على الجدار كلاليب ومجاريف وجرافات ومقلمة كروم ومكنسة، كلها مغطاة بالتراب. رفعت غطاء البئر، وكان الكيس الكتاني متدلياً فوق حفرة عميقة. اخذته من الكلاّب ودسست فيه الكتب وعلقته في مكانه. اغلقت الباب خلفي.

سرت عبر العشب نحو الطريق الذي كنت قد مررت فوقه عند مجيئي. اكوام من الخبازي المكونة من نبات عنب الثعلب الأرجواني وزهرات آذان الدب كانت منتصبة في الهواء. نباتات عليق الحقول كانت تفوح بروائح طيبة في ذلك المساء، أم ان ذلك كان يعزى إلى خوفي. كان كل عود عشب يخز بطون السيقان. ثم قامت دجاجة صغيرة تائهة على الطريق وتركته حينما اقتربت احذيتي. كان العشب أعلى من ظهرها بثلاث مرات وتشابك فوقها. شكت الدجاجة في تلك الوحشة المزهرة باحثةً عن مخرج دون جدوى ثم هربت طلباً للنجاة. الصراصر صرصرت لكن الدجاجة كانت أعلى ضجيجاً بكثير. انها ستكشفني بخوفها، انتابني شعور بأنَّ كل نبتة هناك تنظر اليّ فارتجف جلدي من جبهتي حتى بطني.

لم يكن أحد في البيت الصيفي، قلت لنفسي في اليوم التالي. جلسنا في حديقة الخمارة. كانت البيرة خضراء اللون لأن القناني كانت خضراء. إدغار وكورت وغيورغ مسحوا بأذرعهم العارية

الغبار من الطاولة. كان من السهل أن يرى المرء على سطح الطاولة آثار أذرعهم. وخلف رؤوسهم تتدلى كاوراق شجرة الكستناء الخضراء. اما الاوراق الصفراء فقد ظلت مخفية عن الأنظار. اصطدمت بها أقدامنا ولزمنا الصمت.

الشمس تلتهب فوق الجباه، وعلى صفحات خدود إدغار وكورت وغيورغ. اما شعرهم فغدا شفافاً ربما لأن البيرة تداعبه كلما قام هذا أو ذاك لوضع قنينة فوق الطاولة. ورقة صفراء تسقط من الشجرة، كلنا يرفع نظره عالياً كما لو أنه يود رؤيتها كيف ستستعيد سقوطها من جديد. ولم يكن ينتظر الورقة التالية التي سرعان ما تسقط. لم يكن لعيوننا صبر. لم نعدْ الأوراق اهتماما. كنا نهتم ببقع صفراء طائرة تشغل اوجهنا عن بعضها.

لوحة الطاولة حارة مثل مكواة. يتوتر الجلد في الوجوه، بلغ العصر ذروته، خلت الخمّارة من روادها. العمال في المصنع مستمرين في صنع الخراف الصفيحية والبطيخ الخشبي. نطلب جولة جديدة من البيرة لكي تتوفر قنانٍ بين أذرعنا.

خفض غيورغ رأسه فانتفخت له ذقن ثانية تحت ذقنه الاولى. بدأ يغني لنفسه:

طير كناري أصفر

مثل صفار البيض

ذو ريش ناعم

وعيون تائهة

كانت الأغنية ذائعة الصيت في البلد. لكن المغنين هربوا عبر الحدود منذ شهرين ومُنع تداول الأغنية بعد ذلك. ترك غيورغ الأغنية تنساب مع البيرة عبر بلعومه.

اتكأ النادل على جذع شجرة، كان يستمع ويتثائب. لم نكن ضيوفاً في ذلك المكان، نظرنا إلى بزة النادل القذرة وقال إدغار: اذا كانت المسألة متعلقة بالأطفال فإن الآباء يفهمون كل شيء. يفهم أبي ان الشباب قد أخذوا الرجل الخشبي معهم. يقول أبي: لديهم أطفال أيضاً، يحبون اللعب بلهفة.

لم نكن نريد ترك البلد، لاعبر نهر الدانوب ولا عبر الجو ولا عبر ركوب قطارات البضاعة. ذهبنا إلى المتنزه الكثيف. قال إدغار: اذا أُجبر الشخص المناسب على الخروج، يستطيع الآخرون جميعهم البقاء في البلد. لم يكن هو نفسه يصدّق ذلك. لم يكن أحد يعتقد بأن على الرجل المناسب أن يذهب. كانت تُسمع كل يوم اشاعات عن أمراض الدكتاتور القديمة والجديدة ولم يكن أحد يصدقها. ومع ذلك فقد كان الناس جميعاً يهمسون بذلك في أقرب أذن. وحتى نحن كنا نواصل نقل الاشاعات إلى غيرنا كما لو كان فيروس الموت المتسلل قد وصل إلى الدكتاتور في آخر المطاف: سرطان الرئة، سرطان البلعوم، كنا نتهامس، ضمور الدماغ، الشلل، سرطان الدم.

عليه ان يرحل مرة اخرى، تهامس الناس: فرنسا، او الصين، بلجيكا، انجلترا أو كوريا، ليبيا او سوريا، المانيا او كوبا. كانت كل سفرة من سفراته تترادف في الهمس مع أُمنية أن يهرب هو نفسه.

كان كل هروب عرضاً مقدماً للموت. لذا اكتسب الهمس قوة الامتصاص تلك. لقد تحطمت كلُّ ثاني محاولة هروب بكلاب الحراس وطلقاتهم.

الماء الجاري وقطارات البضائع المنطلقة والحقول الساكنة كلها كانت دروب الموت. في حقول الذرة عثر فلاحون اثناء

الحصاد على جثث متيبسة او ممزقة نهشتها الغربان والتهمت أحشاءها. حصد الفلاحون الذرة وتركوا الجثث مكانها لأن الأفضل كان عدم رؤيتها. في أواخر الخريف قامت الجرارات بالحرث.

أدى الخوف من الهروب إلى جعل كل سفرة من سفرات الدكتاتور سفرة إجبارية إلى الطبيب: هواء الشرق الاقصى لعلاج سرطان الرئة، جذور برية لعلاج سرطان البلعوم، بطاريات تدفئة لعلاج سرطان الامعاء، الوخز بالأبر لعلاج ضمور الدماغ، حمامات لعلاج الشلل. مرض واحد فقط قيل أنه لا يسافر بسببه: دم الاطفال لعلاج سرطان الدم، إذ أنه يحصل عليه في داخل البلد، حيث يتم امتصاصه بإبر سحب يابانية من جبهات المواليد الجديدة في مستشفيات الولادة.

كانت الاشاعات حول أمراض الدكتاتور شبيهة بالرسائل التي كنا نستلمها، إدغار وكورت وغيورغ وأنا، من امهاتنا. كانت الشائعات تدعو إلى التريث في الهروب. كان الشعور بالشماته يشتد سخونة عند كل فرد لكن الأذى لم يحل أبدا. كانت جثة الدكتاتور تتسلل إلى ذهن كل فرد بهيئة جثته ذاته مثل حياته الخاوية عبر جبينه. كان الناس كلهم يتمنون ان يعيشوا أطول منه.

ذهبت إلى غرفة الطعام وفتحت باب البراد بقوة، سطع النور كما لو اني رميت به من الخارج إلى الداخل.

منذ موت لولا غابت الالسن والكلى عن البراد لكنني كنت اراها وأشمها. تخيلت أمام باب البراد المفتوح رجلاً شفافا. كان الشفاف مريضا ولكي يبقى مدة أطول على قيد الحياة فقد سَرَق أحشاء حيوانات تتمتع بصحة تامة.

شاهدت حيوان قلبه، حبيس مصباح نور. بدا منحنياً ومنهكا. اغلقت باب البراد لأن حيوان القلب لم يكن مسروقا. لابد أنه كان حيوان قلبه هو وكان اقبح من أحشاء كل الحيوانات على وجه هذه الارض.

مرت البنات بالحجرة المربعة، كُنَّ يضحكن ويأكلن عنباً دون ان يشعلن النور بالرغم من حلول الظلام. ثم ضغطت احداهن على زر النور لكي يأوين إلى أسرّتهن. تمددن كلهن. قُمتُ باطفاءِ النور. غطت أنفَاسهن في نوم مباغت. خُيلّ لي بأنني سأراه. وكأن ذلك النَفَس بدا أسود وهادءاً، دافئا ولا صلة له بالليل.

كنت ممددةً تحت غطائي ورأيت الملاءات البيضاء فوق الاسرّة. كيف يجب أن يعيش الانسان، قلت في نفسي: لكي يتناغم مع ما يفكر به في تلك اللحظة. كيف تنجح الأشياء في ذلك وهي مطروحة في الشارع دون أن تُلفت نَظَرَ المارةِ وبالرغم من أن أحداً قد أضاعها.

ثم مات الأب. كان كبده من كثرة تناول الكحول قد تضخم وصار بحجم وزة محشوة، كما قال الطبيب. وضعت الى جوار وجهه كمّاشات ومقصات في الصندوق الزجاجي. كان كبده كبيراً بحجم الاناشيد المخصصة للزعيم. وضع الطبيب سبابته على فمه. كان يفكر بأناشيد للدكتاتور، أما أنا فكنت أعني الفوهرر. وقال الطبيب واصبعه على فمه: حالة ميئوسٌ منها كان يعني الأب، أما أنا فقد كنت افكر بالدكتاتور.

خرج الأب من المستشفى لكي يموت. ضحك بوجه كان قد بلغ من النحافة درجة قلما يصلها أحد في الحياة. كان غبياً إلى حد كبير إذ سُر بحاله. وقال: الطبيب ليس جيداً، الغرفة سيئة.

السرير خشن، والوسائد محشوة بالخرق بدلاً من الريش لذا فحالتي لن تتحسن. بدأت ساعة يده تتراخى في معصمه. كانت لثته تتقلص. دس بطقم اسنانه في جيب جاكتته لأنه لم يعد يناسب فمه.

ها هو أعجفٌ كساق لوبياء. كان كبده متضخماً وكذلك عيونه وأنفه، شبيه منقار أوزة.

قال: لنذهب إلى مستشفى آخر، فحملت حقيقبته الصغيرة. الاطباء هناك جيدون، ردّدها واثقاً.

عند منعطف الشارع عبثت الريح بشعرنا في كل إتجاه فنظرنا إلى بعضنا فانتهز الأب الفرصة وقال: عليّ الذهاب إلى الحلاق.

بلغ من الغباء حداً ظن عنده أن الحلاق ضروري له قبل موته بثلاثة أيام. كان كلانا غبيا إلى حد أنه نظر إلى الساعة المرتخية وأنا اومأتُ له برأسي. بقي جالساً لبضع دقائق بهدوء وانا واقفة دون حراك عند الحلاق. كنا بعيدين عن بعضنا لمدة ثلاثة أيام قبل مماته بحيث استطعنا ان نتابع النظر إلى الحلاق في مريلته البيضاء وهو يتناول الشعر بالمقص.

حملت حقيبة ابي الصغيرة إلى المدينة. في داخلها ساعة يد وطقم اسنان وزوج خُفين بخطوط بيضاء بنّية. كان حفار القبور سيلبس أحذية الأب الميت.

لمَ لا يوضع كل ما يعود للأب معه في التابوت؟ قلتها في نفسي.

كانت للخفين ذوات الخطوط البيضاء البنّية ربطة بنّية عند الكعبين. تستقر خصلتان من الصوف الأبيض البنّي عند موضع التقاء نصفي الربطة. اعتاد الأب على لبس الخفين منذ ولادة

الطفل. وحين يلبسُهما الخُفين تصبح كعوبه انحف مما كانت عليه وهو حاف. وقبل أن يخلد الأب إلى النوم يسمح للطفل أن يربت بيديه على الخصلتين ولايجوز له ان يدوس عليهما حتى وإن كان حافيا.

يجلس الأب على حافة السرير والطفل على الأرض. يستمع الطفل إلى دقات رقاص الساعة الجدارية ويربت على الخصلات على وقع الدقات. الأم تغط في النوم. يردد الطفل وهو يربت: تِكْ تاك، تِكْ تاك. الأب يدوس بفرد الخف الأيمن على الفرد الايسر. وبين الاثنين يد الطفل. توجعه. لكنَّه يكتم نَفسَه ويلزم الصمت.

وحين يرفع الاب الخف من اليد يجده مجعداً فيقول: دعني وشأني، وإلاَّ... ثم يتناول الخفَ المجعّدَ بين يديه، وإلاَّ... لا شيء.

يقال ان الثلج يسقط حين يغادر أُناس صالحون الحياة. ولكن هذا غير صحيح.

بدأ الثلج يتساقط، حينما توجهت بعد موت الأب إلى المدينة حاملة الحقيبة الصغيرة. نتف الثلج تهوي تترنح مثل خرق في الهواء. لم يصمد طويلا فوق الأحجار وزخارف السياج الحديدية ومقابض بوابات الحديقة وأغطية صناديق البريد. لكن الثلج بقي أبيض ثابتاً على شعر الرجال والنساء.

وبدلاً من الاهتمام بمسألة الموت فكرت في نفسي إن الأب قد بدأ امراً مع الحلاق. كان قد بدأ أمراً خاطئا مع أفضل حلاق عند الركن الاول للشارع كما فعل شيئاً خاطئاً مع الموت. لم يتحدث بأي شيء عن الموت مع الحلاق. وبرغم انَّه شعوره

بقرب الموت لكنه لم يقطع الأمل بالحياة.

كنتُ غبيةً إلى ذلك الحد لأنني - وبينما كانت ندف الثلج تتساقط فيعلق بياضها بشعر الرجال والنساء - سمحت ان يحدث لي الشيءُ الملائم. وَجبَ عليّ أن اذهب حاملة الحقيبة الصغيرة بيوم واحد فقط قبل دفن الأب واروي له شيئاً عن الموت.

بقيت أطول وقت ممكن عند حلاقي ورويت له كل شيء أعرفه عن حياة الأب.

ففي الحديث عن الموت بدأت حياة الأب في زمن استخلصتُ معظم معلوماتي عنه من كتب إدغار وكورت وغيورغ والبقية القليلة الباقية من أبي نفسه: جندي عائد من فرق أس أس، قام بأعمال فضيعة وترك المواقع بسرعة، قلت للحلاق. رجل وجب عليه انجاب طفلة واحدة فقط ولا يهتم دائماً إلا باخفائها. وبينما كنت أروي عن أغبى حماقاته وعن أبشع ما اقترفته يداه وعن اناشيده المخمورة من أجل الفوهرر وكبده المتضخّم إلى حد كبير، يُصيبني تشنجُ بسبب مراسم دفنه.

وقبل ان أغادر قال الحلاق: كان ابي في ستالينجراد.

صعدتُ إلى القطار وتوجهتُ إلى حضور مراسم دفن الأب وإلى الآم ظهر الأُم. كان الحقل مبقعاً بلون أبيض وبني.

وقفتُ عند التابوت. جاءت الجدة المغنية تحمل لحافا إلى الغرفة. دارت حول التابوت. ووضعت اللحاف فوق الملاّية الرقيقة. كان أنفها يشبه منقاره. كان ينتهز حقيقة اهتمامها به، قلت لنفسي. شفتاها عبارةٍ عن صافرة ساخنة وحيدة تغني هكذا دون وعي على الدوام. ومنذ سنوات عجزت الجدّة المغنية عن

التعرف على افراد العائلة في البيت. الآن استطاعت التعرف على الأب مرة أخرى، لانها تهذي ولانه كان قد مات. والان يسكن حيوان قلبه فيها.

قالت للأم: اتركي الغطاء فوق التابوت، البلهاء قادمة. ضغطت الأم بيد على موضع ألم الظهر وسحبت باليد الأخرى الغطاء من على الملاية الرقيقة.

اعتاد كل من إدغار وكورت وغيورغ منذ حملات التفتيش على حمل فرشة أسنان ومنديل صغير في جيب الجاكته اينما ذهبوا. كانوا يحسبون احتمال تعرضهم للأعتقال.

ولكي يكشفوا إن كان احدٌ في الحجرة المربعة تمتد يده لحقائبهم عمدوا إلى وضع شعرتين في صباح كل يوم على غطاء الحقيبة. وفي المساء كانت الشعرات تختفي. قال كورت: في كل مساء حينما أخلدُ إلى النوم أظن ان ايادٍ باردة تستقر تحت ظهري. وهذا ازعاج شديد لي عندما اسعى إلى النوم. استسلم للنوم سريعا كسقوط حجر في لجة ماء.

قال إدغار: رأيت حلماً، حلمت أني أردت الذهاب إلى السينما. كنت قد حلقت ذقني للتو لأن قانوناً كان معلقاً في الصندو ق الزجاجي عند مدخل السكن الطلابي يفيد بأن على الطلبة ان يحلقوا لحاهم قبيل الخروج من السكن. ذهبت إلى موقف الترام. كانت على كل مقعد في عربة الترام وريقة ادرجت عليها أيام الأسبوع. قرأتُ: الأثنين، الثلاثاء، الاربعاء، كل الأيام حتى الأحد. قلتُ لبائع التذاكر: إن هذا اليوم غير مدرج في القائمة. قال الكمساري: لذا فإن على الجميع الوقوف. وقف الناس متلاصقين عند الباب الخلفية للعربة. كان كل واحد يحمل طفلاً على ذراعه. كان الأطفال ينشدون في الجوقة.

كانوا ينشدون بانتظام بالرغم من أنهم لم يكونوا يرون أنفسهم بين البالغين.

جرى تفتيش الحجرة المربعة العائدة لإدغار وكورت وغيورغ فضلاً عن بيوت أهلهم ثلاث مرات اخرى. وبعد كل حملة تفتيش ترسل الأمهات رسائل تحتوي على أخبار أمراضهن. لم يأت والد إدغار إلى المدينة ووصلته رسالة الأم بالبريد. كتب والد إدغار على هامش الرسالة: إنك تزعج امك حتى الموت.

حتى غرفتي تعرضت للتفتيش. وحينما جئت إلى الحجرة المربعة كان الجميع قد غادر المكان بما في ذلك زميلاتي لم أجد غير قطع فراشي وبعض الشراشف ومسحوق الرموش مرمية على الأرض وحقيبتي مفتوحة عند أسفل الشباك والجوارب الممتازة على غطاء الحقيبة، فوق الجوارب رسالة من أمي.

صاحت إحداهن: لقد دفعتِ بلولا إلى الموت. تناولتُ الرسالة وأغلقتُ حقيبتي بركل غطائها بقدمي وقلت: إنكن تخلطن بيني وبين مدرب الجمباز. قال صوت آخر بنبرة خافتة: كلا. هذا غير صحيح. لقد شنقت لولا نفسها بحزامكِ. تناولت مسحوق رموشي وقذفت به عبر الغرفة. اصطدم بزجاج حفظ الفواكهه المزين بأغصان التنوب والذي كان فوق الطاولة. كانت نهايات الاغصان المدببة مركونةعلى الجدار. قرأت الرسالة. بعد أخبار الآم الظهر ورد ما يأتي: حضر ثلاثة رجال بسيارة إلى بيتنا. إثنان منهم احدثا فوضى كبيرة في البيت. والثالث كان سائقاً فحسب. تحدث مع الجدة لكي تترك الاثنين الاخرين يفتشان البيت دون ازعاج. كان السائق يتحدث الألمانية، ليست بالألمانية الفصحى فحسب بل باللهجة السفابية أيضا. وهو من سكنة قرية مجاورة لم يشأ أن يسميها. ظنّت الجدة انه أبوك وارادت أن تمشط له شعره،

أخذ منها المشط فبدأت تغني فدهش لحسن غنائها واشترك معها في أداء إحدى الأغاني:

أيها الأطفال أما آن لكم ان تعودوا

عودوا سريعا لدفء هذا البيت

الأم ستطفئ النور بنفخة حالا.

قال انه يعرف اللحن بشكل مغاير قليلاً وقد غنى الأغنية مثلما غنتها الجدة ولكن بصورة مخطوءة.

ومنذ أن غادر الرجال لم يهدأ للجد بال. لقد اختفى الوزير الأبيض، بحث عنه في كل مكان ولكنه لم يجده، ومن دون الوزير الأبيض لا يمكن للعبة الشطرنج أن تكتمل. كان يرعى قطع الشطرنج رعاية تامة. لقد نجا الوزير من الحرب والأسر. والآن أيعقل أن يضيع في البيت.

قال الجد، ينبغي عليّ أن اراسلكِ وأن على الناس الاخرين ان يصفقوا ويكسبوا المال. لا يجوز لكِ بعد الآن أن تلحقي الأذى بجدكِ.

بدأ الثلج يتساقط. وسرعان ما يذوب على وجوهنا ويصير ماءً فوق اسفلت الشارع. تسلل البرد إلى أقدامنا. رفع المساءُ بهاءَ الشارع إلى أعالي الأشجار. ومن بين الأغصان العارية سعت المصابيح إلى الاندماج مع بعضها.

وامام النافورة ظهر الرجل من جديد، هو نفسه صاحب البابيون الاسود على العنق واقفاً لوحده بصورته المنعكسة. رأى امتداد شارع السجن صعوداً. وفوق باقة أزهاره الذابلة بقي الثلج ثابتاً كما بقي على شعره. كان الوقت متأخراً وحافلات النزلاء كانت قد توجهت عائدة إلى السجن قبل ذلك بمدة طويلة.

كانت الريحُ تنثر الثلجَ على وجوهنا ونحن إدغار وكورت وغيورغ وأنا نؤثر مواصلة المسير، في الاتجاه المعاكس. اردنا بلوغ الدفء. لكن الخّمارة كانت تعج بالصراخ. ذهبنا إلى السينما، للعرض الاخير في ذلك اليوم. كان الفلم قد بدأ حينما دخلنا.

ظهر على الشاشة مشهدٌ لصالة مصنع، بعد أن تكيفت عيوننا مع ظلمة الصالة بدأ إدغار يعدّ الظلال الجالسة على المقاعد. كان هناك عدانا تسعة أشخاص في الصالة. جلسنا في الصف الأخير. قال كورت: نستطيع أن نتحدث هنا.

كان المصنع الظاهرعلى الشاشة مظلماً، لم يكن باستطاعتنا رؤية بعضنا البعض. ضحك إدغار وقال: نحن نعرف كيف نبدو في النور. غيورغ قال: البعض لا يعرف ذلك. أخرج من جيب جاكتته فرشة أسنانه ودسّها في فمه. وعلى الشاشة شاهدنا جمع البروليتاريا حاملين أسياخ الحديد يسيرون عبر الصالة. كان يجري تشغيل فرن عال. بعث الحديد السائل نوراً إلى الصالة، نظرنا إلى وجوه بعضنا البعض وضحكنا. قال كورت: اخرج فرشة الاسنان من فمك. فدسّها غيورغ في جيبه. أنت ايها العكروت السفابي.

قال كورت: حلمت أني دخلت على حلاقنا ووجدت عنده نساءً فحسب يجلسن وهن منشغلات بالحياكة. سألتُ: ماذا يعملن هنا. قال الحلاق: انهن ينتظرن أزواجهن. مد يده لمصافحتي وقال: لا أعرفك. ظننت أنه يعني النساء لكنه كان ينظر اليّ. قلتُ له: انك تعرفني بكل تأكيد. النساء كَركَرْنَ. انا الطالب، قلت. لم اكن اعرف، قال الحلاق, ثم اضاف: حدث أن تعرفت بأحد الطلبة أما انت فلا أظن أني اعرفك. بدأ المتفرجون يصفرون ويصيحون في الصالة: يالوبو، مارس معها

الجنس، فلتحمل عليها يا لوبوله. عاملٌ وعاملةٌ قبّلا بعضهما في وقت متأخر من المساء في الهواء الطلق جنب بوابة المصنع. وفي اللحظة التالية حل النهار أمام بوابة المصنع وصار عند العاملة صاحبة القبلة طفل.

حينما هممت بالجلوس على كرسي الحلاقة أمام المرآة، هزّ الحلاقُ رأسَه... لا يجوز هذا. وحين سألته عن السبب؟ طرق باصبعه على المرآة. نظرت إلى نفسي، رأيت أن في وجهي شعيرات عانة.

سحب غيورغ ذراعي ووضع مفتاح البيت الصيفي في يدي، فسألته عما يمكن أن أفعله به أين أضعه؟

ظهر على الشاشة أطفال راكضون من بوابة المدرسة إلى الشارع. كان الأب لوبو ينتظر طفله امام المدرسة، ابن العاملة التي حصلت على قبلة. طبع قبلة على جبهة الطفل وتناول منه حقيبة المدرسة.

قال غيورغ: كنت أحصل على درجات هابطة في المدرسة. قال أبي: لقد آن الاوان لكي نخيط شيئاً للمدير، والافضل أن يكون بنطلونا. في اليوم التالي اشترت امي قماشاً رماديا وشريطاً للحواشي وقماش كتّان للجيوب وأزرار، للفتحه كذلك، إذ لم يتوفر في المتجر آنذاك سوى الزمام المنزلق الأحمر. ذهب ابي إلى المدرسة ودعا المدير إلى الحضور لأخذ المقاس. كان المدير قد انتظر العرض طويلاً، جاءَ معه على التو.

جلس المدير جنب ماكنة الخياطة. بدأت أمي تأخذ مقاس احذيته. تفضل وارخ ساقيك تماماً، يا جناب المدير، قالت الأم. ثم سألته: كم الطول، أطول قليلا. كم العرض، أضيق قليلا.

هل تريد ثنيات، يا سيدي المدير. سألته اعتماداً على البنطلون الذي كان يرتديه، وماذا عن الجيوب؟ عند وصولها إلى حاشية البنطلون أخذت نَفَساً عميقا وسألت: على أية جهة تفضل حمل مفتاح القبو؟ المدير. قال: دائماً على الجهة اليمنى. ومفتاح صيدلية المنزل؟ هل تحب الأزرار أو الزمام المنزلق؟ ماذا تعنين؟ سأل المدير. ان الزمام المنزلق عملي لكن الازرار تضيف مزيداً من الهيبة إلى الشخصية، كما يقول أبي! المدير: أزرار.

بعد السينما ذهبت إلى خياطتي. كان أطفالها يغطون في النوم. بقينا في المطبخ. كانت هذه هي المرة الاولى التي اتيتها فيها في تلك الساعة المتأخرة. لم تجد الامر مستغربا. اكلنا تفاحا. دخّنَت، شدّتْ على خديها فصار وجهها يشبه وجه وزراء الشطرنج خاصة الجد. قالت الوغد في كندا الآن! التقيت اليوم بأخته، كان زوج الخياطة قد هرب عبر نهر الدانوب دون أن يقول لها كلمة واحدة. كنت قد حدثت الخياطة عن الوزير الأبيض والوزير الأسود وعن حلاق سرية الجد، وكذلك عن الجدّة المصليه والجدة المغنية. وعن اغبى حماقات الأب وعن الآم ظهر الأم.

جدتاك كلتاهما يبدوان لي مثل وزيري الشطرنج العائدين إلى جدك، كانت قد قالت. فالمصّلية تشبه الوزير الأسود والمغنية تشبه الوزير الأبيض.

لم أعارض كلامها ولكنه بدا بالنسبة لي على العكس تماماً.

الجدة المغنية هي الوزير الاسود. وهي تعرف أن لكل انسان حيوان قلب. وهي تسلب من امرأة اخرى زوجها. وهذا الرجل

يحب المرأة الاخرى، ولايحب الجدة المغنية. لكنها تحظى به لأنها تريده. ليس شخصه بل مزرعته. وتحتفظ به. هو لا يحبها، لكنها تستطيع السيطرة عليه حينما تقول له: حيوان قلبك فأرة.

إذاً فقد ضاع كل شيء، لان الدولة ستصادر الحقل بعد الحرب.

وقبل ذلك الحدث المفزع بدأت الجدة بالغناء.

لم تنتبه الخياطة إلى مدى شحة ما كانت تعرفه عني شخصيا. لقد بدا لها كافياً ان تعرف اني كنتُ طالبة ولا استخدم حزاما.

وضعتُ مفتاح البيت الصيفي على حافة النافذة عند الخياطة ونسيته هناك. فكرت ان لا انسان يرمي مفتاحا هكذا.

إدغار وكورت وغيورغ كانوا يعتبرون الخياطة غير جديرة بالثقة. قلتُ: انكم شكاكون لان امهاتكم خياطات. اضطررت إلى ان أعِد بأن لا اشرك الخياطة بأي شأن يخصنا. وما كان إدغار وكورت وغيورغ ليسمحوا أن يُترك المفتاح هناك على حافة الشباك. ولكان - كما جرت على ذلك عادتهم فإن الشك قد اعتراهم وهم يصدحون بقصيدة:

كلٌّ واحدٍ له صديق في كلِّ قطعةٍ من الغيم

هكذا يمضي الحالُ مع الأصدقاء حيث العالم ممتلئ بالأهوال

و أمي تقولُ بأن هذا الأمر جد عادي

الأصدقاءُ فوق الشبهات

فلتفكر بأمور أكثرَ جدية.

في وقت متأخر من الليل ذهبت مشياً إلى سكن الطلبة. على الطريق قابلت ثلاثة حراس ولم يثرهم مسيري البتة. كانوا

منشغلين بأنفسهم، يأكلون البرقوق الأخضر كما هو شأنهم بالنهار.

الهدوء يُخيّم على المدينة بشكل تام لدرجة تمكن المرء من سماع مضغهم. اقتربت منهم دون ضجيج لكي لا ازعجهم وهم يقضمون. وددت لو ان بامكاني المضي على اصابع قدميَّ لكن ذلك ربما كان سيثير انتباههم. سرت بخفة متناهية مثل ظل يتحرك وما كان بمقدور احد ان يمسني أبدا. لم يكن خطوي بطيئاً جداً ولا أسرع مما ينبغي. بدت أثمار البرقوق الخضراء في أيدي الحراس سوداء كالسماء

وبعد مرور اسبوعين على تلك الأحداث ذهبتُ مبكرةً في العصر إلى الخياطة. قالت لي فورا: لقد نسيتِ مفتاحك هِذا ولم أره إلا في اليوم التالي. كنت أفكر بك طوال اليوم فربما حل الليل ولن تستطيعي الذهاب إلى دار الطالبات.

شريط تحديد المقاس معلق في رقبة الخياطة. هذا ليس مفتاح دار الطالبات بل مفتاح بيتي، أجبتها فوراً. ثم فكرت: انها تحمل شريط المقاس مثل حزام حول الرقبة.

بدأ الشاي بالغليان في الأبريق. قالت: أرى اطفالي يكبرون وأود ان يحتاجوا فيما بعد إلى مفتاح بيت أكثر منكِ. هل باستطاعتكِ فهم ذلك، سألتني فأومأت.

هاجس الخوف الذي ما انفك يطاردنا جعلنا متلازمين كل يوم، إدغار وكورت وغيورغ وأنا. كنا نجلس على مائدة واحدة، لكن الخوف بقي منفرداً في كل رأس على حاله حينما أتينا به عند لقائنا، كنا نضحك كثيراً في محاولة لإخفاء الخوف عن بعضنا البعض. لكن الخوف يخرج عن نطاق السيطرة. فإن استطاع

الانسان السيطرة على وجهه يتسلل الخوف إلى صوته. وإن نجح الأنسان في أن يجعل الوجه والصوت في قبضة يده مثل جزأين مندثرين من جسمه فان الخوف يخرج من بين الاصابع وينتصب خارج الجلد، يبقى في الجوار طليقاً ويراه الأنسان ظاهراً فوق الاشياء الموجودة بالقرب منه.

كنا نرى في أي مكان يستقر خوف كل منا لأننا نعرف بعضنا البعض منذ زمن بعيد. ولم نكن ننسجم مع بعضنا في أغلب الأوقات نبدو كما لو كنّا مجبرين على ازعاج بعضنا البعض.

دأبنا على تبادل عبارات الأستخفاف بيننا، ونقول: انت وعادتك السفابية في النسيان. انت واستعجالك أو تمهلك السفابيين. انت وعدّك السفابي للنقود. بفظاظتك السفابية او بالشهقة او العطسة، انت وجواربك او قمصانك السفابية. هكذا كنا نقول.

انتَ ايها القواد السفابي، ايها العجل المشوه السفابي، انت يا محفظة المشط التافه.

كنا نحتاج إلى فيض من كلمات طويلة يمكن ان تباعد بيننا. كنا نبتكرها مثل لعنات مفرّقة للشمل ضد بعضنا البعض. كان الضحك شاقاً، كنا نوخز الألم. سار الامر بسرعة لأننا نعرف بعضنا البعض من الداخل. كنا نعرف تماماً ما كان يجرح الآخر. وايذاؤه كان يثيرنا. كنا نريده أن تخّر قواه تحت ذلك الحب الفظ ويدرك مدى ضعف مقاومته. كانت كل اهانة تعزز الاهانة السابقة لها حتى يلزم المستهدف الصمت. وحتى إلى ما بعد ذلك بفترة. ولفترة ما بعد ذلك كانت الكلمات تتهاوى على وجهه الصامت كالجراد في حقل مأكول.

وتحت وطأة هذا الخوف قد سبر أحدنا أعماق الآخر إلى حد بعيد لا يتسنى لشخص آخر بلوغه. كنا بحاجة إلى قلب تلك الحالة الطويلة من الثقة وقد حدث ذلك الانقلاب فجأة. آن الأوان للكراهية أن تتقدم وتدمر.. وتحت خيمة هذا القرب الكامل بيننا يحل وقتُ حشِ الحب لأنه كالعشب عميق الجذور.

كان الخصام المرغوب فيه يعزى دائماً للنيّة، وبقي تأثيره يحدث سهواً. وفي نهاية كل نوبة غضب، هكذا ومن دون ابتكار كلمات يأتي التعبير عن الحب. كان ذلك موجوداً على الدوام. وللحب مخالب سرعان ما تظهر في أوقات الخصام.

قال إدغار مرة، حينما أعطاني مفتاح البيت الصيفي: أنتِ يا صاحبة الابتسامة السفابية. احسست بالمخالب ولا أدري لماذا لم يسقط فمي من وجهي آنذاك. وفي عملية استعادة ذكرى تلك الايام كلها أحسست بأن الدنيا تخلت عني فلم تَحضرني كلماتٌ لكي أردّ رافضةً. لربما صار فمي مثل فرن بازلاء ناضجة. تصورت شفاهاً جافة ورقيقة لم أكن أرغب أن املكها. فابتسامة سفابية كانت مثل الأب الذي لم يتسن لي اختياره، كالأم التي لم أكن أرغب في أن تكون لي أُمّاً.

وفي ذلك الوقت أيضاً كنا جالسين في السينما، في الصف الأخير. وفي ذلك الوقت أيضاً كانت تظهر صورة قاعة في مصنع.

كانت عاملة تشد خيوط صوف على ماكنة تريكو. جاءت نحوها عاملة أخرى بتفاحة حمراء ونظرت إليها. مسحت العاملة بيدها خيوط الصوف المثبتة على الماكنة وقالت: أظن اني أحببت. وأخذت التفاحة من يد الأخرى وقضمت قطعة منها.

في أثناء عرض هذا الفلم وضع كورت يده على ذراعي. روى لي حلما. في ذلك الحلم كانت مجموعة من الرجال عند الحلاق. سبورة معلقة على الجدار كانت عبارة عن أحجية كلمات متقاطعة. الرجال كلهم يؤشرون بشماعات الملابس إلى زهرات اللعب الفارغة وينطقون بأبجدية ما. كان الحلاقُ يقف على السلم ويسجل الحروف. وقف كورت أمام المرآة. قال الرجال: قبْلَ إجراء السحب لا توجد حِلاقة. كنا قد وصلنا قبلهم إلى هناك. وحينما نهض كورت وذهب صاح الحلاق خلفه: اجلبوا معكم موسى الحلاقة غداً من البيت.

لماذا احلم بهذه الموسى، همس كورت في أذني بالرغم من علمه بالسبب. لم يعد أحد من الأصدقاء إدغار وغيورع وكورت يملك موسى حلاقة. كانت كلها قد اختفت من حقائبهم المغلقة.

كنت مع إدغار وكورت وغيورغ لوقت طويل على شاطي النهر.

تَجولٌ مرة أخرى، قالوا، كما لو كان سَيركَ مثل نزهة على غير هدى.

بجانب النهر. كنا ما نزال قادرين على السير ببطءٍ تارة وبسرعة تارة أخرى، بخطوات متئدة أو بسرعة مفرطة. أما التجول لغرض التنزه فقد كنا قد نسيناه.

الأم تتوق لقطاف ثمار الخوخ من الحديقة ولكن أحد أدراج سلم الحديقة النقال مرتخ. يذهب الجد لشراء مسامير. الام تنتظر تحت الشجرة. ترتدي صدرية ذات جيوب كبيرة عندما يحل الظلام.

حينما يُخرِجُ الجدُّ قِطَع الشطرنجِ من جيوب جاكتته ويضعها على الطاولة، تقول الجدة المغنية: الخوخ ينتظر وانت تذهب

للعب الشطرنج عند الحلاّق. الجد: لم يكن الحلاّق في البيت وهذا ما ساقني إلى الحقل. سأذهب غداً مبكراً لشراء المسامير. كنت اليوم أتسكع فحسْب.

وجّه كورت حذائيه نحو الداخل فبدى خطوه مختلفاً، رمى عصاً في الماء وأنشد قائلاً:

كلُّ واحدٍ له صديق في كلِّ قطعةٍ من الغيم

هكذا يمضي الحالُ مع الأصدقاء حيث العالم ممتلئ بالأهوال

و أمي تقولُ بأن هذا الأمر جد عادي

الأصدقاءُ فوق الشبهات

فلتفكر بأمور أكثرَ جدية

كان إدغار وكورت وغيورغ يلقون هذه القصيدة. في الخمارة وفي المتنزه الكثيف والترام أو في السينما وكذا في الطريق إلى الحلاق..

إدغار وكورت وغيورغ اعتادوا على الذهاب غالباً سوية إلى الحلاق. وحينما كانوا يمرون بالباب يقول الحلاق: دائماً حسب الترتيب، مرتان أحمر ومرة أسود. في كل مرة كان كورت وإدغار يحظون بالحلاقة قبل إدغار.

كانت القصيدة مدرجة في احد الكتب التي جيء بها من البيت الصيفي. كنت أنا أيضاً استطيع أن القيها عن ظهر قلب.. لكن ذلك كان نظرياً فحسب لكي استمر بذلك حينما أجد نفسي مجبرةً على التواجد مع البنات في الحجرة المربعة. وكنت أخجل أن القي القصيدة أمام إدغار وكورت وغيورغ.

حاولت ذلك مرة في المتنزه الكثيف وتوقفت بعد البيت الثاني لأنني لم اتذكر ما كان بعد ذلك. تمتم إدغار بالقصيدة حتى

نهايتها والتقطتُ من الأرض الرطبة دودة أرضٍ وسحبتُ ياقة إدغار عند رقبته واسقطت الدودة الحمراء الباردة إلى داخل قميصه..

كانت في المدينة دائماً قطعةُ غيمةٍ صغيرةٍ أو سماءٌ خالية.. وكانت هناك أيضاً رسائل أمي وأُمك وامه والتي لم يكن فيها كلام مفيد. كانت القصيدة تخفي في طياتها برودتها الضاحكة. وكان ذلك يلائم صوت إدغار وكورت وغيورغ. كان القاؤها سهلاً. لكن الاحتفاظ يومياً بتلك البرودة الضاحكة كان صعباً. ولربما كان من الضروري أن تلقى القصيدة مرة بعد مرة.

لا تعتمدي على الود الزائف، حذرني كل من إدغار وكورت وغيورغ. البنات في الحجرة يحاولن كل شيء مثل الشباب في الحجرة تماماً. فهن يعنين بالسؤال متى ستأتي مرة أخرى: كم ستبقى غائباً عنا.

قام النقيب بيله، هكذا كان اسمه مثل اسم كلبه، بالتحقيق مع إدغار وكورت وغيورغ لأول مرة بسبب هذه القصيدة.

كانت عند النقيب بيله نسخة من القصيدة على ورقة. جعَّد الورقة، نبح الكلب بيله. أُجبر كورت على فتح فمه ولم يكن من النقيب إلا أن حشر الورقة المجعدة فيه. أُجبر كورت على أكل القصيدة. أحس اثناء الأكل بغُصة. وهجم عليه الكلب بيله مرتين. مزق بنطلونه وأحدثَ خدوشاً في ساقيه وفي الهجمة الثالثة كان الكلب بيله سيعضه بكل تأكيد. لكن النقيب بيله قال بهدوء وقد بدا عليه التعب: بيله، هذا يكفي. شكا النقيب ألآم كلْيتيه وقال: إنك محظوظ معي.

أُجبر إدغار على الوقوف لمدة ساعة في ركن الغرفة. جلس الكلب بيله امامه وهو ينظر اليه. لسانه يتدلى من فمه. قال

إدغار: فكرت أن ادوس على فمه لكي يبقى منبطحاً، أحسَّ الكلب بما كنت أفكر فيه. وكلما تحرك إصبع في يد إدغار أو أخذ نَفَساً أعمق بفمه لتبقى قدماه ساكنتين زمجر الكلب بيله. كان يمكن للكلب أن يقفز لأقل حركة وعندها لا يمكن لي أن أبقى حيا إذ لا يتسنى لي ضبط نفسي، ولحدثت مذبحة.

وقبل أن يَسمح لإدغار بالانصراف شكى بيله من آلام كليتيه أمَا الكلب فلعق أحذية إدغار. النقيب: انك محظوظ معي.

أُجبر غيورغ على الانبطاح على بطنه وشبّك ذراعيه على ظهره. وبدأ الكلب بيله بشمّ كامل الجسم، بين أفخاذه ورقبته ثم لعق يديه. لم يكن غيورغ يعرف كم استغرق ذلك. كان فوق طاولة النقيب بيله أصيص يحوي نبتة بخور مريم. حينما دخل غيورغ الغرفة لم تكن على نبتة بخور مريم سوى زهرة واحدة متفتحة. وحينما سمح له بالانصراف كانت هناك زهرتان متفتحتان. النقيب يشكو آلام كليتيه، ثم قال: انك محظوظ معي.

قال النقيب بيله لإدغار وكورت وغيورغ أن القصيدة تحرّض على الهروب من البلاد. قالوا له: انها اغنية شعبية قديمة. قال النقيب بيله: كان من الافضل لو أن أحدكم نظم هذه القصيدة بنفسه وذلك سيء بما يكفي، ولكن الأمر بشكله الحالي أشد سوءاً. فربما كانت هذه الأغاني اغان شعبية فيما مضى، لكن الماضي كان زمناً مختلفا. فالنظام البرجوازي الباهر قد تمّ تجاوزه. اليوم ينشد شعبنا أغاني مختلفة.

سرنا ـ إدغار وكورت وأنا ـ صُحبة أشجارَ شاطى النهر ونحن نتابع الحديث. كان إدغار قد إعاد مفتاح البيت الصيفى للرجل الذي لا يلفت النظر أبداً. كنا قد وزعنا الكتب والصور والكراريس فيما بيننا.

من كل فم خرجت الانفاس إلى الهواء البارد. وأمام وجوهنا انطلق قطيع من البهائم. قلت لغيورغ: انظر حيوان قلبك يرحل.

رفع غيورغ حنكي إلى أعلى بابهامه: انتِ وحيوان قلبكِ السفابي، ضحك. تطايرت قطرات لعابه على وجهي. أطرقت نظري ورأيت أصابع غيورغ منتصبة تحت حنكي. كانت مفاصل أصابعه بيضاء واصابعه زرقاء من شدّة البرد. مسحت قطرات اللعاب من خدي. وكانت لولا تطلق على مزيج البصقة وكحل الرموش اسم دهن القرود. وقلت لكي اساعد نفسي: أنت مخلوقة من خشب.

طارت حيوانات قلوبنا مثل الفئران. نزعت فراءها وتبددت في اللاشيء. وحينما كنا نتحدث واحداً بعد الآخر بايجاز ولكن لمدة طويلة كانت حيوانات قلوبنا تبقى في الهواء لمدة أطول.

لا تنسِ عند الكتابة أن تذكري التاريخ وضعي دائماً شعرة في داخل الرسالة، قال إدغار. فإن لم تكن في الرسالة شعرة نعرف انها قد فُتحت.

بضع شعرات منفردة، قلت لنفسى، في القطارات عبر البلاد. شعرة سوداء من إدغار وشعرة شقراء مني. وشعرة حمراء من كل من كورت وغيورغ. كان الطلبة يسمون الاثنين شباب الذهب. جملة تحتوى على كلمة مقص الاظافر اشارة إلى التحقيق، قال كورت، واشارة إلى التفتيش بجملة فيها كلمة أحذية، والاشارة إلى المراقبة بجملة فيها كلمة مزكوم. توضع بعد صيغة المخاطبة في بدء الرسالة علامة تعجّب دائماً، وفي حالات الوفاة فارزة فقط.

كانت أشجار الشاطى تتدلى حتى تلامس الماء. أشجار

صفصاف وأشجار مستنقعات. وفي طفولتي كانت أسماء النباتات تعرف السبب لكل ما كنت أقوم به من أفعال. أما هذه الأشجار فلم تكن تعرف لماذا كنا إدغار وكورت وغيورغ وانا نسير وشاطيءَ النهر. كل ما كان يحيط بنا يفوح برائحة الوداع. لا أحد منا نطق بالكلمة.

طفل يخاف من الموت ويأكل مزيداً من البرقوق الاخضر دون أن يعرف لماذا يقف في الحديقة ويبحث بين النباتات عن السبب. وكذلك النباتات وسيقانها وأوراقها لا تفهم لماذا يقايض حياته بالأيدي والفم وهو يأكل. اسماء النباتات لوحدها تعرف لماذا: برسيم الشواطيء وعشب الصوف وشوك الحليب وأزهار الحوذان ونبتة البوطنطلة وسوزانه السوداء وزهرة آذان الدب ونباتات الأشواك والداتورة والأقونيطن.

كنت آخر من تركت الحجرة المربعة في سكن الكلية. كانت أسرّةُ البنات جرداء حينما وصلت من نزهة النهر. فقد نُقلت الحقائب كلها ولم تبق في الدولاب سوى ملابسي. مكبر الصوت صامت. نزعت مكونات الفراش. ومن دون الوسائد كان كل ما تبقى كيس يُحمل على الرأس. فطويته. ثمّ دسست علبة كحل الرموش في جيب المعطف. كان الكيس من دون اللحاف كما لو أنه كفن، ولذا طويته.

حينما كنت أبعد اللحاف لكي انزع فرش السرير عثرت في وسطه على أُذن خنزير. كان ذلك وداع البنات. نفضت فرش السرير، بقيت الأذن معلقةً به اذ كانت مثبتة به مثل زر. شاهدت غرزات الابرة في القطعة البلاستيكية المثبة والخيط الأسود. لم اكن في موقف يدعو إلى التقزز. كنت أخاف من الدولاب أكثر من اذن خنزير. أخرجت الملابس كلها مرة واحدة ورميتها في

الحقيبة. استقرت صبغة تظليل الجفنين وفرشة العينين والبودرة واحمر الشفاه كلها في الحقيبة.

لم أعرف ماهية السنوات الأربع. هل كانت متعلقة بى أم بالملابس. كانت السنة الماضية معلقة في الدولاب. اعتدت في السنة الأخيرة أن ازوّق وجهي كل صباح. وكلما زادت رغبتي في التزويق تناقص ميلي للاستمرار بالحياة.

طويت فرشة السرير وبقيت الاذن في داخلها.

وفي نهاية الممر كانت كومة من مكونات الفراش. كانت امرأة تلبس صدرية زرقاء فاتحة تقف أمام تلك الكومة. كانت تعدّ اغطية الوسائد. وحينما ناولتها محتويات فراشي توقفت عن العد. كانت تحك نفسها بقلم رصاص، ذكرت لها اسمي. اخرجت قائمة من جيب صدريتها وفتشت ووضعت علامة شطب. قالت: انت الطالبة ما قبل الأخيرة. قلت: الاخيرة... ولكن ما قبل الاخيرة ماتت!

في مثل هذا اليوم كان باستطاعة لولا أن تستقل القطار وهي ترتدي جوارب بنطلون رقيقة كالأنفاس. وفي اليوم التالي كان سيأتي أحد يسوق الخراف عبر الثلج نحو البيت ويظن أن اخته ستنزل من القطار حافية القدمين في هذا البرد.

لا بد أني قد وقفت مرة أخرى أمام الدولاب قبل أن أحمل الحقيبة من الحجرة المربعة إلى الخارج. قبل ذلك بقليل كنت قد فتحت النافذة مرة أخرى. كانت الغيوم في السماء مثل بقع الثلج فوق الحقول المحروثة. كانت لشمس الشتاء أسنان. رأيت وجهي في لوحة زجاج الشباك وانتظرت أن تقوم الشمس بحجبِ نورها عن المدينة، إذ كان هناك في الأعلى ما يكفي من الثلج والتراب.

وحينما ذهبت إلى الشارع حاملةً الحقيبة خُيِّل لي أن عليّ العودة حتما، لكي اغلق باب الدولاب. كانت النافذة قد بقيت مفتوحة. لم اكن متأكدة من أنَّ الدولاب مسدود.

اتجهت إلى محطة المدينة وصعدت إلى القطار الذي كان يحمل لي رسائل أُمي. أربع ساعات فصلت بيني وبين البيت. كان رقاص الساعة متوقفاً وكأنه المنيّة. أُمي ترتدي ملابس يوم الأحد أو هكذا خُيّل لي لأننى لم أرها لوقت طويل. مدت سبابتها لتمسح بها على جوارب البنطلون العائدة لي والتي تشبَّه برقة الأنفاس.. لكنها لم تقم بذلك. قالت: لي يدان خشنان، والآن أنت مترجمة. تضع في معصمها ساعة اليد العائدة لأبي: كانت متوقفة.

ومنذ وفاة الأب دأبت الأم على حمل الساعات كافة في البيت وبدون حرج عاطفي. كانت لوالب الساعات مفقودة. قالت لي أمي حين أشرع بإدارة زمبلك الساعة يعتريني إحساس بأني سأتوقف حالاً ولكني لا أكف عن الحياة.

وضع الجد قطع شطرنجه على اللوحة. وقال: عليّ أن أتخيل وجود الوزيرين. قالت له أمي أخبرتكَ سابقاً أن عليكَ نحتُ قطعٍ جديدة. اعرف أنَّ لدينا ما يكفى من الخشب، ولكني لا أريدَ فعل ذلك، قال الجد.

دارت الجدة المغنية حول حقيبتي. نظرت إلى وجهي وسألت: من جاءَ. فردت الأُم: إنك ترينها حقا. ثم سألتني الجدة المغنية: اين زوجك؟ قلت: ليس لدي زوج. وهل يرتدي قبعة؟, سألت الجدة.

انتقل إدغار بعيداً إلى مدينة صناعية قذرة. كان سكان المدينة

كلهم يصنعون خرافاً صفيحية ويسمونها علم التعدين.

زرته في أواخر الصيف ورأيت المداخن السميكة وكتلَ الدخان والشعارات. الخمّارة وعَرَقِها العكر المستخرج من التوت أو تَرنح السُكارى في طريق عودتهم إلى بيوتهم في أحياء المجمعات السكنية العارية. كان المسنون يسيرون عبر العشب بخطى ثقيلة. والاطفال الصغار في ثيابهم المهلهلة كانوا يأكلون الخبازي على قارعة الطريق. لم تكن أذرعهم قادرة بَعْدُ على الوصول إلى أغصان التوت في الأعلى. المسنون كانوا يسمون بذور الخبازي خبز الله. كانوا يقولون أن العقل ينمو منه. الكلاب الهزيلة والقطط تجوب المكان بحرية تترصد وتتحين الفرص للوثوب على الحشرات والفئران.

وحين تلتهب الشمس في قلب الصيف، يقول إدغار، تستلقي الكلاب والقطط تحت أشجار التوت وتنام. وحين تسخن الشمس فراءَها، وتبلغ من الضعف حداً لا تستطيع عنده الحصول على أكلها. الخنازير تلتهم في العشب اليابس التوت المتخمّر وتفقد توازنها. تسكر حتى الثمالة كالبشر.

ما أن يحل الشتاء، حتى تُذبح الخنازير بين المجمعات السكنية. وإذا قل سقوط الثلج، بقي العُشب طوال الشتاء حياً، قال إدغار.

ذهبت وإدغار إلى المدرسة المتداعية. كانت الشمس تبعث اشعتها الخافتة، وحيث استطاعت الظهور حطّت أسراب الذباب. كان الذباب صغير الحجم لكنه لم يكن رماديا غامقاً ولا بدون حَوْل، مثل ذلك الذباب الذي يبقى حيّا حتى وقت متأخر. كان يلمع مخضراً ويطن حينما يحط على شعري، وينتقل معي بضع خطوات ثم يطنُّ من جديد وينطلق في الهواء.

وفي الصيف تحط جموع هذا الذباب على الحيوانات النائمة، قال إدغار، وتستمتع بحركة الصعود والهبوط المنتظمة على إيقاع الانفاس تحت فراء البهائم.

كان إدغار يعمل معلماً في تلك المدينة. اربعمائة تلميذ، اصغرهم يبلغ السادسة واكبرهم عشر سنوات. يأكلون التوت لكي تكون عندهم أصوات جيدة لانشاد الاغاني الحزبية ويتوفر لهم خبز الله لعقولهم حين يتعلمون المبادىء الأولية. يلعبون كرة القدم من أجل عضلات السيقان ويتدربون على الخط الجميل كمهارة يدوية. من الداخل يأتي الاسهال ومن الداخل الحكة والقُمّل.

كانت عربات الخيول تنطلق في الشوارع اسرع من الحافلات. وعجلات السيارات تصلصل وحوافر الخيول تُصدِرُ ضجيجاً عميقا. لم تكن الخيول هنا تزوّد بحداوٍ عالية بل بأهداب متدلية من الصوف الأخضر والأحمر على عيونها. كما كانت الاهداب ذاتها تعلق على السياط أيضا. كانت الخيول تتلقى ضربات قوية، قال إدغار، بحيث أنها تحسب لاهداب السياط حسابا. ثم تعلق الاهداب عند أعين الخيول. يصيب الخوفُ الخيول فتجري.

يقول إدغار: في الحافلات يجلس الناس برؤوس مطأطئة. حتى أنَّ الناظر يظنهم نياما. كنت في الايام الاول أسأل نفسي كيف يا ترى يستطيع هؤلاء أن ينزلوا ويصعدوا في المحطات المقصودة. فحين ينتقل المرء معهم في الحافلة يطأطىء رأسه مثلهم. أرضية الحافلات محطمة وهكذا يستطيع المرء أن يرى الطريق من خلال ثقوبها.

رأيت المدينة منعكسة في وجه إدغار، بين عينيه، على حافة خديه وفي زاوية فمه. كان شعره طويلاً وبدا لي وجهه وكأنه ساحة جرداء لا تستطيب النور. وعلى صدغيه تبرز أوردةٌ بادية للعيان، ترمش عيونه دونما سبب وتطرق جفونها وكأنه سمكة على وشك الاختفاء. عينان تزوغان ولشدما تسرحان بعيداً في اتجاه النظر إذاما حدَّق فيهما أحد.

يسكن إدغار سوية مع مدرب الجمباز، شقة تحتوي على غرفتين ومطبخ وحمام. أمام النوافذ أشجار توت ونباتات متسلقة عالية. وعبر أنبوب تصريف مياه حوض الحمام اعتاد أحد الجرذان التسلل كل يوم. حين تعايش معه مدرب الجمباز منذ سنوات، قال إدغار وهو يضع له قطعا من الشحم في الحوض. اسم الجرذ ايميل. وهو يأكل التوت والأغصان الطرية.

شاهدت منطقة لولا في وجه إدغار. أردت أن أتخلّص من مخاوفي على إدغار. سرعان ما تكونت تلك المخاوف في ذهني لأن المرء هناك لا يمكن ان يمكث ثلاث سنوات محافظاً على حياته، ولكن إدغار فعلها. كانت الدولة هي التي ارسلته إلى هذه المدينة. لذا لم أُبدِ أيَّ رأيٍ حول هذا المكان لكن إدغار قال في ساعة متأخرة من ذلك المساء، بينما كنا ننظر من نافذة غرفته إلى الهلال. يمكنكِ هنا أن تري كراسة لولا في كل مكان. أنها كبيرة بحجم السماء.

كان دولاب غرفته فارغاً. كانت ملابسه في الحقيبة وكأنه جاهز لمغادرة المكان في أي وقت دون الحاجة إلى الحزم. قال: لا استطيع الاستقرار هنا. شاهدت شعرتين متصالبتين فوق غطاء الحقيبة. وأضاف: مدرب الجمباز يتلصص عليّ في غرفتي.

وفي طريقنا إلى المدرسة المهدمة أردت قطف بعض سيقان

نبات الارقطيون لأن غرفة إدغار تحتوي على زهرية فارغة. ولأن البراعم المتأخرة كانت ما تزال تتفتح. قلّمتُها وشذّبتها. ولم استطع قلعها. فتركتها معلقة في مكانها ومَلْوية عند طرف الطريق. كانت تلك السيقان مغطاة بالشعيرات شبيهة الاسلاك أما النبتات الشوكية الذابلة التي لم أرغب في قطفها برغم أنهاعَلِقَت بمعطفي.

قال إدغار: أما الصبيان فيقومون بعمل كتافيات من نبتات الارقطيون، إنَّهم يريدون أن يصبحوا فيما بعد رجال شرطة وضباطا. سَتَجْرِفُهم هذه المداخن إلى المصنع، عدا عدد قليل منهم - الاقوى بينهم - يصرون على مواصلة الحياة ويتمسكون بها بأسنانهم.

ومثل نبتات الارقطيون العالقة بمعطفك سيقفزون في القطارات، قال إدغار ويقفون حراسا مستعدين لكل مهمة بصرف النظر عن وعورة الطريق.

كُلّف غيورغ ولثلاث سنوات متتالية للقيام بمهام معلم في إحدى المدن الصناعية، حيث يعمل جميع السكان بصناعة البطيخ الخشبي. كانت هذه البطيخات الخشبية تسمى عندهم بفن تصنيع الأخشاب.

تقع مدينتهم في الغابات. مدينة نائية، ولم تكن قطارات أو حافلات تتجه إلى تلك المدينة، سوى بعض شاحنات الحمولة التي يقودها سائقون صامتون ممن فقدوا بعض أصابع أيديهم، كان إدغار قد قال. كانت الشاحنات تأتي وهي فارغة إلى المدينة وتغادر مُحمّلة بجذوع الأشجار المقطوعة.

كان العمال يسرقون قبساً من الأشجار المقطوعة ويصنعون منها أرضيات خشبية، وكان التقليد السائد في المصنع هو عدم

أخذ أي عامل مأخذ المُدان أن لم يشترك في السرقة فعلاً. لذا فلم يكن باستطاعتهم التوقف عن السرقة لأن بيوتهم بكاملها كانت مفروشة بالأرضيات الخشبية. كانوا يغلّفون جدران بيوتهم أيضاً من الأرضية حتى السقف.

في وسط المدينة يسمع أزيز آلات ومعاول قص الاخشاب. الناس يسمعون ضجيج الفؤوس في نهايات الشوارع وهي تقطع الأشجار في الغابة. ومن وقت لآخر كان يُسمع هديرٌ في مكان ما خارج المدينة بسبب انهيار شجرة هائلة على الأرض. كل الرجال في شوارع المدينة تنقصهم بعض الاصابع في أيديهم، يضيف إدغار: لا يخرج من ذلك الاطفال.

حين تسلمت أول رسالة من غيورغ، انتبهت الى أن تأريخها أبكر باسبوعين، أي مطابقاً للتأريخ المدون في رسالة ادغار التي كانت قد وصلت قبل ذلك بثلاثة أيام.

فتحت رسالة غيورغ ببطء كما فعلت برسالة إدغار قبل ذلك بثلاثة أيام. وفي طيها عثرت على شعرة حمراء. وقبل ذلك بثلاثة ايام كانت في رسالة إدغار شعرةٌ سوداء. وبعد كلمة المخاطبة في صدر الرسالة شاهدت علامة تعجب. بلعت ريقي أثناء القراءة، ساعدت نفسي بشفاهي لكي لا تَرِد جملٌ تحتوي على كلمة مزكوم أو مقص الاظافر أو أحذية. لم يفدني البلع. جاءت الجمل. جاءت أيضاً اثناء قراءة رسالة إدغار.

الناس هنا يتجولون بكثرة، وعلى حواجبهم وشَعرِهم تتلفلف نشارةُ الخشب، كتبَ غيورغ.

طويلاً لاك فمي هذه الكلمة وبأكثر ما داست قدماي العشب. تذكّرت النزهة الاخيرة مع إدغار وكورت وغيورغ على شاطيء

النهر وقطرات لعاب غيورغ فوق خدّي واصابعه تحت حنكي. سمعت نفسي أقول لغيورغ: أنت مصنوع من خشب.

لم تكن الجملة من عندي. لم تكن للجملة اي علاقة بالخشب. آنذاك.... كنت قد سمعت الجملة مرات عديدة من أشخاص آخرين، تعرضوا لمعاملة فظة من الغير. ولم تكن هذه الجمل من ابتكارهم لأنهم سمعوها ممن سبقهم وابقوا على ما تحتفظ به من دلالات. ولو كانت للجملة اية صلة مع الخشب، لصار من الضروري جداً معرفة عائديتها. لكن الجملة لم تكن مرتبطة بغير الفظاظة. وحين انتهى فصل الفظاظة انتهت معه ضرورة الجملة.

مرت أشهر ولم تنته الجملة. وخُيل لي وكأني قلت لغيورغ: انك ستكون من خشب.

لا يجلب شعري الانتباه لأنه مائل إلى الاحمرار حتى بدون نشارة الخشب، ورد في الرسالة. أهيم على وجهي دون هدف في المدينة وامامي يسير شخص بدون هدف. فاذا كانت الطريق المشتركة أطول ستتطابق خطواتنا. فالمرء هنا عادة يلتزم بمسافة فاصلة بمقدار اربع خطوات كبيرة لكي لا يُزعِجَ احدٌ احدا. فهم ينتبهون في الأمام لكي لا تقترب خطواتي منهم اكثر مما ينبغي. وانا بدوري في الخلف انتبه لكي لا تكون ظهورهم قريبة مني أكثر من اللازم.

ولكن جرت الامور لمرتين على عكس المعتاد. رجل يمشي أمامي دس يديه فجأة في جَيبيّ بنطلونه. توقف. وادار جيوبه نحو اليسار لنفض نشارة الخشب إلى خارج جيوبه. ثم طرق الجيوب لاخراج التراب العالق بها.. وتجاوزْتُهُ في السير. بعد وقت قصير احسست أنه يسير على بعد أكثر من اربع خطوات خلفي ثم اربع

خطوات واخيراً اصبح في عقبي. تجاوزني وبدأ بالركض. وحينما فرغت جيوبه من نشارة الخشب اصبح لديه هدف.

المسنون قطعوا لأنفسهم أغصانا طرية وقسموها إلى قطع أصغر وجعلوا في كل قطعة حزاً مستوياً وحفروا ثقوباً عليه كما جعلوا النهاية الامامية مسطحة وصنعوا من كل غصن لمسوه، كتب غيورغ، صفّارة.

توجد صفارات لا يتجاوز طولها اصبع طفل، كان إدغار قد قال، وهناك صفارات طويلة تتجاوز طول إنسان بالغ.

المسنون اطلقوا الصفارات في الغابات وجننوا الطيور. انتشرت الطيور على غير هدى تجوب بين الأشجار والأعشاش، وحين طارت إلى خارج الغابة ظنت أن مياه البركة غيوم متراكمة. فهوت بنفسها جهة الموت.

وهنا يستقل طائر وحيد ينجو بحياته، إنّه طير الدغناش(*). المختلف عما يحملون من صفارات كلها. يقود المسنين إلى الجنون. يقطعون لانفسهم اغصاناً من اشواك الرمل ويوخزون ايديهم بالاشواك حتى تدمي. ويصنعون من الخشب صفارات بحجم الاصابع وبطول الاطفال. لكن طير الدغناش لا يجن.

قال إدغارمرة: أن طير الدغناش حين يشبع، يواصل الصيد. المسنون يتسللون نحو أشواك الرمل ويطلقون الصفارات. يطير الدغناش من فوق رؤوسهم حتى الأحراش الكثيفة ويحطُّ هناك

(*) الدغناش (ذو الجناحين الورديين) طير يعيش في اوربا، ولا وجود له في البلاد العربية، إلا إنه يشبه العصافير الصغيرة المغردة التي تتردد على حقول الأرز. وقد اشتهر في أوربا بكونه طائر الغاب الذي يستوقفك شدوه.

دون أن يعبأ بشيء. يثبّت فريسته بتأنٍ فوق الاشواك ليضمن له ما يسد به رمقه ليوم مقبل.

وهكذا يجب أن يكون المرء، كتب غيورغ. وأنا مثل ذلك الطائر، اشتريت زوجين من الاحذية خلال اسبوع.

قرأت في رسالة إدغار قبل ثلاثة ايام مضت: سبق لي في هذا الاسبوع أن فشلت مرتين في العثور على أحذيتي.

حينما كنت أمر بمعارض بيع الأحذية اتذكر حملات التفتيش. كنت أُسرعُ الخُطى. قالت الخياطة: احذية الاطفال غالية جدا. ولما كانت لا تتحدث إلا عن الأحذية وجب عليّ أن اضحك. قالت: ليس لديك أطفال. كنت أفكر بشيء آخر، قلت.

اعتاد كورت أن يزور المدينة كل اسبوع. كان مهندساً في مذبح على مقربة من إحدى القرى، ليس بعيداً عن المدينة، والاخيرة ليست ببعيدة ولا يحتاج المرء إلى أن يسكن في القرية. الحافلات تتحرك منها وإليها، ذهاباً وإياباً. ففي الصباح حين يتوجب علي الذهاب للعمل في القرية، تتحرك حافلة من القرية إلى المدينة. وفي العصر، بعد انتهاء وقت العمل، تتحرك حافلة من المدينة إلى القرية. وسبب صعوبة حركة الحافلات عائد الى أنهم لا يريدون للناس العمل في المذبح، ولاسيما أولئك الذين يستطيعون الذهاب إلى المدينة يومياً. يريدون قرويين فحسب من الذين لا يتركون القرية الا نادرا. وحينما ينظم اناس جدد يصبحون سريعاً شركاء للآخرين الموجودين في القرية. انهم يحتاجون لبضعة ايام فحسب لكي يلزموا الصمت كالاخرين ويرتشفون الدم الساخن.

يشرف كورت على اثني عشر عاملا كانوا يمدون في أرض

المذبح أنابيب نظام التدفئة. وهو مصاب بالزكام منذ ثلاثة اسابيع. كنت اقول له في كل اسبوع: عليك ملازمة الفراش. العمال مزكومون مثلي تماما ولا يبقون في الفراش، قال. فاذا تغيبتُ لا يعملون ويسرقون كلَ شيء.

لم نستخدم كلمة «مزكوم» فقد كانت موجودة في الرسائل. تناول غيورغ ثلاثة أكواب من الشاي أثناء نصف الساعة بينما شربت كوباً واحدا. نظرت داخل الكوب وفكرت به مع نفسي: أنه يشرب بشراهة. قال: لا يرغب الاطفال في مدرسة غيورغ أن يعرفوا أيَّ شيء عن المصنع أو الأرضيات الخشبية العائدة لابائهم ولا صفارات أجدادهم. انهم يصنعون لأنفسهم غدارات وأسلحة من الواح الخشب. ويريدون أن يُصبحوا رجال شرطة أو ضباطا.

وحينما أذهب صباحاً إلى المذبح يذهب الأطفال في القرية إلى المدرسة. ليس لديهم دفتر أو كتاب لا يملكون اكثر من قطعة طباشير يملأون بها الجدران وأسوار الحديقة برسوم قلوب متداخلة ببعضها، يرسمون قلوب أبقار وخنازير وما شابه ذلك. هؤلاء الأطفال قد أصبحوا شركاء متورطين. تفوح منهم روائح كريهة حينما يُقبّلهم آباؤهم وان آباءَهم، الذين في المذبح يرتشفون الدم، حتى الأطفال أَنفسهم يريدون الذهاب إلى هناك.

كنت قد كتبت إلى إدغار: اني مزكومة منذ أسبوع ولا استطيع العثور على مقص اظافري.

ولربما كان عليّ الاّ أكتب الكلمتين «مزكومة» و«مقص الاظفار» في جملة واحدة، لربما كان عليّ أن أوزع «مزكومة» و«مقص الاظافر» في الرسالة. ولربما كان عليّ أن اكتب «مقص الاظافر» اولاً ثم «مزكومة» بعد ذلك. لكن كلمتي «مزكومة» و«مقص الاظافر» كانتا مجرّد طُرفةٍ أكبرَ حجماً من رأسي، بعد أن

انكببت طوال عصر أحد الايام على تلاوة جُملٍ تحتوي على كلمة «مزكوم» و«مقص الاظافر» هكذا في الهواء، لكي أعثر على الكلمة الأنسب.

كانت كلمتا «مزكومة» و«مقص الأظافر» قد طردتاني من المعنى الذي كنا قد اتفقنا عليه لم أعد اجد معنًى فيهما، تركتهما سوية في جملة واحدة لربما صارت جملة جيدة ولكنها في الوقت نفسه سيئة حتماً. ولا بد أن حذف هاتين الكلمتين «مزكومة» و«مقص الاظافر» من تلك الجملة الواحدة وإضافة بضع جُملٍ فيما بعد كان سيكون أكثر سوءاً. كان بإمكاني أن أقوم بحذف جملة وترك التالية لها وهكذا في كلتا الرسالتين. كما أن حذف «مزكومة» و«مقص الاظافر» لوحدها كان سيبدو اشارة واكثر غباءً من جملة سيئة.

وجب عليّ أن أضع شعرتين في الرسائل. أمام المرآة بدا شعري بعيداً جداً عني وقريباً للأمساك به مثل فرو حيوان يراه الصياد من خلال منظاره.

صار عليّ أن أقلع شعرتين لن تضيعا، شعرتا رسائل. أين نمتا، فوق الجبهة، فوق الصدغ الأيسر أم الأيمن أو ربما في منتصف الرأس.

مشّطت شعري، تعلّقَتْ بضعُ شعراتٍ في المشطِ، وضعتُ واحدةً في رسالة إدغار وواحدةً في رسالةِ غيورغ. ولو لم يخطء المشط فالشعرتان لم تكونا شعرتي رسائل. لعقتُ الطوابعَ على عجل في دائرة البريد. بالقرب من المدخل كان رجلٌ يتكلم على الهاتف وهو نفسه الذي يتبعني كلَّ يوم. يحمل حقيبة بيضاء من الكتان ويسحب كلباً بالقيد. كانت حقيبته خفيفة وتبدو نصف مملوءة. يحملها ولم يكن يعرف إلى أين يتجه طريقي.

دخلت متجرا، ولاحظته جاء بَعْدَ وقتٍ قصيرٍ، وقف في الطابور واضطر إلى ربط الكلب عند مكان ثابت. أربع نساء يقفن بيني وبينه. وما أن غادرت المتجر حتى سارع يتبعني مع الكلب. لم تكن حقيبة الكتّان في يده اكثر امتلاءاً من ذي قبل.

واثناء إجراء المكالمة الهاتفية كان يحمل قيد كلب ولاقطة بيد واحدة وحقيبة الكتان باليد الأخرى. يتكلم وينظر إلي كيف ألعق الطوابع بلساني. لصقت الطوابع بعد أن ابتلت زواياها. وأمام عينيه أودعت الرسائل الصندوق كما لو أنها ستكون بمأمن من يديه.

لم يكن الرجل النقيب. لربما كان الكلب بيله ولكن لم يكن النقيب بيله الوحيد الذي يملك كلب حراسة.

كنت قد تعرضت إلى تحقيق من النقيب بيله بدون الكلب بيله. لربما كان الكلب بيله في فترة التهام شيء ما أو يغط في النوم. ولربما تم في حُجرة من حُجرات هذا المبنى المتداخل الاقسام ترويض الكلب بيله وتعلم شيئاً إضافياً أو تدرب على ما كان يعرفه سابقاً، بينما يُجري النقيب بيله تحقيقه معي. ولربما كان الكلب بيله مع الرجل حامل حقيبة الكتان يتبعُ في الشارع شخصاً آخر، أو شخصاً مختلفاً لا يحمل حقيبة من كتان. كم رجلاً يا ترى كان هناك وكم كلبا؟ بقدر عدد الشعرات على جسم كلب.

ورقةٌ مطروحة على الطاولة. قال لي النقيب: اقرأي. وعلى الورقة كانت القصيدة. اقرأي بصوت عال لكي نتمتع نحن الاثنان. قرأت بصوت عال:

كلُّ واحدٍ له صديق في كلِّ قطعةٍ من الغيم

هكذا يمضي الحالُ مع الأصدقاء حيث العالم ممتلئ بالأهوال

و أمي تقولُ بأن هذا الأمر جد عادي

الأصدقاءُ فوق الشبهات

فلتفكر بأمور أكثرَ جدية

سألني النقيب: من كتب القصيدة. قلت: لا أحد، هي أغنية شعبية. اذاً فهي من تراث الشعب، قال النقيب اذاً يسمح للشعب أن يواصل كتابة الشعر. نعم، قلت. اذاً فلتكتبي مرة. قلت: لا أستطيع أن اكتب الشعر. لكن أنا. . . . قال النقيب بيله: أنا اقول الشعر وانتِ تكتبين ما أقرضه لكي نستمتع بذلك كلانا:

كان لي ثلاثة أصدقاء في كل غيمة صغيرة

هكذا هو الحال مع المومسات بينما العالم مملوءٌ بالغيوم

حتى أُمي قالت أن ذلك طبيعي تماما

ثلاثة أصدقاء فوق الشبهات

فَلْتُفَكِّرنّ بأشياء أكثر جدية.

وجَبَ عليّ أن أُغني ما نظمه النقيب بيله. غنيت دون أن اسمع صوتي. هويت من الخوف السطحي إلى الخوف الحقيقي. خوفٍ يستطيع أن يغنى كما يغني الماء. لربما كان اللحن من أوهام جدتي المغنية. لربما كنت أعرف بعض الاغاني التي نسيها عَقْلُها. لربما استدعى الأمر أن تمر تلك الأغاني عبر شفتيّ، تلك الاغاني التي أصبحت بائرة في رأسها.

حلّاق الجد في سن الجد. أنه أرمل منذ سنوات وسنوات بالرغم من أن زوجته أنا كانت في سن أمي. لم يقدر منذ زمن بعيد التكيّف مع فَقدان أناه.

أيام كانت أنّا ما تزال على قيد الحياة، قالت أُمي: كان لها لسان سليط. وحينما صودر حقل الجد، كانت أنّا قد قالت للجدة المغنية: الآن لديك ما تستحقين.

وحينما رفرفت راية الصليب المعقوف فوق ميدان الرياضة في القرية، قامت الجدة المغنية بابلاغ السلطات أن خطيب أنّا لا يحضر مراسم تحيّة العلم لأنه معادٍ للزعيم هتلر.

وما هي إلا يومين من هذه الشكوى حتى وصلت سيارة من المدينة أخذت خطيب أنّا معها. وبقي منذ ذلك الحين اختفى ولم يره أحد.

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها بوقت طويل، قالت أُمي: إنَّ الحلاق حظي بأنّا الشابة. وما زال الحلاق حتى يومنا هذا يشكر الجدة لأنه حصل على تلك المرأة ذات الجمال الخارق. وحينما يحلق شعرَ الجد أو يلعب معه الشطرنج يقول: النساء خارقات الجمال لا يهرمن لأنهن قبل أن يصبحن قبيحات يَمُتْنَ.

ولكن ليس هناك أي سبب ليكون الإنسان ممتنا، قالت أُمي. الجدة لا تدعو بالشر لأنّا ولا للحلاق خيرا. وانها قامت آنذاك بالإخبار لأن ابنها كان قد اشترك منذ مدة طويلة في الحرب بينما امتنع خطيب أنا عن الالتحاق بالجيش.

أخذ النقيب بيله الورقة وقال: لقد احسنتِ كتابة الشعر وان أصدقاءَك سيفرحون بذلك. قلت: انت الذي كتبت الشعر. أجل أجل، قال النقيب بيله، أن هذا لخطك حقا.

وحينما سمح لي بالانصراف، شكا النقيب من الآم كليتيه وقال: انك محظوظة معي.

وفي جولة التحقيق التالية قال النقيب: اليوم نغني بدون ورقة.

قلت في نفسي: لقد أعاد اللحن إليَّ مرة أخرى ذاكرة الخوف المحتوم، الذي لا يمكن له ان يرحل لمنطقة النسيان.

سألني النقيب: ماذا تفعل امرأة مع ثلاثة رجال في الفراش؟ لزمت الصمت. لا بد أن تلك حفلة ماجنة شبيهة بحفل عرس للكلاب. قال النقيب: لكنكم كمجموعة من غير المعقول أن ترغبوا في الزواج، إذ أن ذلك يقتصر على زوجين وليس على قطيع. أيُّ القطيع ستختارين أباً لطفلكِ؟

قلت: لا ينجب الإنسان أطفالاً عبر الحديث.

أجل، أجل، قال النقيب. الإنسان ينجب طفلاً عبر وسائط أخرى.

وقبل أن يسمح لي بالانصراف قال لي: انكم بذرة شر. سنلقي بكِ في الماء.

بذرة شر، رددتها في نفسي، لقد رأى الأب ذلك حينما حصد نبات أشواك الحليب بالمعزق. كتبتُ رسالتين وفي كل رسالة وضعت فارزة خلف صيغة المخاطبة:

عزيزي إدغار،

عزيزي غيورغ،

المطلوب هو أن تصمت الفارزة حينما يَقرأُ النقيب بيله الرسائل لكي يعيد لصقها وارسالها. ولكن حينما يفتح إدغار وغيورغ الرسائل، على الفوارز أن تبدأ بالصراخ.

لم تكن فى الدنيا فارزة تصمت وتصرخ. أصبحت الفارزة بعد صيغة المخاطبة غليظة إلى حد بالغ.

لم يعد باستطاعتي بعد الآن أن اترك العلبة المربوطة بخيط وفي داخلها الكتب والرسائل خلف المحفظات في المكتب.

ذهبت بها إلى خياطتي لكي أنساها هناك، ريثما أعثر على مكان آمن لها في المصنع.

كانت الخياطة مشغولة بالكوي، وكان شريط المقاس الملفوف مطروحاً فوق الطاولة. الساعة تُتكتك داخل الغرفة، رداءٌ مزين بأزهار كبيرة كان مطروحاً على الفراش، امرأةٌ شابةٌ كانت تجلس على الكرسي. قالت الخياطة: تيريزا. أعرفها من المصنع، قلت، كانت ذراعها في رباط من الجبس. نَظَرتْ اليها لحظة ثَمَّ ضحكت. ذراعي اليمنى الان سمراء بفعل الشمس وذراعي اليسرى بيضاء خالصة. حين يسير المرء باكمام طويلة، لا يرى الناسُ ذراعي السمراء. الساعة تواصل تكتكتها في الغرفة. تيريزا تَعرَّتْ ثم ارتدت الثوب المزين بالأزهار بادئةً بادخال الذراع السمراء. اطلقت لعنة لأنها لم تفلح في ارتداء الثوب بصورة كاملة. فأجابتها الخياطة: لن تصبح فتحة الرأس كُمّا حتى وإنْ اطلقتِ اللعنة.

وحين لبست تيريزا الثوب قالت: قبل سنة بدأت أستحضر كل سبٍ بالدين أسمعه احوله في ذهني الى صور. وقد لاحظ الزملاء ذلكَ في المكتب. لأنّه كلّما تعرّض أحدهم للدين اغمضت عينيّ. قالوا: لكي تَريْ التعرّضَ بصورة أدق؟ ولكني أغمضهما لكي لا أرى شيئاً أبدا. وحينما كنت أصل إلى العمل صباحا أعثر على قصاصات ورق فوق مكتبي. كانت نماذج من الكفر بالدين مرسومة على تلك القصاصات. صعود ثقوب المؤخرات والأعضاء الذكرية إلى السماء وغيرها من الرسومات. وكلّما أطلق أحدهم تجديفاً بالدين تجسدت في ذهني رسوم الصعود إلى السماء على القصاصات واضطررت على الضحك. قالوا: انني أغلق عينيّ ايضاً حينما اضحك. وهكذا بدأت أنا أيضاً بالتعرض

للدين وكانت البداية في المصنع تحديدا.

الساعة ما زالت تَتِك في الغرفة. لم أنزع الثوب أبدا، لأن تيريزا قالت لي إنه سميك وسيدفيء جسمي. قالت الخياطة: البرودة وغزت جسمك لأنك تتعرضين للدين، وأضافت: القماش المزخرف بالأزهار هو قماش للصيف فقط، ولا اتمنى أن أتجول مُرتديةً ذلك الثوب في الشتاء. نزعت تيريزا الثوب وقالت: الآن أُجدّفُ بالدين في كل مكان.

كانت الساعة تتك في المرآة أيضا. لتيريزا رقبة بالغة الطول، وهي صغيرة العينين وعظام كتفيها مدببة بافراط. اما اصابعها فغليظة جدا وقفاها مسطحة اكثر من المعتاد وساقاها بالغة التقوس. كان كل ما رأيته على تيريزا ينعكس قبيحاً بمواجهتنا لتكات الساعة. ومنذ أن مُنعت من الربت على الشرابات الصوفية المثبتة بشباشب أبي، لم أسمع ابداً ساعة تطلق تكاتٍ صاخبة على ذلك النحو.

هل تودين الخروج في الشتاء بهذا الثوب؟ سألتني تيريزا. لم يكن للثوب حزام. قلت، نعم، ولاحظت أن تيريزا تبدو قبيحة لأن تكات الساعة افقدتها توازنها. وبعد ذلك مباشرة، وبدون مرآة، إنقلبت القباحة المعتادة عند تيريزا إلى قباحة مفرطة. حالة تبدو أجمل عند النساء اللواتي أصبحن جميلات على الفور.

سألتني الخياطة: كيف حال جدتك؟ قلت: إنها تغنى.

الام تقف امام المرآة تمشط شعرها. الجدة تجلس جنب الام. تلمس الجدة المغنية بيدها ضفيرة الام السوداء، وتمسك باليد الاخرى ضفيرتها الرمادية. تقول: انجبت طفلين لا أحد منهما يشبهني. لقد خدعتماني، ظننت انكما شقراوان. تنتزع

المشط من الام، تغلق الباب بقوة وتذهب بالمشط إلى الحديقة.

حينما تناولت تيريزا أوراق اللعب من المنضدة ذات المرآة عرفت لماذا بدأت الساعة تتكتك في الغرفة بتلك الشدة. كان الجميع في الغرفة ينتظرون. لكنهم لم يكونوا ينتظرون الحدث نفسه. الخياطة وتيريزا ارادتا أن أغادر قبل أن تفتحا أوراق اللعب. وأنا أردت أن يفتحا الاوراق قبل أن اغادر. ولم أستطع ترك العلبة التي جلبتها من البيت الصيفى الى الخياطة بصورة متعمدة ودون أن ألفت نظر أحد إلاّ بعد أن بدأت تيريزا تقرأ للخياطة حظها من أوراق اللعب.

الخياطة معروفة لدى الناس بمهارتها في قراءة الحظ من أوراق اللعب أكثر من مهارتها في الخياطة. لم يكن الزبائن الذين يأتون اليها يكشفون عن هدف مجيئهم. لكن الخياطة كانت تعرف عند النظر اليهم أنهم كانوا يحتاجون إلى الحظ للهروب من البلد.

اني متأسفة لحال بعضهم، قالت الخياطة. فهم يدفعون لي مبالغ كبيرة لكنني غير قادرة على تغيير القدر. تناولتِ الخياطةُ قدحَ ماءٍ وأخذت رشفة. أحسُّ بمن يؤمن بأوراقه، قالت وأعادت القدح إلى الطاولة. إنكِ تؤمنين بأوراقكِ لكنكِ تخشين أن أنجح في لعبة الصبر عبر الأوراق. تفحّصتِ الخياطةُ أُذني. أحسست بحرارةٍ في جسدي. أنتِ لا تعرفين أوراقك، قالت، ولكن عليك العيش مع تلك الحقيقة. أستطيع التنبؤَ بالمصيبة وعليّ في بعض الاحيان الاّ أخفيها في جوفي.

رفعت الخياطةُ القدحَ. ولم تتبق في مكانه دائرة الماء، حيث موضع القدح بل أمام موضع يدي. أحسستُ ببرودة تسري في جسدي، لزمت الصمت، أخذتِ الخياطةُ رشفةَ ماء.

النهر والصخور عند النهر. وبمحاذاة الشاطيء ينتهي مساء التنزّه وعلى المرء أن يعود أدراجه إذا أراد السير وحيداً نحو المدينة. في العادة كان الناس يُغيرون الاتجاه عند تلك النقطة ويعودون ادراجهم لكي يتجنبوا نهايات الصخور المدببة من خلال نعال أحذيتهم.

بين وقت وآخر يحدث أن يغيب شخص ما يختفي دونما أثر لمجرد أنه بادر للنزول إلى الماء، والسبب، كما يقول الناس هو ليس النهر ذاته، كونه لا يختلف من شخص لآخر، السبب، كامن في الشخص ذاته إذ يقرر أنه يجب ألا يعود. وذلك هو الاستثناء.

ولما كنتُ غيرَ راغبة في العودة توجهت الى داخل منطقة الصخور المدببة. كان ذلك هدفا. لم يكن هدف شخصٍ جاء بجيوب فارغة، كما كان غيورغ قد وصفه في إحدى رسائله. وضعت في جيبي حجرتين غليظتين. كان هدفي على عكس ذلك.

وفي اليوم السابق كنت قد ذهبت إلى مجمّعٍ سكنيٍّ غريبٍ عليّ كل الغرابة. لكي أستطيع النظر إلى الأرض من نافذة الطابق الخامس. لم يكن أحدٌ متواجداً هناك وكان الارتفاع كافياً للإيفاء بالغرض، باستطاعتي القفز. لكن السماء فوق رأسي كانت مني قريبة جداً، كما كان الماء عند النهر قريب مني. كنت مثل طيور المسنين المجنونة بفعل الصفارات. ليَ صفَّر الموت. وحينما عجزت عن القفز، عدت في اليوم التالي إلى النهر. وكذلك في اليوم الذي بعده.

واحدة بعد الاخرى كالايام، كالايام التي جئت فيها إلى النهر. تنتصب ثلاثةُ أزواج من الاحجار عند الشاطىء. كنت في المرات السابقة قد أخذت معي حجرين آخرين كل مرة. لم أفتش طويلاً، فقد كانت الاحجار الثقيلة متوفرة بكثرة، أحجار من تلك

الراغبة في الغرق معي. لكنها كانت الأحجار الخطأ، ولذا عادت من جيوب المعطف إلى الأرض، وعدت أنا مرة أخرى إلى المدينة.

كان أحد الكتب من البيت الصيفي قد وقع تحت عنوان: «قَتْلُ النفس». وورد في الكتاب بأن أسلوباً واحداً للأنتحار فقط يوائم العقل. أما أنا فقد بُتُّ أنتقل في الدائرة الباردة بين النافذة والنهر ذهاباً وإيابا. صَفّر لي الموت من بعيد وصار عليّ أن اتحفّز للقفز نحوه. كنت مسيطرةً على نفسي تماماً عدا جُزءاً صغيراً لم يشأ أن يطيعني. لربما كان حيوان القلب.

بعد موت لولا كان إدغار قد قال: بات الاقدام على الانتحار فعل آمن. ادركت اني مثيرةٌ للضحك إذا ما قورنت بلولا. ذهبت مرة أخرى إلى النهر لكي أقوم بتوزيع الاحجار المتآلفة بين الاحجار الاخرى. عرفت لولا فوراً كيف يربط المرء الكيس بالحزام. فلو أن لولا أرادت الكيس مع النهر لعرفت كيف يجري تآلف الأحجار. لم يكن مثلُ هذا الشيء موجوداً في أي كتاب. فكرت آنذاك في أثناء القراءة: بأني اذا احتجت إلى الموت مرةً فسأعرف ما عليّ فعله.

كانت الجُملُ في الكتاب قريبة منّي إلى حد كبير كما لو أن باستطاعتها القيام بما هو ضروري فيما بعد. ولكنني حينما تمعنتُ فيها طويلاً تمزّقت وتركتني لأنصرف. ضحكتُ بصوت عال حينما فرّقت بين الصخور المتآلفة على الشاطىء. كنت قد بدأت بشيء مغلوط مع الموت.

كنت من الغباء بما يكفي إذْ طردت البكاء بالضحك. وكنت عنيدةً إلى حد جعلني أفكر: النهر ليس كيسي. لم يكن النقيب بيله مُصيباً حين قال لي سنغرقك في الماء.

لم يأت ادغار وغيورغ إلاّ في الصيف حينما بدات العطلة الكبيرة. لا هُما ولا كورت سمعوا بأن الموت قد صفّر لي.

بدأ كورت يروى لنا في كل أسبوع عن المذبح. كان العمال يشربون الدم الساخن اثناء الذبح. كانوا يسرقون الاحشاء والمخاخ. ومع اقتراب المساء كانوا يرمون بأفخاذ البقر والخنازير من فوق السور. كان أخوانهم أو أصهارهم ينتظرون في سياراتهم ويحمّلون اللحوم. كانوا يشوون ذيول البقر بالسياخ ويتركونها حتى تتصلب وبعضها يبقى لينا.

كانت زوجاتهم وأطفالهم شركاء في الجريمة، قال كورت. اما الذيول المتصلّبة فتستخدمها النساء فرشاً لتنظيف القناني ويستخدم الأطفال الذيول اللّينة كأدوات للعب.

لم يفزع كورت حين أخبرته بأنني غنيت مجبرةً امام النقيب بيله. قال: كدت أنسى تماماً تلك القصيدة الجميلة. أتصور نفسي مثل براد لولا مملوءةً بالالسنة والكلى، أمّا هناك حيث أسكن فإن كل إنسان براد لولا. وقاعة الطعام كبيرة مثل حجم القرية.

حاولت أن الفظ كلماتِ «بذور الشر» و«عرس الكلاب» بصوت النقيب بيله. لكن كورت أصاب في تقليد نبرة النقيب أفضل مني. بدأ يضحك وبصوت عال جداً حتى امتلأ بلعومه بالبلغم وبدأ بالحشرجة. وعلى حين غرة بلع كورت ريقه وسأل: أين كان الكلب؟ لماذا لم يكن الكلب بيله حاضرا؟

لم يكن الانتحار في النهر من نصيبي. لم يكن من نصيب أي منا.

الانتحار بالنافذة لم يكن من نصيبي، صار من نصيب غيورغ فيما بعد.

الانتحار بالحبل صار من نصيب كورت فيما بعد.

إدغار وكورت وغيورغ وأنا لم نكن آنئذٍ نعلم بذلك. كان يجب على المرء أن يكون قادراً على القول: لا أحد كان يعرف بالأمر آنذاك. لكن النقيب لم يكن لاهياً عن الأمر. لا أحد ربما فكّر بكيسين في ذلك الوقت: الاول لانتحار غيورغ. والثاني لكورت.

لربما لم يكن النقيب بيله آنذاك يفكر بان الانتحار الاول والانتحار الثاني سيستغرقان مدة أطول بكثير. وربما فكّر بالانتحارين وقسّم الامر على عدد من السنين.

لا نستطيع أن نتصور أفكار النقيب بيله. وكلما تعمّقنا في التفكير بها زدنا بها جهلا.

فكما اضطررت على تعلم توزيع «مزكوم» و«مقص الاظافر» في رسالة واحدة، صار على النقيب بيله أن يتعلم كيفية توزيع مخطط موت غيورغ وكورت على السنوات.

ولم اكن اعرف ابدا ماذا يمكن لي أن اقول عن النقيب بيله وما الذي يمكن أن يكون صحيحا. اما ما كان يُقال عني فقد عرفته بالتدريج وبعضه لثلاث مرات. لكنها كانت دائماً مخطوءة في كل الأحوال.

بين الشتاء والربيع سمعت أخبار خمس جثث عُثِرَ عليها في الأدغال الكثيفة في ماء النهر. تحدث الناس وكأن الامر متعلق بأمراض الدكتاتور. قاموا بهزّ الرؤوس واقشعرت ابدانهم. وكذا كورت.

عندَ طرفِ المذبح في منطقة الادغال الكثيفة كان كورت قد شاهد شخصاً. كان العمال يقضون فترة استراحة ويهمّون بالدخول إلى الصالة الكبيرة بحثاً عن شيءٍ من الدفء. لم يذهب كورت

معهم لأنه لم يرد أن يرى كيف يشربون الدم. وفي الفناء ظل يتحرك ذهابا واياباً. وظل ينظر إلى السماء ولكنه في طريق العودة سمع صوتا. كان صاحب الصوت يطلب بعض الملابس. وحينما توقف الصوت شاهد كورت رجلاً حليق الرأس تماماً ويقبع بين الأدغال الكثيفة. ولا يرتدي غير ملابس شتوية داخلية فحسب.

استطاع كورت بعد انتهاء فرصة الاستراحة وبينما العمال في داخل الخنادق لا تبدو منهم غير الرقاب، أن يعود إلى الأدغال الكثيفة. تبول وترك بنطلونه وجاكتته هناك. كان الرجل ذو الرأس الحليقة قد غادر المكان.

وفي المساء ذهب كورت مرة أخرى إلى حيث الادغال. كانت الملابس قد اختفت. الشرطة والجنود يمشطون المنطقة. وفي الصباح التالي شرعوا بتفتيش القرية. قال عمال المذبح: أن طاقية سجين ما عُثر عليها في حقول البنجر، خلف المذبح.

يحتمل أن الرجل كان مطروحاً في المساء نفسِهِ في النهر، قال كورت: فإن لم يكن هو، الذي عثروا عليه، فإنه يرتدي ملابسي.

أحسست بمرارة تجتاح فمي. حاولت التفتيش عن الأحجار لِثلاثٍ مما طفى من جثث النهر، ولربما من اجله ايضا. وقلت: يحتمل الا يكون هو.

كنت اترجم الارشادات الخاصة بالمكائن الهيدروليكية. أنظر في المكائن بوصفها قاموساً سميكاً. كنت أجلس وراء مكتب عملي ومن النادر أن أذهب إلى القاعات. لم تكن هناك أي علاقة بين المكائن والقاموس. كانت المخططات الفنية تبدو لي مثل تفاهمات بين صناعة الصفيح وعمال المناوبة: عمال النهار وعمال الليل وعمال أقدمون وعمال متميزون وعمال مساعدون. وان ما

كانوا يُلهون أنفُسهم به لم يكن بحاجة إلى اسم في الرأس. وهكذا كانوا يتقدمون في العمر إن لم ينجحوا في الهرب أو لم يهووا أمواتا.

كانت مكائن هذا المصنع محصورةً بين دفتى القاموس. وكنتُ معزولة عن كل الآلات والقطع الميكانيكية.

توقف المنبّه بعد منتصف الليل بقليل. ستنهض الأم في الظهر تقريباً. تدير زنبرك المنبّه لكنه لا يتكتك. فتقول الأم: من دون المنبه لن يحل الصباح. تلف الأم المنبه في صحيفة. وترسل الطفل مع المنبه إلى الساعاتي. الساعاتي يسأل: متى تحتاجون المنبه مرة أخرى. الطفل بدون المنبه لن يحل الصباح.

ثم جاء الصباح مرة أخرى. عند الظهيرة تنهض الأم وتبعث الطفل ليجلب المنبّه. يرمي الساعاتي حفنة ملء يديه من المنبهات في علبة فارغة ويقول: لا فائدة من هذه الماكنة بعد الآن.

على طريق العودة يمد الطفل يده في العلبة ويَبْلَعُ أصغر ترس وأقصر مسمار وأنحف صامول، وثاني أصغر ترس...

ومنذ اقتناء تيريزا للثوب دأبت على المجيء اليَّ في المكتب. لم تكن ترغب في الانتماء إلى الحزب. بدعوى أن وعيي ليس متطوراً إلي ذلك الحد، كانت قد قالت في الجلسة، واضافة إلى ذلك فأنا أُكثِرُ من إطلاق اللعنات. ضحك الجميع. استطيع أن امتنع لأن أبي الطاعن في السن الآن كان هنا في المصنع من أعضاء السلطة الادارية. وهو من صب أغلب تماثيل هذه المدينة.

رأيت بقعة جرداء في وجه تيريزا، على عظام خدّيها وفي وسط عينيها وكذا في فمها. إبنةُ مدينةٍ ما تزال توائمُ بين الكلمات والأيادي أثناء الكلام.

وبينما كنت أُحسُّ بفراغ يعشعش في داخلي، كانت تيريزا غير مبالية. ولربما لمرة واحدة فقط حَدَث أني رقتُ لها دون سبب.

لم يقتصر الأمر على تلك الكلمات التي كنا قد اتفقنا عليها إدغار وكورت وغيورغ وأنا لكي نتداولها في الرسائل. إذ كانت في القاموس كلمات أخرى تنتظر كان العمال وخراف الصفيح قد انتهوا للتواضع عليها. وقد كتبتها الى إدغار وغيورغ: أُم الصوامل، رقبةُ الوز، ذيل السنونو.

كانت تيريزا تتكلم بسذاجة. تتكلم كثيرا وتفكر قليلا.. أحذية، قالت ولم تكن سوى أحذية فحسب. وإذا اغلقت الريح الباب بقوة، أطلقت تيريزا اللعنات واطالت في ذلك كما لو أن أحداً مات أثناء محاولة الهرب.

كنا نتناول الطعام سوية حين أرتني تيريزا صعود اللعنات على الورق. ضحكت تيريزا حتى ابتلّت عيناها الصغيرتان. كانت تريد أن تجتذبني إلى الضحك ونظرت اليّ. رأيت على الأوراق أحشاء الحيوانات المذبوحة. لم استطع مواصلة الأكل. كان عليّ أن أروي عن لولا.

مزّقت تيريزا صور الصعود. ثمَّ قالت: كنت أنا أيضاً واحدة ممن حضروا في القاعة الكبيرة، لقد أُجبرنا جميعاً على الذهاب إلى هناك.

سوية نتناول طعامنا كل يوم. وكانت تيريزا تلبس ثوباً مختلفاً كل يوم. أما الثوب المزهر فارتدته ليوم واحد فقط. كانت بحوزتها ملابس من اليونان وفرنسا. وبلوزات من انجلترا وجينز من أمريكا. ولديها بودرة وأحمر شفاه وصبغة رموش من فرنسا وحُلى من تركيا وجوارب بنطلون رقيقة كالأنفاس الهادئة من

المانيا. لم تكن النساء في المكتب يستمرئنَ تيريزا. كان من السهل على المرء أن يرى كيف كن يفكرن حينما يرين تيريزا. يفكرن: بأنَّ كل ما ترتديه تيريزا يستحق اللعنة. كنَّ حاسدات وحزينات. كن يغنّين برقابٍ ملوية:

فليعاقب الرب

من يهجر بعد محبة

ليعاقبه الرب

بخطوات كخطو الخنفس

وصرير يشبه الريح

وغبارِ مثل عجاج الأرض

كنَّ يغنّين اللحن لأنفسهن وللهروب. لكن لعنة الاغنية كانت موجهة إلى تيريزا.

كان الناس في المصنع يأكلون الشحم المصفر مع الخبز الصلب.

بأصابعها الغليظة وضعت تيريزا على مكتبي شرائح في غاية الرقة من لحم الخنزير والجبن والخضروات وشرائح الخبز المنضودة فوق بعضها. قالت: أصنع لك لقيمات / جنوداً صغاراً لكي تتناولي شيئاً أيضا؟ رَفَعَتْ فتات الطعام الصغيرةِ بين الابهام والسبابة من المائدة ثمَّ قَلَبَتْها ودسّتها في فمهاَ.

سألتُ: ما الذي يجعل هذه اللقيمات جنوداً صغارا؟ قالت تيريزا: إنها تُدعى هكذا.

كان طعام تيريزا يوائمها. فيه مذاقٌ غريبٌ يشير إلى موقع أبيها. . كان أبوها يوصي على الطعام في مطعم الحزب فيؤتى به

اليه بسيارة خاصة حتى باب بيته، قالت تيريزا: أبي لا يُجبَرُ على التبضع، فهو يتجول ليزور تماثيله ويحمل حقيبة التبضع في المدينة دون أن يكون فيها نفع.

سألت: هل لديه كلب؟

قال اطفال الخياطة: أُمُنا الآن عند إحدى الزبونات. رأيت الاطفال لأول مرة ولم أُبدِ فضولاً نحوهم. سألوا: من أنتِ. قلت: صديقة. اصابتني رجفةٌ في تلك اللحظة إذ شعرت بأنني لم أكن كذلك.

كانت للأطفال شفاهٌ وأصابعُ بصبغة زرقاء غامقة. فحينما يكون قلم الرصاص جافاً فإنه يكتب بلون رمادي. ولكن حين يمزج بلعاب البصقة يكتُب بلونٍ ازرق كالليل.

فكرت لنفسي: الآن الأطفال هنا لأول مرة وأنا أيضا هنا لأول مرة بدون أي نيّةٍ مخفيّةٍ، لا أُريد أن أنسى أي شيء من هذا الحدث.

لكنني أجل، أردت أن أنسى شيئاً، وهو موتَ المجنون عند النافورة.

الرجل الميت ذو البابيون الأسود على العنق مُمدّد على الأسفلت، حيث دأب على الوقوف لسنواتٍ طويلة. تدافَعَ الناسُ حول الجثة وسُحقت باقة الأزهار الذابلة تحت الأقدام. كان كورت قد قال: مجانين المدينة لا يموتون أبدا. وحينما يسقطون على الأرض ينهض في المكان الذي وقفوا فيه شبيهٌ آخر من باطن الأسفلت. كان الرجل ذو البابيون الاسود قد سقط على الأرض. ومن باطن الاسفلت خرج اثنان آخران، شرطيٌّ وحارس.

قام الشرطي بطرد الواقفين من المكان. كانت عيناه تشعّان

شرا، يتدفق الزباد من فمه بفعل الصراخ. كان قد جاء بالحارس معه، حارس معتاد على جرّ الناس وضربهم.

جلس الحارس أمام نعليّ الميت ومد يديه في جيوب معطفه. كانت رائحة المعطف توحي بأنه جديد، مملحٌ ومزيتٌ مثل الأقمشة المشمعة في متاجر الملابس. وكان له كمّان قصيران مثل المعاطف موحدة الأحجام الخاصة بالحراس. وهكذا كان معطف الحراس حاضراً وكذا طاقيته، عدا العينين تحت الطاقية كانتا غائبتين.

لربما شَلّت آثارُ الطفولةِ الحارسَ المتواجدَ جنب هذا الميت. لربما سكنت في داخل جمجمته قريةٌ. لربما دارت في ذهنه صورة أبيه الذي لم يره منذ مدة طويلة، أو الجد الذي توفي منذ زمن. أو رسالة تحمل أخبار مرض الام. ولربما صوت أخ ظَلَّ، يرعى الأغنام ذات الحوافر الحمراء منذ أن ترك الحارس دياره.

كان فم الحارس أكبر مما ينبغي وخصوصاً لمثل هذا الفصل من السنة. كان مفتوحا لغياب البرقوق الأخضر في الشتاء والذي جرت العادة على أن يحشوه.

لم يستطع الحارس أن يُوسِعَ احداً ضرباً وهو يجلس جنب الميت الذي سرعان ما التقى بزوجته تحت تراب المدينة بعد كلّ هذه السنوات الطويلة.

كتب اطفال الخياطة اسماءَهم على ورقة زرقاء كالليل ولمرات لا تحصى. تخاصموا حول المكان على سطح الورقة. لم يكن خصاماً صاخباً ولكنه متضمن للسباب والتهكم: انكَ تفوحُ برائحةِ البصل، لك أقدامٌ مسطحة كالأوز، انتَ واسنانُكَ المقوسة. الأولى بك أن تزيل ديدان البطن من شرجك.

لم تكن أرجل الأطفال تحت الطاولة لتصل إلى الأرضية. أمّا على الطاولة فكانوا يتبادلون الوخز بعضهم البعض باقلام الرصاص، والغضب في وجوههم ذو طابع عنيد وشديد. قلت لنفسي: بينما تأخرت الأم، ماذا لو ينمو هؤلاء الأطفال بسرعة خارقة؟ ما الذي سيحدث لو انهم وصلوا سن البلوغ خلال ربع ساعة ودفعوا الكراسي بأعجازهم بعيداً عن الطاولة وغادروا المكان؟ كيف لي أن ابلّغ الخياطة بما جرى، حينما تعود إلى البيت وتطرح المفتاح في مكانه؟ كيف أقول لها إن الأطفال لم يعودوا بحاجة لذلك المفتاح؟

وحينما كنت انشغل عن النظر إلى الأطفال لم أستطع أن أميّز بين أصواتهم. في المرآة. بدا وجهي والعيون الواسعة كما لو أنها لمخلوقة لا وجود لها. ولم يكن عند العينين أيُ سبب للنظر اليّ.

عادت الخياطة ووضعت المفتاح فوق الطاولة ذات المرآة، ثم طرحت أوراق اللعب وشريط المقاس الملفوف على الطاولة. قالت: لزبونتي صديق يستطيعُ أن يقذف بسائله المنوي حتى السقف. وزوجها لا يدري أن البقع فوق الفراش انما هي بُقع مني. انها شبيهة ببقع الماء. اصطحب معه أمس ابن عم له بعد انتهاء نوبة العمل الليلية إلى بيتنا. صعد الاثنان في ذلك الطقس الممطر إلى سطح البيت وفتشا عن أحجار قرميد محطّمة. كانت هناك قطعتا قرميد محطمتان وكلتاهما لم تكونا فوق الفراش. قال ابن العم: اذا ما هبّت الريح باتجاه مائل سقط المطر باتجاه مائل ايضا. سيحضر زوج زبونتي غداً لكي يطلي السقف. قالت الخياطة: اقنعته بأن قلت له: يتريث حتى الربيع، فأنتم تعرفون تماما، أن الامر سيحدث مرة اخرى عند نزول المطر القادم.

مسحت الخياطة بيدها شعر أحد الأطفال. أمال الطفل الآخر رأسه نحو ذراعها راغباً في مسحةٍ أيضا. لكن أمه ذهبت إلى المطبخ وعادت بقدح ماء. قالت: انتم يا آكلي النمل، أن أقلام الرصاص سامة في الفم، اغطسوها في الماء. وحينما تناولت ورقة خالية سارع الطفل الذي مسحت الأم شعر رأسه، ومد يده، لكنها وضعت الورقة على الطاولة.

جاء الصديق يحملُ دلواً نصف مملوءٍ بالماء بعضوه الذكري، قالت الخياطة: حين أراني ذلك مرة. حذرت الزبونة. صديقها الجنوبي، من سكورنيتسسي وهو أصغر اولاد العائلة الأحد عشر. ستة منهم ما زالوا على قيد الحياة. ولا يمكن أن يسعد أحد مع شخص مثله. كنت قد تنبأت بذراع الجبس لتيريزا. انكما شخصان مختلفان جداً قالت الخياطة، ولكن يحدث أحياناً أن ينشأ وئامٌ بين شخصين متغايريين. كل الذين يعرفونني يصدقون تنبؤاتي.

رجل سحب دلواً من بيت متهاوٍ إلى الشارع. ترك البوابة مفتوحة. في الفناء أطلت شمس شاحبة. ماء الدلو متجمداً. قَلَبَ الرجلُ الدلو في أحد الأحواض ودعسه بحذائه. وحينما رفع الدلو شوهد فأرٌ متجمد داخل كرة ثلجية. قالت تيريزا: حينما يذوب الثلج سيهرب الفأر.

اختفى الرجل دون أن ينطق بكلمة في البيت الاحدب. كانت البوابة قد صرّت وانسحبت الشمس الشاحبة مرة اخرى. وحينما توقفت تيريزا عن إطلاق اللعنات سألت: هل ما زال النهر متجمداً إلى حد بالغ.

لم تجب تيريزا على كثير من الأسئلة. كنت مضطراً لطرح بعض الاسئلة أكثر من مرة، بينما لم اكرر طرح أخرى ابدا، لانني

نسيتها، كما انه كانت هناك اشياء لم أنسها ولكنني لم اسأل عنها مرة أخرى ابدا، لكي لا تعرف تيريزا بأن لتلك الأشياء أهمية عندي وكنت بذلك أنتظر مناسبة جيدة. وحينما تتوفر المناسبة الجيدة، يصيبني الشك أن كانت جيدة حقا. تركت الوقت ينصرم حتى تنشغل تيريزا بأشياء أخرى. تفوت كل مُناسبةٍ، هذه ليست جيدة! وكنت أعود مرةً أخرى إلى انتظار مناسبة جيدة.

كانت تيريزا لا تجيب على بعض الاسئلة لأنها تتكلم كثيراً. وهكذا تضيع وقت التفكير بمواصلة التكلم.

لم تكن تيريزا تستطيع أن تقول: لا أدري. وإن اضطرت إلى الاجابة فانها تفتح شفتيها وتقول شيئاً مختلفا تماماً. وحينما حل الربيع واتصل النقيب بيله هاتفياً لاستدعائي للتحقيق. لم أكن أعلم حتى ذلك الوقت أن كان والد تيريزا اعتاد أن يزور تماثيله بصحبة كلبه.

كنت خائفة أن يأتي النقيب بيله إلى المصنع. وبعد المكالمة الهاتفية مباشرة حملتُ الكتب من البيت الصيفي إلى مكتب تيريزا. كانت تتكلم وتضحك مع زملاء العمل وَوَضعَتْ علبة الكتب في دولابها المجاور. لم تسأل عن محتويات العلبة.

أخذت تيريزا العلبة على الثقة ولم أكن أثق بها. في الشارع ذي البيوت المتهاوية كانت تحط الذبابات الاولى على الجدران. كان العشب الجديد أخضر إلى حدِ وَخْزِ العيون. كان الناس يرونه ينمو. وفي كل يوم حينما كنا تيريزا وأنا نخرج من المصنع كان العشب قد كبر مقدار شبرٍ. قلت لنفسي: العشب في الشارع ينمو أسرع من زهرة بخور مريم في مكتب النقيب بيله أثناء التحقيق مع غيورغ. وبين البيوت كانت تنتظر أشجار عارية تجبر الناس المارين من تحتها إلى أخذ الحيطة في كل خطوة لأن ظلال

أغصانها كانت تنطبع على الأرض مثل قرون متشعبة.

انتهى يوم العمل. لم تكن عيوننا متعوّدة بَعْدُ على الشمس الساطعة. لم تكن على الأغصان ورقةٌ واحدةٌ. مرّت السماءُ بكاملها من فوق رؤوسنا، أنا وتيريزا. عصفت برأس تيريزا الأنفعالات ثم هدأ.

ظلت تيريزا ترفع رأسها وتخفظه تحت شجرة لمدة طويلة حتى مسَّ ظلُّ رأسِها ظلال القرون المتشعبة على الأرض. وكان هناك ينتصب حيوان.

رجّت تيريزا بظهرها جذعَ الشجرة النحيف. إرتجَّ القرن المتشعب وترك حيوانه ثم عثر عليه.

امالت تيريزا رأسها، ترك الحيوان قرنه المتشعب وعاد اليه مرة أخرى.

وحينما انتهى الشتاء، قالت تيريزا، ذهب كثير من الناس عند أول شروقٍ إلى المدينة للتنزه. وبينما هم يتنزهون شاهدوا حيواناً غريباً يتوجه على مهل إلى المدينة. أتى ماشياً بالرغم من أنه كان قادراً على الطيران. رفعت تيريزا المعطف المنشور بيديها بعد أن ادخلتهما في جيبي المعطف فبدا ذلك مثل جناحين. وحينما وصل الحيوان الغريب إلى الساحة الكبيرة في قلب المدينة رفرف بجناحيه، قالت تيريزا: بدأ الناس بالصراخ ووجهوا اللعنات نحو البيوت الغريبة. أثنان بقيا في الشارع لوحدهما. لم يكونا يعرفان بعضهما. طار القرن المتشعب من رأس الحيوان الغريب وهبط في أرضيةِ شرفة. هناك على أرضية الشقة تحت الشمس الساطعة مجسدا معَ القرنِ المتشعب شكلا مثل خطوط الكف. الاثنان شاهدا في خطوط الكف حياتيهما بصورة كاملة. وحينما بدأ

الحيوان الغريب يرفرف بجناحيه مرة أخرى غادر القرن المتشعب الشرفة وحط فوق رأس الحيوان مجددا. الحيوان الغريب تحرك ببطءٍ عبر الشوارع المضيئة الخالية إلى خارج المدينة. وحينما أصبح خارج المدينة خرج الناس مجدداً من البيوت الغريبة إلى الشارع وانصرفوا إلى شؤون حياتهم. بقي الخوف والارتباك بادياً على وجوههم. لم يكن الناس اكثر حظاً أبداً من أي وقت مضى.

اما الاثنان فقد انصرفا إلى شؤون الحياة وكان نصيبهما النجاة من المصيبة.

من كان الاثنان؟ سألت؟ لم أكن أطلب جوابا. خفتُ أن تقول تيريزا: أنتِ وانا. فأريتها بسرعة زهرة ذابلة جنب حذائها. ولكن تيريزا أحسّت، كما فعلت أنا، أن كلينا متوائمتان في حالة واحدة فقط حيث لا توجد بيننا أسرار. وأننا لا نتواءم في نطاق كلمات قصيرة مثل أنتِ وأنا. أدارت تيريزا عينيها الصغيرتين وقالت:

مَن يا تُرى كان الاثنان؟

لن يعرف قطُّ أيُ إنسان.

انحنت تيريزا ونفخت زهرة الطرخشقون بعيداً عن ساق النبتة. لم أعرف بمَ كانت تفكر حينما طارت ريوش الزهرة شبيهة الكرة البيضاء عبر الهواء. زَرَّرَت معطفها وهمّت بالابتعاد عن حيوانها الغريب. بدأت بالمغادرة دون أن تقول كلمةً واحدة. أحسست أن عليّ البقاء لكي أقول لتيريزا انى لا اثق فيها.

بعد أن قطعت تيريزا جزءاً قصيراً من طريقها أدارت رأسها نحوي، ضَحِكَتْ ولوّحتْ.

وحينما بلغنا الشارع التالي بحثنا عن البرسيم ذي الأربع أوراق.

كان ما يزال ناعماً لا يصلح للعصر. لكن أوراقه كانت تحوي الحلقة البيضاء. قالت تيريزا: لا أريد أن أعصره، اني احتاج فقط إلى حظه.

كانت تيريزا بحاجة إلى غصن من نبات البرسيم ذي الوريقات الأربع للإعتقاد بأنه يجلب الحظ وأنا أَحتاج إلى اسم النبتة: برسيم الشواطيء. فتشنا بقعة من البرسيم بأيدينا. لكن الغصن الذي كان يحمل اربع ورقات عثرت عليه انا. ربما لأني لم أكن بحاجة إلى الحظ.

وبينما تنشغل الأم بربط الطفل إلى الكرسي بحزام ملابسها، يقف أمام النافذة إبن الشيطان، له في كل يد ابهامان متجاوران. الابهامان الخارجيان اكبر من الابهامين الداخليين.

في المدرسة لا يستطيع ابن الشيطان أن يكتب بخط جميل. فيقوم المعلم بقطع ابهاميه الخارجيين ويضعهما في زجاجة حفظ تحتوى على محلول كحولى. في أحد الصفوف لا يوجد تلاميذ بل ديدان قز فحسب. يضع المعلم زجاجة الحفظ في صف الديدان. يتوجب على التلاميذ في كل يوم أن يقطفوا اوراقا من أشجار التوت لإطعام ديدان القز لأنها لا تلتهم سوى أوراق التوت.

تلتهم الديدان أوراق التوت وتنمو. ويري الأطفال الابهامين في محلول الكحول ويتوقفون عن النمو. كان أطفال القرية أقصر قامة من أطفال القرية المجاورة. لذا يقول المعلم: ان مكان اصابع الابهام هو المقبرة. يجب على ابن الشيطان أن يذهب مع المعلم بعد انتهاء الدروس إلى المقبرة لدفن ابهاميه.

يدا ابن الشيطان سمراوان من كثرة قطف أوراق التوت تحت أشعة الشمس، إلاّ في كُلْيَتَيّ يديه حيث تبقى ندبتان بيضاوان

تشبهان هيكلاً عظمياً لسمكة.

كانت تيريزا تقف في الشمس بأيدٍ فارغة. ناولتها ورقة البرسيم جالبة الحظ. قالت: لا يمكن لهذا أن يفيدني لأنكِ أنتِ التي عثرتِ عليه سيساعدكِ أنتِ فحسب.. فهو حظُّكِ. لذا أَخَذَتِ الغصن ولم تصدق ذلك.

كنت أسير على بعد خطوة واحدة خلف تيريزا. وأنا اردد كلمة برسيم الشواطيء مع إيقاع خطواتِنا، حتى تعبت الكلمة مثلي.. ثمَّ فقدت معناها.

تيريزا وأنا بلغنا في سيرنا الشارع الكبير حيث كان الاسفلت. هنا وهناك تنامت ساقٌ هزيلة بين الشقوق. كان الترام يصرّ أثناء حركته البطيئة وناقلات الحمولة تنطلق بسرعة وعجلاتها تدور مثل تراب مجدب.

رفع حارس قلنسوته من على رأسه وهو يحبس النَفَسَ في فمه ثم دفع به خارجا كما لو أن شفتيه يوشكان على الانفجار. كانت على جبهته كدمات مبللة حمراء بفعل قلنسوته. نظر إلى سيقاننا وتلمّضَ بشفتيه. مازحته تيريزا بودّ. وبينما ظلَّ الحارسُ في مكانه، تابعت تيريزا مشيها وكأنها لا تمشى فوق الأرض بل فوق العالم. احسست بشيء من البرد ولم استطع المشي الاّ كما تعودت في هذه البلدة. احسست بالفرقِ بين البلدة والعالم. كان الفرق أكبر من ذلك الذي بيني وبين تيريزا. كنت البلدة ولكنها لم تكن العالم. كانت مجرد ذلك الشيء الذي يعتقد أهل هذا البلد أنه العالم حينما كانوا ينوون الهرب.

كنت آنذاك ما أزال أفكر أن المرء يستطيع أن يمشي في هذا العالم الذي ليس فيه حراس بطريقة تختلف عما هو مألوف في

هذه البلدة. وحيث يستطيع المرء أن يفكر ويكتب بصورة مختلفة، فكرت لنفسي، فباستطاعته أن يمشي بصورة مختلفة ايضا.

هناك عند الركن صالون حلاقتي، قالت تيريزا. سرعان ما تزداد حرارة اليوم، فتعالي، لنذهب ونصبغ شعرنا.

سألت: أيّ لون

قالت: أحمر

سألتُ: اليوم

قالت: حالاً

قلت: كلاّ، ليس اليوم.

كان وجهي يلتهب.

كنت أتمنى لنفسي شعراً أحمر. ومن أجل الرسائل، قلت لنفسى، سآخذ شعرات من الحلاقة، إذْ أنها كانت شقراء مثلي، سوى أنها أطول. فشعرة واحدة تكفي لرسالتين إذ يمكنني أن اقطعها إلى قسمين. لكن أخذ شعرات من رأس الخياطة دون علمها سيكون امراً اكثر صعوبة من نسيان شيء عندها.

وفي بعض الاحيان كانت في حمام الخياطة شعرات كثيرة. ومنذ بدء عهدي بوضع الشعرات في الرسائل رأيت ما يشبه ذلك. كانت هناك شعرات عانه أكثر من شعرات الرأس في حمامِ الخيّاطة. كنت أسكن في غرفة مستأجرة عند سيدة عجوز. كانتَ تدعى مارغيت وهي هنغارية من مدينة بيست. رمتها الحرب وأُختها في هذه المدينة. ماتت الأخت وهي مدفونة في المقبرة، حيثُ رأيت أوجه الاحياء مصورةً على شواهد القبور.

بعد الحرب كانت السيدة مارغيت في أمس الحاجة للمال

لكي تعود إلى بيست. وفيما بعد أُغلقت الحدود. قالت السيدة مارغيت: كنت سأثير الانتباه لو أبديت الرغبة للعودة إلى بيست. قال لي بيتر لوكاس آنذاك: أن عيسى نفسه لم يعش في دياره.. حاولت السيدة مارغيت أن تبتسم لكن عينيها لم تطعها حينما قالت: اني مرتاحة هنا، لم يَعُدْ لي أحدٌ في بيست ينتظرني.

كانت السيدة مارغيت تتكلم الالمانية بنغمة فيها شيء من الطنين. حتى ظننتُ في بعض الأحيان أنها ستبدأ بالغناء. لكن عينيها كانتا باردتين.

لم تخبر السيدة مارغيت أحداً أبداً بسبب مجيئها واختها إلى هذه المدينة. كانت تروي فقط كيف دخل الجنود الروس (الموييتس) إلى المدينة وكيف كانوا ينتقلون من بيت إلى بيت وينهبون الساعات اليدوية. كان الموييتس يرفعون أذرعهم إلى آذانهم ويستمعون إلى الساعات ويضحكون. لم يكونوا يعرفون قراءة الوقت في الساعة. ولا هم يعرفون بأن الساعات حينما تتوقف يمكن أن نُدير زنبلكها لكي تعمل. ولذا فحينما كانت الساعات تتوقف يقول الروس غوسبودين (لا ينفع) ويرمون بالساعات بعيدا. تقول: كان الجنود الروس مولعين بالساعات وكان واحدهم يحمل عشر ساعات متراصّة على ذراع واحدة.

وفي كل بضعة أيام كان أحد أُولئك الجنود في الحمام يدس رأسه في قوقعة المرحاض، ويقوم جندي آخر بفتح الماء. كانوا يغسلون شعرهم فقط. اما الجنود الألمان فكانوا منضبطين. انشرحت اسارير وجه السيدة مارغيت حتى انبعث منها شعاعُ جمالٍ عائد لصبية يافعة، ظَهَرَ على خدّيها.

تذهب مارغيت إلى الكنيسة في كل يوم. وقبل تناول الطعام تذهب إلى الجدار وترفع وجهها وتزم شفتيها. وتهمس باللغة

الهنغارية وتقبّل المسيح المصلوب. لم يكن فمها يصل وجهه. كانت تقبل المسيح على الطريقة الهنغارية في موضع بطنه الملفوف بقطعة إزار. في ذلك الموضع كان الإزار معقوداً والعقدة مستقرة في مكان بعيد عن الصليب بحيث لم تلمس الجدار انف السيدة مارغيت اثناء التقبيل.

حينما كانت السيدة في حالة غضب راحت تخرج البطاطا من الصندوق وتقذف بها نحو الجدار، عند ذاك فحسب نسيت مسيحها واطلقت اللعنات باللغة الهنغارية. وفيما بعد وحين استقرت البطاطا المطبوخة على المائدة بدأت مارغيت تقبل ذلك الموضع الذي يلف جسد المسيح بالإزار لتطرد كل اللعنات التي أطلقتها قبل ذلك.

وفي أيام الاثنين اعتاد خادم القسيس في القداس أن يطرق برفق باب السيدة مارغيت ويناولها من شق الباب كيساً صغيراً يحوي طحينا وقطعة قماش أبيض فى وسطها كاس مطرزٌ بخيوط من ذهب وفضة إضافة إلى صينية كبيرة. وبعد أن تفرغ يدي خادمِ القداس ينحني مودعاً فتغلق السيدة الباب.

أعدت السيدة مارغيت من الطحين والماء عجينة القربان وفرشتها بشكل طبقة رقيقة برقة جوارب بنطلون على الطاولة بكاملها ثم قطعت العجينة بالقالب. ونثرت حافات العجينة المتبقية فوق صحيفة. وبعد أن جفّت عجينة القربان فوق الطاولة وحافات العجينة على تلك الصحيفة وضعت عجينة القربان على شكل طبقات في الصينية ووضعت قطعة القماش البيضاء فوقها بحيث يكون مكان الكأس في المنتصف. بَدَت الصينيةُ الموضوعةُ على الطاولة مثل تابوت طفل. أما بقايا العجينة فجمعتها بيدها ووضعتها في علبة بسكويت.

حملت السيدة مارغيت الصينية المغطاة بالقماش الابيض إلى الكنيسة للأب لوقا. قبل أن تخرج بعجينة القربان إلى الشارع توجب عليها أن تبحث عن خمار رأسها الأسود. اني افكر، اللعنات تترى على الشيطان، أين هذه الخرقة؟ قالت السيدة مارغيت.

اعتاد الأب لوقا أن يدفع للسيدة مارغيت في كل أسبوع مالاً مقابل عجينة القربان وبين حين وآخر كنزةً سوداء، توقف عن ارتدائها. كما كان بين وقت وآخر يعطيها فستانا أو خمار رأس تخلّت طباخته عن استخدامه. هكذا كانت السيدة مارغيت تعيش بفضل تلك العطايا وما تحصل عليه من مال لتدفعه أُجرةً لغرفتها.

وضعت السيدة مارغيت علبة البسكويت على يسارها وحينما كانت تطالع الصحيفة التي تحصل عليها من السيدة غراو بيرغ أو تقرأ في كتاب الصلاة. كانت تأكل من محتويات العلبة دون النظر اليها.

وبعد أن تقضي السيدة مارغيت وقتاً طويلاً فى القراءة وتأكل من بقايا عجينة القربان كانت تصاب بعسر هضم شديد وإلى حد بالغ بحيث تبدأ بالتجشؤ اثناء تقشير البطاطا وعلاوة على ذلك باطلاق اللعنات. ومنذ أن تعرفت على السيدة مارغيت أصبح لكلمة «مقدس» عندي معنى خاصٌ يعني هسيساً جافاً في الفم يدفع إلى التجشؤ وإطلاق اللعنات.

كانت مارغيت قد اشترت مسيحها أثناء تأدية حج أغسطس حينما كانت تنتقل على عجل من الحافلة إلى الدرج الذي يؤدي إلى كنيسة الحج، من كيس مملوء بصلبان المسيح. وكان المسيح الذي قبّلته عبارة عن بقية مهملة لخروف صفيحي باعها عامل من المصنع أثناء صفقةٍ قرويةٍ في فترة ما بين نوبات العمل. وكانت

تلك هي الصفقة الشرعية الوحيدة للمسيح المعلّق على الجدار.

ومثل كل مسيح من ذلك الكيس صار هذا أيضاً بعد يوم الحج ثمن خمر فوق طاولة الخمارة.

كانت نافذة غرفة السيدة مارغيت تطل على الفناء الداخلي للبيت. كانت هناك ثلاث شجرات زيزفون كبيرة وتحتها حديقةٌ مهملة بحجم غرفة كبيرة، مملوءة بقطع أخشاب الزان يغطيها العشب العالي. وفي الطابق الأرضي للبيت كانت تسكن السيدة غراوبيرغ وحفيدها والسيد فايرآبند، رجل كبير السن ذو شارب أسود. اعتاد أن يجلس غالباً عند باب شقته يقرأ الكتاب المقدس. وحفيد السيدة غراوبيرغ يلعب على شجرة البقس والسيدة غراوبيرغ تصرخ كل ساعتين بالجملة نفسها في فضاء الفناء: تعال لتناول الطعام. وحفيدها يعيد الجملة نفسها دائماً عند الجواب: ماذا طبخت يا ترى. ترفع السيدة غراوبيرغ يدها وتريه عصا. وتصرخ مهددة: إذاً انتظر فحسب وليكن ذلك في معلومك. كانت السيدة غراوبيرغ قد انتقلت مع حفيدها من موندغاسة، وهو زقاق ضيق، إلى هنا. لم تستطع مواصلة العيش في البيت في مدينة المصنع لأن ام الحفيد قد ماتت اثناء عملية قيصرية. لم يكن للطفل أب ولم يَعُدْ سَكَنَة مدينة المصنع يحترمون السيدة غراوبيرغ، قالت السيدة مارغيت، ترتدي السيدة غراوبيرغ ملابس متناسقة دائماً حينما تذهب إلى المدينة.

اردفت السيدة مارغيت قائلة: اليهود إما اذكياء جداً أو أغبياء جدا. وليس لكون الإنسان ذكياً أو لكونه غبياً اي علاقة بالمعرفة، قالت مارغيت. بعض الناس يعرفون الكثير لكنهم ليسوا أذكياء على الاطلاق، وآخرون يعرفون القليل ولكنهم ليسوا أغبياء قطعا. ومسألة المعرفة أو الغباء متعلقة حصْراً بالرب. فالسيد فايرآبند

ذكي جداً بكل تأكيد لكن رائحته نتنة كالعرق. ليس لهذا اي علاقة بالرب.

كانت نافذة غرفتي تطل على الشارع. وكنت أضطر على المرور بغرفة السيدة مارغيت كلما أردتُ الدخول إلى غرفتي. ولم يكن لأحد الحق بزيارتي.

ولما كان كورت يزورني مرة في كل اسبوع فقد كان ذلك يُحدث تشنجَا عند السيدة مارغيت طوال أربعة أيام لم نكن تحييني خلالها ولم تحدثني بكلمة واحدة. وحينما كانت تعود إلى إلقاء التحية عليّ والتحدث معي كان ذلك يستغرق يومين حتى يأتي كورت مرة أخرى.

كانت أول جملة تقولها السيدة مارغيت بعد فترة التشنج هي دائماً: لا اريد عاهرة في البيت. كانت السيدة مارغيت تقول الشيء نفسه مثل النقيب بيله: اذا أراد رجل وامرأة أن يمنح أحدهما الآخر شيئاً فانهما يذهبان إلى الفراش. فإن كنتِ لا تذهبين إلى الفراش مع كورت هذا فإن المسألة لا تتعدى أن تكون ذهاباً - إيابا. فليس لديكما شيء تمنحانه ولستما مضطرين على أخذ شيء من بعضكما إذا توقفتما عن اللقاء. اختاري لنفسك شخصاً آخراً، قالت مارغيت: الاشخاص التافهون هم أصحاب الشعر الاحمر حصراً، وكورت هذا يبدو أنه شخص أحمق وليس مؤدبا شهما.

لم يكن كورت يحترم تيريزا، قال أنها ليست موضع ثقة وضرب بيده المكورة على حافة الطاولة. كان ابهامه ممزقا إثر سقوط قضيب حديدي على يده. لقد تعمد أحد العمال اسقاط قطعةَ الحديد على يدي، قال كورت: كان ذلك عمداً وقد نزف الجرح وسارعت إلى لعق الدم بلساني لكي لا يسيل إلى داخل كُمي.

كان كورت قد شرب نصف ما في كوبه وكنت قد كويت لساني وواصلت الانتظار. قال كورت: انتِ حساسة اكثر مما ينبغي، لقد تركوني مع جرحي وحيداً ووقفوا جنب الخندق ينظرون اليّ وانا أنزف. كانت لهم عيون مثل اللصوص. كنت خائفاً، لقد توقفوا عن التفكير. يرون دماً فيقبلون ويمصون دمي كله وبعد ذلك يقال أن لا أحد كان السبب. انهم يلزمون الصمت كالتراب الذي يقفون فوقه. لذا سارعت إلى لعق الدم بسرعة وبلعته وبلعت. ولم اجرؤ على البصق وتملكني الغيظ وصرخت بأنهم جميعاً يجب أن يحاكموا أمام القضاء وأنهم قد نأوا بانفسهم عن سائر البشر منذ زمن بعيد وأنا اقف فَزِعاً امامهم لأنهم مصّاصو دماء. وان قريتهم بكاملها ليست سوى فتحة شرج بقرة يتسللون اليها ليلاً ويخرجون منها صباحا لكي يمصوا الدماء. وأنهم يغرون أطفالهم بذيول الخنازير المجففة للمجيء إلى المذبح ويضللونهم بقبلات لها مذاق الدم. فلتسقط السماء على جماجمهم وتقتلهم. أداروا وجوههم العطشى بعيداً عني. بقوا صامتين كقطيع مقيّد بأغلال هذا الذنب المقرف. ذهبت إلى القاعات بحثاً عن شاش لأربط به جُرحَ ابهامي. لم يكن هناك شيء في صندوق الاسعافات الاولية سوى نظارات قديمة وسجائر وعلبة كبريت ورباط عنق وعثرت على منديل في جيب جاكتتي، لففته حول إبهامي واحكمت شَدّه برباط العنق.

قال كورت: ثم جاء القطيع إلى القاعة، واحدٌ تلو الآخر كما لو أنهم بدون أقدام ويحملقون بعيونهم الغليظة. قال: هزوا رؤوسهم، وفي اليوم التالي نسوا صُراخي. أعادهم الطبع مرة أخرى إلى ما جُبِلوا عليه.

حينما سكت كورت، صدرت خشخشة من خلف الباب. نظر

كورت إلى يده الملفوفة واسترق السمع. قلت، أن السيدة مارغيت تأكل بقايا خبز القربان. لا يمكن الثقة بها، فقال: إنها تتجسّس اثناء غيابك. أومأتُ برأسي، أن رسائل إدغار وغيورغ في المصنع، قلت، مع الكتب. ولم أقل أن الكتب عند تيريزا. بدت يد كورت الملفوفة مثل كتلة من عجين خبز القرابين.

تفرش الأم فطيرة الفواكه فوق الطاولة. أصابعها خفيفة الحركة. فهي تُمسك وتسحب مثل من يعدّ الأوراق المالية. العجينة تصبح مثل قطعة قماش مفروشة على الطاولة. تشع بارقة نور خافته عبر العجينة: صورة الأب والجد، كلاهما في العمر نفسه، صورة الأُم والجدة المصلّية، الأم أصغر عمراً بكثير.

تقول الجدة المغنية: هنا في الاسفل يقيم الحلاق، ولكن كانت معنا أيضاً في وقت ما بنت صغيرة في البيت. تشير الام اليّ وتقول: ها هي تقف هنا، لقد كبُرت قليلاً.

جلستُ هناك متعبةً، كنت أشعر بحرقة في عينيَّ. أمالَ كورت رأسَه نحو يده التي لم تكن معصوبة. كان يضغط بيده على فمه حتى يعوج. وبدا لي أن كورت يمسك كامل ثقل جسمه حتى قدميه عند زاوية فمه.

نظرت إلى الصورة المعلقة على الجدار: امرأة تنظر باستمرار من النافذة باتجاه الخارج. كانت تلبس رداءً فضفاضا يصل إلى الركبتين وتحمل مظلّة. وجهها مخضر وكذلك ساقاها مخضرتان كما يبدو على إنسان ميتٍ للتو.

حينما أتى كورت لزيارتي لأول مرة في هذه الغرفة ورأى الصورة، قلت: بشرة هذه السيدة في الصورة تذكرني بشحمتيّ أُذني لولا، كانتا مخضرتين، حينما أخرجوها من الدولاب.

استطعت في الصيف أن أتجاهل صورة السيدة الميتة لتوها. اذ كانت العرائش المتزاحمة أمام النافذة تلوّن الضوء في الغرفة وتُضعف لون الموت الحديث. وحينما صارت الأشجار عارية لم استطع تحمّل صورة السيدة الميتة حديثاً. لكنني لم اسمح ليديَّ أن تُنزلا الصورة من الحائط لأنني كنت مدينة للولا بذلك اللون.

قال كورت: سأقوم الآن بانزال الصورة من الحائط. كلا، قلت له: هذه ليست لولا. أنا سعيد لأن الصورة ليست مسيحا. عضضت شفتيَّ برفق. نظر كورت إلى الصورة. استرقنا السمع. خلف الباب كانت السيدة مارغيت تتكلم مع نفسها بصوت عال.. سأل كورت: ماذا تقول. هززت كتفي. أمّا تصلّى أو تلعن.

قال كورت: لقد شربت دما مثل الدم في المذبح، نظر عبر النافذة إلى الشارع: أنا الآن شريك في الجريمة.

على الرصيف الآخر كلبٌ يمر. قال كورت: سيأتي الرجل ذو القبعة حالاً، وهو يلاحقني حينما أتواجد في طريقه. أتى ولكنه لم يكن الشخص الذي كان يلاحقني. قلت: لربما أعرف الكلب، لكن لا نستطيع أن نرى ذلك من هنا.

أردت أن يريني كورت جرحه. فقال: أنتِ هل من شفقة يتضمنها شاي البابونج الذي لديك؟ فقلت نعم يا جَبَان القَرية السفابي.

دهشنا كلانا إذْ اكتشفنا قدرتنا على ابتكار الكلمات الساخرة المتهكمة. لكن هذه الكلمات كانت خالية من الكراهية ولم تكن جارحة. كانت كلها شفقة يغمز بها الفم. كانت تلك نوعاً من السعادة المحرجة التي تريح العقل، بدلاً من الغضب. كان علينا أن نطرح الاسئلة على بعضنا دون أن ننبس بكلمة، وكنا نتمتع

بقدرة وحيوية كافية لتجنب أي تجريح.

دخلنا أنا وكورت الغرفة ضاحكين كما لو كنا نريد أن نقيّد بعضنا، وقبل أن ترتجف وجوهنا على حين غرة كما شاءت، وقبل أن ينشغل كل منا بالسيطرة على زوايا فمه. نظر كل منا إلى فم الآخر. عرفنا اننا سنبقى في اللحظة التالية وحيدين أمام الشفاه المستسلمة وهي على وشك الارتجاف.

ثمّ حلّت هذه اللحظة. حبست نَفَسي في داخل دقات قلبي واصبحت بعيدة عن المنال امام كورت. لم تكن هناك كلمة متهكمة لوصف برودتي، لقد عجزت عن ابتكار اي كلمة.. مرت قبعة من تحت النافذة.

قلت: أظن انك تود أن تكون شريكاً في الجريمة، لكنك مجرد متبجح. انك تمص ابهامك وهم يشربون دم الخنازير. ثم ماذا، قال كورت.

بعد كلمة التخاطب كانت علامة تعجب. بحثت عن الشعرة في داخل الرسالة المطوية ثم في داخل الظرف. لم يكن هناك شيء. ولم انتبه إلاّ في لحظة الهول الثانية إلى أن الرسالة كانت من أُمي.

وبعد أخبار الآم ظهر الأُم جاء فيها: الجدة لا تستطيع النوم في الليل. تنام في النهار فحسب، لأنها تخلط بين الوقتين. والجَدُّ لا يستطيع أن يخلُدَ للراحة فهي لا تترك له فرصة ليغمض عيناً. ولا هو بقادر على النوم في النهار. لا تطفىء النور في الليل وتفتح النافذة. يطفى النور ويغلق الشباك ويتمدد من جديد، وهكذا تستمر الاحوال حتى يبدو الضوء الاول. النافذة مكسورة. تقول انها بسبب الريح، ومن يصدق ذلك. تخرج من الغرفة

وتعود اليها فوراً، تترك الباب مفتوحا. وحينما يتركها الجد لتفعل ما تشاء دون أن يتحرك تأتي اليه إلى الفراش. تمسك بيديه وتقول: لا ينبغي أن تنام، لأن حيوان قلبك ليس في البيت بعد.

الجد انهكه الارق، كما هو متوقع في سنّه ولا يمكنه أن يطيق ذلك. وأنا أحلم مثل مجنونة. في الحديقة أقطف عرف ديك احمر وهو بحجم مكنسة. لا ينكسر الغصن، اسحبه وأمزّق. تتدفق العصارة إلى الخارج مثل ملح أسود. انظر إلى الأرض فأرى نملاً زاحفاً يقول الناس، أن النمل في الحلم يعني مسبحة.

في الصيف خرجت الجدّةُ المغنية من البيت وهامت على وجهها. وفي الشوارع كانت تصيح أمام كل بيت. كان صوتها عالياً ولكن لا أحد كان يفهم ما تقول. إذْ كانت تترك الفناء اذا ما خرج أحد من البيت.. قامت الأم بالبحث عنها في القرية ولم تجدها. وحين مَرِض الجد اضطرت الأم إلى العودة إلى البيت.

عادت الجدة المغنية في مساء مظلم إلى الغرفة سألتها الام: اين كنتِ؟ فقالت الجدة المغنية: في البيت. كنتِ في القرية إذا! قالت الام. ولكن البيت هنا قالتها دفعة بالجدة إلى الجلوس على الكرسي. عمن تبحثين في القرية؟ الجدة المغنية: أُمي. هذه انا، لإنك لم تمشطي لي أبداً حتى اليوم.

نسيت الجدة حياتها بكاملها. إرتَدّت إلى أيام طفولتها. كانت خدودها في الثامنة والثمانين من عمرها، لكن لذاكرتها دربٌ واحد تقف عليه بنتٌ في الثالثة من عمرها تلتصق برداء امها. حينما عادت الجدة من القرية كانت قذرة متسخة الثياب مثل طفل. وكانت تدس بكل شيء في فمها، منذ أن توقفت عن الغناء. انقلب غناؤها إلى المشي. لم يقدر أحد على منعها، كانت في جزع بالغ.

وحينما مات الجد لم تكن الجدة في البيت. حين حل وقت الدفن قام الحلّاق في الغرفة برعايتها. كانت ستشوّش على مراسيم الدفن، قالت الام.

وبما اني لم أستطع الحضور، فضلت أن العب الشطرنج، حينما ينزل التابوت في القبر، قال الحلاق. لكن الجدة ارادت الهرب ولم يفد معها الكلام إلا إني قمت بتمشيط شعرها. فانساب المشط في شعرها، ثمَّ جلست وبدأت تطبخ، بينما كانت الاجراس تقرع.

وحين أُنزل جثمان الجد إلى القبر كانت قد تفتحت ازهار تيجان القيصر على قبر الأب.

عثرتُ على وصف لماكنةٍ هيدروليكية وهو (لا متناه). لا وجود للكلمة في القاموس. أحسست أن كلمة (لا متناه) تحمل من معنى للبشر وليس للمكائن. سألت المهندسين والعمال. حملوا خِرافا صفيحية صغيرة وكبيرة في أيديهم ولووا أفواهِهم.

ثم جاءت تيريزا، شاهدت شعرها الاحمر من بعيد.

سالتُ: لا متناه.

قالت: نهائي.

قلتُ: لا متناه.

سألتْ: كيف لي أن أعرف الفرق؟

تلبس تيريزا أربعة خواتم، خاتمان منهما لهما أحجار حمراء كما لو كانا سقطا من شعرها. وضعتْ صحيفةً فوق الطاولة وقالتْ: لا متناه، لعل المعنى سيخطر ببالي أثناء تناول الطعام، فلدي اليوم ديك رومي.

غَلّفتُ انا الشحمَ الأبيضَ المصفر والخبز. قَطّعتهُ تيريزا إلى مكعباتٍ وصَنَعَتْ جنديين صغيرين. أكلنا، فقبضتْ وجهها وقالت: طعمهما زنخٌ، سأعطيهما للكلب.

سألتُ: لأي كلب.

أَخْرجتْ بعضَ الطماطم وفخذَ ديك رومي. قالت لي: كُلْي من هنا، وصَنَعَتْ لي جنديين صغيرين. نَزَعتْ اللحمَ كُلَّه من العظام، مَضَغَتْ وبَلَعتْ قبلي.

دسَّت لي تيريزا جندياً صغيراً في فمي وقالت: فيما يخص كلمة «لا متناه» عليكِ أن تسألي الخياطة.

دَفَعَ سوءُ الظن بكل شيءٍ إلى الانحدار بكل ما كنت أحاول تقريبه مني. تطلعت في كل قَبْضة يدي وأصابعي، عرفت حقيقة يدي أنا ولكن ليس أفضل من معرفتي لأصابع أمي أو أصابع تيريزا. لم أكن أعرف الاّ القليل عن ذلك وكذلك عن الدكتاتور وأمراضه أو عن الحراس والمارة أو عن النقيب بيله والكلب بيله. وكذلك لم أعد أعرف أي شيء عن الخراف الصفيحية والعمال أو الخياطة والصبر اثناء قراءة أوراق اللعب. وبنفس القدر القليل عن الهروب من البلد والحظ.

وفي المصنع في أعلى سقف القاعة ومن أعلى نقطة تقابل السماء وأدنى نقطة تشرف على الفناء ثمة شعار يتدلى: يا عمال العالم اتحدوا.

وفي الأسفل فوق الأرض كانت تمشي أحذية لا يُسمح لها بمغادرة البلد الاّ بالهروب. وعلى بلاط الشارع كانت تعلو وتنخفض تلك الأحذية الزلقة، المتربة، المدوّية أو الخافتة. كنت أحس بأن لتلك الأحذية طرقا أخرى وانها في يوم ما، شأنها في

ذلك شأن الكثير من الأحذية، لن تسير تحت ذلك الشعار.

أحذيةُ باول لم تعدْ تسير هنا. انه لم يحضر إلى العمل منذ أول أمس. وبسبب اختفائه أصبح سره موضع القيل والقال. الكل أقرّوا بموته ورأوا في محاولة الهروب الفاشلة رغبة طبيعية تخطف هذا أو ذاك. لم يتخلوا عن هذه الرغبة. وحينما كانوا يقولون، لن يعود مرة أخرى أبدا، كانوا يعنون ?باول أنفُسهم أيضاً. كان ذلك يُشبه ما قالته السيدة مارغيت: لا ينتظرني أحد بَعْدُ في مدينة بيست. ولكن لربما كان هناك في بيست أحدٌ في انتظارها.

لم يكن هنا في المصنع أحدٌ في انتظار باول، ولا لساعة واحدة. كان سيء الحظ، قالوا، بعد أن انقطع عن المجيء إلى العمل كغيره من قبله. كانوا يقفون في طابور، كما اعتادوا أمام المتجر، فإن خطف الموتُ احداً منهم تحرك الطابور وأخذ آخر محله. ما الذي يعرفه هذا الضباب شبيه أبخرة تتصاعد من قدر حليب يغلي، ما الذي يعرفه عن كل هذا؟، أو ما الذي تعرفه دوائر الهواء وإلتواءُ السكك الحديد ؟ إنّه موت رخيص مثل ثقب في جيب، يمد المرء يده في جيب مثقوب فيرتجف الجسم كله. وهكذا أخذ هذا الجنون منهم كل مأخذ وزادَ كلما كَثُر عدد الاموات.

كان الناس يتهامسون حول ضحايا الهروب باسلوب يختلف عن همسهم حول أمراض الدكتاتور. إذ ظهر الدكتاتور في اليوم نفسه في التلفاز وخفف من فكرة قرب الموت عَبْر إلقاءِ أطول خطاب له. وبينما كان يخطب عثر الناس على مرض جديد له يقرّبه من الموت.

وفي المصنع بقيَ مكانُ موت باول مجهولاً. ماذا يا ترى كان اخر ما شاهده باول من الدنيا قبل ان يموت؟ الذرة، السماء،

الماء ام قطار حمولة.

كتب غيورغ: الاطفال لا يقولون جملة لا تتضمن: يجب ان. يجب عليّ أن، يجب عليك أن، يجب علينا أن. حتى انهم حين يفتخرون يقولون: كان من واجب أمي شراء أحذيةٍ جديدةٍ لي، وهذا صحيح. حالتي مشابهة لذلك أيضاً: أنا مجبرة أن اسأل نفسي كل ليلة أن كان الصباح سيحل.

كان نصيبي من شَعر غيورغ عديما. عثرت فوق السجادة على شَعرٍ لي وللسيدة مارغيت. قمت بِعَدّ الشَعر الرمادي وعرفت فيما بعد كم مرة جاءت السيدة مارغيت إلى غرفتي. ولم أعثر على أي شعرة من شَعر كورت رغم أنه كان يأتي مرة في الاسبوع. لم يكن لدي اعتماداً على الشَعر ومع ذلك فقد كنت أعدّه.. ومن أمام النافذة مرت قبعة. اسرعت إلى النافذة وانحنيت نحو الخارج.

كان المار هو السيد فايرآبند.. كان يحتسى الخمر باستمتاع وتلذّذ وسحب منديلاً أبيض من جيبه. تراجعتُ من النافذة إلى الغرفة كما لو اني خشيت أن يُحسَّ المنديلُ الأبيض بأن واحدة مثلي تتابع يهودياً بنظراتها.

للسيد فايرآبند من يهتم به وحسب، قالت السيدة مارغيت.

كنت قد رويت له، حينما كان جالساً في الشمس من دون الكتاب المقدس، بأن أبي كان جندياً في فرق إس إس وانه قد قطّع كل أزهاره الغبية وأنها كانت من فصيلة النباتات الشائكة وان والدي كان حتى يوم مماته يُنشد الاغاني لهتلر.

أزهرت أشجار الزيزفون في فناء البيت. نظر السيد فايَرْآبند إلى مقدمة أحذيته المدببة، انتصب واقفاً ونظر باتجاه الأشجار.

حينما تزهر يبدأ الإنسان بالتأمل، قال. لكل النباتات الشوكية حليب، لقد أكلت الكثير منها، اكثر من شاي أزهار الزيزفون.

فتحت السيدة غراوبيرغ الباب. كان الحفيد يرتدي بنطلونا قصيراً أبيض في الشارع. ادار رأسه مرة أخرى نحوها أمام البوابة الكبيرة ثم نحونا كلينا وقال: مع السلامةْ. وقلتُ: مع السلامةْ.

حينما ركّزنا اهتمامنا، السيدة غراوبيرغ والسيد فايَرْآبند وأنا، على البنطلون القصير الابيض أكثر من الطفل نفسه صُفِقت بابُ السيدة غراوبيرغ بقوة. قال السيد فايَرْابِنْد: أنتِ تسمعين ذلك حقا، الأطفال يلقون التحية كما اعتاد الناس آنذاك أيام هتلر. والسيد فايرآبند أيضاً استرق السمع لتلك الكلمات. إذ كانت كلمة مع السلامةْ (تشاو) بالنسبة له هي المقطع الاول من تشاوتشيسكو.

قال: السيدة غراوبيرغ يهودية، لكنها تقول أنها المانية. وأَنتم تخافون لذا تردّون التحية لها.

لم يجلس بعد ذلك. أمسَكَ بأكرةِ البابِ فانفَتَحَتْ. مدّت قطة رأسها الأبيض من الغرفة الباردة إلى الخارج. أخذها إلى ذراعه. شاهدتُ طاولةً عليها قبعته. الساعة كانت تتك. القطة أرادت القفز إلى الأرض. قال: إيلزه، لندخل إلى البيت. وقبل أن يغلق الباب، قال: أجَلْ، الأمر يتعلق بالنباتات الشوكية.

كنت أروي لتيريزا عن ماهية التحقيق. وبدون أي سبب كما لو كنت أُحدّث نفسي بصوت عال، بدأت الكلام. أمسكتْ تيريزا بقوة بعِقْدِها الذهبي ولم تتحرك لكي لا تمحُو الدقة الغامضة.

جاكتة، بلوزة، بنطلون، جوارب بنطلون، بنطلون صغير، زوج أحذية،

زوج أقراط، ساعة يدوية. كنتُ عاريةً تماما، قلت.

دفتر عناوين، قلم جاف، منديل، كحل رموش، أحمر شفاه، بودرة، مشط، مفاتيح، طوابع بريدية، تذاكر ترام، حقيبة يد.

كان كل شيءٍ مدوّناً في قوائم على ورقة.

أما أنا فلم يقم النقيب بيله بتسجيلي. سيلقي بي في السجن ولن يكون أي شيء مسجلاً في قائمة بان لي جبهة، عيون، آذان، أنف، شفاه، رقبة، حينما أتيت إلى هنا. وعلمت من إدغار وكورت وغيورغ، بأن في القبو مجموعةُ زنزانات. أردت أن أُعِدَّ في رأسي قائمة جسدي مقابل قائمته. وصلت فقط إلى رقبتي. سيلاحظ النقيب بيله غياب الشَعرِ عندي، وسيسأل أين الشَعر.

ينتابني الفزع لأن تيريزا اضطرت إلى السؤال عما كنت أعنيه بالشَعر. لكنني لم أستطع حذف شيء. فحينما يَلزم الإنسان الصمت طويلاً، كما أفعل أنا أمام تيريزا، فإنه سيدلي فيما بعد بكل شيء. لم تسأل تيريزا عن الشَعر.

وقفت وأنا عارية تماماً في ركن الغرفة، قلت. وأُجبرت على إنشاد الأُغنية. فانسابَتْ كالماء، لم يَعُدْ ذلك يزعجني، وفجأة ارتفعت معنوياتي واشتد بأسي.

تيريزا: أية أغنية؟ حدثتها عن الكتب التي اخذناها من البيت الصيفي وعن إدغار وكورت وغيورغ. وأننا كنا نعرف بعضنا منذ موت لولا. لذا فقد قلنا للنقيب بيله أن الأغنية عبارة عن أُغنية شعبية.

إلبسي، قال النقيب بيله.

خُيّل لي بأني ألبس ما تم تدوينه على الورقة وأن الورقة

ستفرغ حينما أستكمل إرتداء كلّ ملابسي. أخذت ساعتي من على الطاولة، ثم الأقراط. وأغلقت سير الساعة. كما عثرت على الثقوب في أذني بدون مرآة. النقيب بيله كان يتحرك ذهاباً وجيئة أمام النافذة. لم ينظر اليّ. كان ينظر إلى الشارع. لا بد أنه كان باستطاعته أن يتصورني بشكل أفضل في السماء بين الأشجار، كيف أبدو حين أموت.

وبينما كنت ارتدي ملابسي وضع النقيب بيله دفتر عناويني في درجه. حتى عنوانكِ حالياً عنده، قلتُ لتيريزا.

إنحنيت لشد أحذيتي حينما قال النقيب بيله: هناك شيء مؤكد، أن من يرتدي ملا بس متناسقة مرة لا يمكن أن يصعد إلى السماء متسخا.

أخذ النقيب بيله ورقة البرسيم رباعية الوريقات من على الطاولة. لمسها بحذر. هل تصدقين الآن بأنك محظوظة معي؟ سأل. فقلتُ سئمت من موضوع الحظ. ابتسم النقيب بيله: ليس للحظ علاقة بالأمر.

لم أقل شيئاً عن الكلب بيله لتيريزا لأن أباها خطر ببالي، كما لم اخبر تيريزا بأن النهار كان ما يزال مشمساً بعد انتهاء التحقيق وخروجي إلى الشارع وسَكتُّ عن ذلك الامر. وانني لم أفهم ما الذي جعل الناس يترنحون ويلوحون بأيديهم في سيرهم بينما يمكن لهم أن يكونوا في السماء بلمح البصر، وان الاشجار أمالت ظلالها على البيوت وان الناس تسمي هذا الوقت بالصدفة مساءاً مبكرا. وان الجدة المغنية كانت تغني في رأسي.

هل تعلم كم غيمة تسير

الى اماكن بعيدة فى العالم كله

لقد قام الرَّب الاله بِعَدِّها
دون أن ينسى إحداها

وأن السحب في السماء كانت معلقة مثل اثواب ناصعة فوق المدينة وان عجلات الترام كانت تحدث ضَجَّةً والعربات تنقاد بسهولة متجهة إلى الطريق ذاته مثلي. وأن الركاب سرعان ما اتجهوا إلى نوافذ الترام بعد صعودهم كما لو انهم كانوا في بيوتهم.

تخلت تيريزا عن قلادتها الذهبية. سَأَلَتْ: ماذا يريد هذا منكم؟

فقلتُ: الخوف.

قالت تيريزا: هذه القلادة الذهبية للطفل. أتت الخياطة إذ كانت في زيارة لهنغاريا لغرض السياحة، اربعون شخصاً في حافلة. المشرف على الرحلة يسافر في كل اسبوع. ولديه اماكنه التي يتبضعُ فيها ولا يضطر إلى المساومة على الاسعار في الشارع.

إن لم يكن المرء يعرف دروب المدينة التي يحلُّ فيها فإنه سيحتاج إلى اليومين الاولين لغرض البيع والى يوم للشراء. كانت عند الخياطة حقيبتان مملوءتان بالبنطلونات الرباعية، انها ليست ثقيلة، لا يحتاج المرء معها إلى السير منحنياً وبخطًى متثاقلة. ويمكن أن يرمي بها بعيداً، متى شاء كونها رخيصة الثمن. مردودها بسيط وليس بكثير. وعلى المرء أن تَكون لديه حقيبة من قطع الكرستال. الزجاجيات غالية الثمن. تدخل الشرطة باستمرار إلى الشارع. وأفضل مكان لتلك التجارة هي صالونات الحلاقة حيث لا تحضر الشرطة. لدى السيدات القابعات تحت أغطية

التجفيف عملة من فئات صغيرة دائماً وليس لهن عمل آخر، حتى يجف شعرهن. يمر بهن المرء وهو يحمل ملءَ يدٍ من البنطلونات وملء يدٍ من الزجاجيات. فهن يشترين شيئاً دائما. كانت الخياطة تملك مالاً كثيرا. وفي اليوم الأخير ينصرف المرء للشراء. وأفضل شيء للشراء هو الذهب. يَسهُل إخفاؤه ومن ثم بيعه في بلده بربح مُجز.

قالت تيريزا: النساء أفضل من الرجال في المساومة على تحديد الاسعار، ثلثا الركاب كن من النساء في الحافلة. كان لكل منهن أثناء رحلة العودة كيسٌ من البلاستيك وذهبٌ في القوقعة. رجال الجمارك كانوا يعلمون بذلك ولكن ماذا عساهم أن يعملوا.

وضعت القلادة لليلة واحدة في صحن مملوء بالماء، قالت تيريزا. أضفتُ إلى ذلك الكثير من مسحوق الغسيل. لست مَنْ يشتري ذهباً من قوقعة شخص غريب. تيريزا اطلقت اللعنات وضحكت. يخيل لي أن القلادة ما زالت تفوح برائحة نتنة لذا فسأغسلها مرة اخرى. لقد أضفت اليها ورقة برسيم. جلبت الخياطة قلبين فقط لأطفالها. لكنها ستسافر مرة أخرى في الخريف قبل حلول البرد.

قلت: يمكنك السفر بنفسك.

انني لا أجر حقائب خلفي ولا ادس بالذهب في فرجي، قالت تيريزا. كانت رحلة العودة في الليل. تعرفت الخياطة على موظف جمارك. وقد اخبرها بموعد الليالي التي سيكون فيها متواجداً في عمله. الخياطة تدبّر أمورها دائما.

وبعد المرور بدائرة الجمارك تلاشى الخوف. استسلمن كلهن للنوم وذهبهن بين سيقانهن، عدا الخياطة فلم تستطع النوم، كانت

القوقعة تؤلمها فاضطُرت على الذهاب إلى الحمام. قال سائق الحافلة: إنه لعذابٌ كبير هذا السفرُ مع النساء لأنهن يردن التبول بسبب أو بغير سبب.

في اليوم التالي جلس أطفال الخياطة حول المائدة وكانت القلوب معلّقة على صدورهم.

العقود ليست للأطفال، قالت الخياطة. لا يسمح لهم بلبس الحلي في الشارع. فقد اشتريتها لوقت لاحق، حينما يكبرون لن ينسوني. كانت الزبونة صاحبة بقع المنى في سقف غرفتها، في زيارة مع صديقها لهنغاريا. كانت حتى في طريق الذهاب قد غازلت ضابط الجمارك لأسباب تجارية، قالت الخياطة. أفهمها صديقها فيما بعد أنه يريد غرفة خاصة به في الفندق. لم تتوفر غرفة لأن اسمه كان مدرجاً معها. فانتقل إلى غرفتي. وحدث ما كان يجب أن يحدث، نمت معه. كنت قلقة على سقف غرفة الفندق. أن خادمات التنظيف يراقبن ويدققن كل شيء قبل أن يترك النزيل الفندق. الزبونة لا تعلم بما جرى. وفي اثناء رحلة العودة جلس الصديق بجانبها. كان يمسح شَعرها وينظر اليّ في الخلف. لا أريد أن يطرق الباب عليَّ في يوم ما، اذ لا أرغب في فقدان زبونة، ولأني أعرفها منذ زمن طويل. وحينما نزلنا من الحافلة أمام دائرة الجمارك، مسك ذراعي. ولكي اتخلص منه شرعت بالمغازلة مع ضابط الجمرك، لكن لأسباب تجارية أيضاً. وحينما اسافر في الخريف مرة أخرى أستطيع أن أجلب معي خلّاط مطبخ، فمن السهل بيعه بربح جيد.

طلبت مني الخياطة ألاّ أروى حكاية ما جرى في الفندق لتيريزا. أمسكت بخدها وقالت: تيريزا لن تلبس العقد أبداً فهي على كل حال القائلة أن العقد طفل.

قالت الخياطة: هكذا تسير الأمور، حينما يُفاصِلُ المرء طوال اليوم ولا ينجز شيئاً. يشعر الإنسان بأنه بائس ويريد أن يعرف أن كانت له قيمة. لن انام معه وانا هنا في البيت. ولكنني استمتعت بذلك طوال اليوم. وهو أيضا.

جاءت زبونتي اليّ أمس، قالت الخياطة، فصار عليَّ أن اقرأ لها حظها من أوراق اللعب. حينما تنظر اليَّ يكاد قلبي يتوقف عن الخفقان وتَمْتَنِعُ الأوراق عن كشف أي شيء. فشلتُ في كشف الحظ بالورق، لذا لم آخذ أيَّ نقودِ من الزبونة، الحّت عليَّ قالت الخياطة: أن هناك أشياء لا يمكن أن يراها الإنسان على الفور، فهي تُقبل كالدخان وتتسلل إلى البيت. عليكِ أن تنتظري بضعة ايام، قلت لزبونتي. ولكن عليّ أنا الانتظار. بدت لي الخياطة إنسانة حكيمة، رزينة وهادئة.

كانت الطفلتان تركضان في الغرفة مع قلبيهن الذهبيين وشعرهما يتطاير في الهواء. تخيلتهما كلبين صغيرين سيتيهان في الأرض حينما يكبران وفي رقبتيهما جريسات خرساء.

كان لدى الخياطة عِقدٌ آخر معروض للبيع. لم اشتره. اشتريت كيس سيلوفين مقلّمٌ بخطوط حمراء وبيضاء وخضراء. وكان يحتوي على قطع حلوى هنغارية.

أهديت الكيس للسيدة مارغيت، فكرت أنها ستفرح بذلك. كما فكرت أيضاً أن كورت قادمٌ في اليوم التالي. اردت أن اسوى موضوع غضبها قبل مجيئه.

قرأت السيدة مارغيت كل كلمة على الكيس وقالت: أيها الرب الجميل المحبب. اغرورقت عيناها بالدموع. سادت الفرحة، لكنها فرحة اصابتها بالفزع. وذكرتها بحياتها الضائعة

وبأن وقت العودة الى مدينة بيست كان قد فات منذ امد بعيد. كانت السيدة مارغيت تعدُّ حياتها عقاباً تستحقه. كان مسيحها يعرف السبب لكنه لم يبح به. لذا كانت تتعذب وتحب مسيحها لذلك السبب بالذات اكثر واكثر يوما بعد يوم.

ظل الكيس الهنغاري جنب سرير السيدة مارغيت. لم تفتحه أبدا. كانت تقرأ الخط المألوف لها على الكيس مرة بعد مرة كما لو أن حياةً فاتتها. لم تأكل قطع الحلوى أبدا. لأن الحلوى كانت ستختفي في فمها.

منذ سنتين ونصف والام تتوشّح بالسواد. كانت ما تزال حزينة على الأب وكذا على الجد. نزلت إلى المدينة واشترت مِعْزَقَةً صغيرة، من أجل المقبرة ونباتات البنجر الكثيفة، قالت. المعازق الكبيرة تؤدي إلى إتلاف النباتات بسهولة.

بدا لي تصرفها طائشاً حينما استخدمت المعزقة ذاتها للخضروات والقبور. تقول: أن الأعشاب البرية تنضج مبكراً في هذه السنة والبذور بدأت تطير في الهواء. الأشواك بدأت تطغى.

ملابس الحزن تجعلها تبدو عجوزا. كانت تجلس جنبي في الشمس مثل امرأة ظل. المعزقة مُسندةً إلى المصطبة. قالت: القطارات تمر كل يوم وانت لا تعودين إلى البيت. قامت بلف شحم وخبز وسكين. قالت: لست جائعة، هذا الطعام للمعدة فقط. قطّعت الشحم والخبز إلى مكعبات. الجدة تبقى حتى أثناء الليل في الحقل، مثل القطط البرية. كنا نعرف امرأة مرة كانت تجوب الصيف كله وفي شهر نوفمبر مع نزول أول الثلج تعود إلى البيت. لم تكن الام تمضغ كثيراً، بل كانت تبلع سريعا. كل ما ينمو يصلح للأكل وإلاّ كانت الجدة في عداد الاموات الآن. لم أعد أذهب مساءً للبحث عنها. هناك طرق كثيرة، يصيبني فزعٌ

هائلٌ حينما أمشي في الحقل ولكني حين أكون وحيدة في البيت الكبير يُلاحقني الفزع أيضا. صحيح أن من غير الممكن التحدث اليها، لكن لو جاءت مساءً لصارت في البيت قدمان اضافيتان. وفي اثناء تناولها الطعام لم تعذْ الام تترك السكين من يدها رغم أن كل شيء كان مقطّعاً وجاهزاً للفم. كانت تحتاج للسكين للتكلم. وحين أرى كيف يغيب الخشخاش، والذرة تبقى صغيرة، والبرقوق كيف تجعّد منذ حين. حينما كنت اقضي اليوم كله في المدينة وحين اخلع ملابسي مساءً أجد بقعاً سوداء على جسمي. اضرب عظامي كلها. أهيم هكذا على وجهي وبدلاً من أن أعمل أجد العوائق امامي. وفوق هذا كله فإن المدينة اكبر من القرية.

تحت شجرة التوت ينتصب الكرسي المتداعي. تحت المقعد كانت ضفيرة عشبٍ جاف مُعلّقة. وعبر السياج كانت تتطلع أزهار عباد الشمس، لم تكن لها تيجان ولا بذور سوداء. كانت مملوءة بالشرابات. كان والدي قد حسّنها بالتطعيم، قالت تيريزا. وفي الشرفة الزجاجية كانت ثلاثة قرون متشعبة معلّقة.

لا استطيع تناول حساء القرنبيط، قالت تيريزا. أن المطبخ كله نتن الرائحة. حَمَلَت الجدة الصحن إلى الطباخ واعادت حساء تيريزا إلى القدر. قرقعت الملعقة وكأنّ في داخل الحساء صحوناً خزفية.

تناولت كل ما في صحني. أظن أن الحساء كان جيداً. ولو اني فكرت بالطعام اثناء تناول الحساء لصار للحساء طعماً لذيذاً عندي. ولكني لم اكن أشعر براحة حينما تناولت الطعام هنا.

كانت جدة تيريزا قد وضعت الصحن أمامي وقالت: كلي فستأكل تيريزا أيضاً. فأنتِ لست صلفة مثلها. كل شيء يفوح برائحة نتنة بالنسبة إلى تيريزا. القرنبيط نتن، البازلاء والفاصوليا

نتنة واكباد الدجاج ولحوم الغنم والأرانب كلها نتنة. ولذا أقول لها غالبا، شرجكِ نتن. ولا يسرُ ولدي سماعُ ذلك. ينبغي الاّ اقول ذلك أمام الناس.

لم تقم تيريزا بتقديمي إلى العائلة. الجدة لم تتذكر اسمي، ناولتني الحساء لأن لي فماً بارزاً في وجهي. كان والد تيريزا يقف وظهره إلى المائدة يتناول الحساء واقفاً من القدر مباشرة. كان يعرف على ما يبدو من أكون، لذا لم يلتفت حينما جئت. نظر إلى تيريزا من فوق كتفه: لقد اطلقتُ اللعنات مرة اخرى، قال. لم يرغب المدير في تكرار لعنتك، اذ كانت مبتذلة في رأيه. أترين أن لعناتك غير نتنة.

حينما أرى المصنع، أستطيع أن اطلق اللعنات دائماً. مدت يدها إلى صحن مملوء بالتوت الشوكي فاصطبغت اصابعها باللون الاحمر. كان والدها يحتسي الخمر. انت توجهين لي نقداً لاذعاً في كل يوم.

كانت تيريزا قد ورثت منه السيقان المقوسة والعجز المسطح والعيون الصغيرة. كان طويل القامة ونحيفاً جدا، رأسه نصف اصلع. حينما يزور تماثيله، فكرت، تكاد الحمائم تحط على اكتافه بدلاً من الحديد. وبسبب احتساء الخمر غارت خدوده وبرزت عظام صدغيه تحت عينيه.

هل كان يشبه التماثيل حقا أم أن السبب يعود إلى علمي المسبق بأنه الشخص الذي صب تلك التماثيل. كانت مرة رقبته أو اكتافه ومرة أخرى ابهامه واذناه من الحديد. سقطت قطعة من القرنبيط من فمه، ظلت صغيرة وبيضاء مثل سن ملتصقة ببزته.

إن باستطاعة هذا الإنسان ايضا أن يكون صغيراً وبدينا،

فكرت، لكنه كان باستطاعته على أي حال أن يصب تماثيل بهذه المهارة.

حرّكت تيريزا أردافها متبخترةً وأخذت صَفْحَة التوت البري تحت ذراعها. ذهبنا إلى غرفتها.

كانت جدران الغرفة مكسوّة بورق فوق بابٍ ضيّقٍ وعليه مشهد خريف لأشجار البتولا والماء. كانت لأحدى أشجار البتولا مدقّةُ باب على جذعها. وكانت الصخرة الوحيدة بين الأشجار في الغابة اكبر من صخرتين عند ضفة النهر. ولم تكن هناك سماء ولا شمس بل هواءٌ ساطعٌ وأوراقٌ صفراء.

قالت تيريزا: لم أكن قد شاهدت ورق جدران مثل هذا أبدا. هذا الورق من المانيا. كان فمها قانياً بفعل التوت الشوكي. وكذا كان لون الصفحة على الطاولة. وكانت جنب ذلك يَدٌ خزفية ممتدة. وعلى كل إصبع كان أحد خواتم تيريزا. اما عقودها فقد كانت معلّقة على خلفيات الأيادي وعلى الصحفة الخزفية، إضافة إلى حلي الخياطة.

ولولا هذه الحُلي لَبَدَت تلك اليد فوق الطاولة مثل شجرة كسيحة. لكن تلك الحلي كانت تبث شعاعاً من القنوط الذي يظهر على أشجار لا سبيل لها لأن تنمو، لا في غابة ولا في عريش.

مسحت بنهاية اصبعي على جذع شجرة البتولا ذات مدق الباب وضغطت على ذلك المدق وواصلت المسح. أردت، دون أن الفت الأنظار، أن أصل إلى الصخرة على أرضية الغابة. سألت: إلى أين يصل المرء اذا فَتَحَ شجرة البتولا ذات المدق؟ قالت تيريزا: سيصل إلى خلف دولاب ملابس جدتي. تعالي كُلي

معي، وإلاّ التهمت التوت البري لوحدي.

سألتها: كم عمر جدّتك؟ قالت تيريزا: أصْلُ جدتي مِن قرية في جنوب البلاد. حملَت اثناء قطف البطيخ دون أن تعرف ممن. أصبحت أُضحوكةً بين الناس في القرية. لذا فقد استقلّت القطار وكانت تشكو من الآم الاسنان. وهنا في المحطة انتهت السكك. نزلت من القطار. ذهبت إلى أفضل طبيب اسنان وتعلقت به.

كان أكبر منها سناً ويعيش لوحده، قالت تيريزا. كان له دخله الخاص أما هي فلم يكن عندها سوى سرها. لم تخبره بأنها ولدت طفلا. كانت تفكر أن الطبيب سيتقبل الأمر كولادة مبكرة. وهكذا ولدت أبي فعلاً، ولادة مبكرة. جاء طبيب الاسنان لزيارتها في دار الولادة. وجلب معه باقة أزهار.

وفي يوم خروجها من الدار لم يحضر. استقلت مع الطفل سيارة أجرة حتى البيت. لم يسمح لها بالدخول. اعطاها عنوان ضابط فاصبحت خادمة في بيته.

وعبر سنوات عديدة دأب الضابط على المجيء اليها. كان أبي يتظاهر بالنوم. وفهم أبي أنه متمتع بكل شيء مثل أبناء الضابط. كان يسمح له أن يتناول الطعام على المائدة نفسها. وكان يسمح له أن ينادي الضابط بأبي أن لم يكن أحد يسمع ذلك. وفي يوم من الأيام صرخت زوجة الضابط في وجه جدتي لأنها لم تحسن تنظيف الأقداح، قال أبي: يا أبي اعطني ماءً. نظرت زوجة الضابط إلى الطفل ثم إلى الضابط. وقالت: يا له من شبه كبير.

سحبت زوجة الضابط بقوة السكين من يد جدتي وقطّعت الأرنب بنفسها.

تناول الجميع الطعام بينما انصرفت جدتي إلى حزم متاعها.

تناولت بيدِ حقيبتها وباليدِ الاخرى طفلها من الكرسي وفمه محشو باللحم. أراد أطفال الضابط مرافقتهم إلى الباب لكن زوجة الضابط منعتهم من ترك المائدة. لوّحوا بمناديل المائدة البيضاء. ولم يجرؤ الضابط على النظر إلى الباب.

قالت تيريزا: كانت لطبيب الاسنان زوجتان اخريان، كلاهن تركنَهُ لأنهن كن يرغبن في إنجاب الأطفال وهو غير قادر على الانجاب. كان سيجد الحظ مع جدتي لو أنه خدع نفسه قليلاً. وحينما مات ورث والدي بيته.

هل ترغبين في إنجاب أطفال؟ سألت تيريزا آنذاك. قلت؟ كلا. تصوّري انكِ تأكلين التوت البري والبط والخبز، تأكلين التفاح والبرقوق، تطلقين اللعنات وتحملين أجزاء الماكنات هنا وهناك، تستقلين الترام وتمشطين شعركِ. وكل ذلك سيصبح طفلا.

لا زلت أذكر أنني نظرت إلى مدقّة بابِ شجرةِ البتولا، دون أن اكون على يقين من الظاهر، العقدة تحت إبطِ تيريزا كانت موجودة دائما. أَخَذَتِ العقدةُ وقتَها وازدادت حجما.

كانت العقدة تنمو ضد ارادتنا. على الضد من كل حب. صارت خيانة، دون شعور بالذنب. بدات تلتهم صداقتنا قبل أن تموت تيريزا بسببها.

صديق تيريزا أكبر منها بأربع سنوات. وقد درس في العاصمة وأصبح طبيبا.

وقبل أن يعرف الأطباء أن عقدة تيريزا كانت ستغزو ثدييها ورئتيها كانوا يعرفون أنه لا يجوز لها انجاب اطفال، فقد اكمل الطالب دراسته واصبح طبيبا. قال لها أنه يريد اطفالا ولكن هذه

هي الزاوية الخلفية للحقيقة. فقد خذل تيريزا لكي لا تموت وهي مرتبطة بحياته. كان على معرفة كافية بما ينتظرها من موت.

لم أعد موجودة في بلادي. كنتُ في المانيا وتلقيت هناك التهديدات بالموت هاتفياً وبالرسائل من النقيب بيله من بعيد. كان السطر الاعلى من الرسائل يحمل شعار بلطتين متقاطعتين وفي داخل كل رسالة شعرة سوداء. شعرةُ من....

أمعنت النظر في الرسائل وكأنَّ القائلَ الذي سيرسله النقيب بيله جالسٌ بين السطور وينظر في عيوني.

رن جرس الهاتف، رفعت السماعة. كانت تيريزا على الخط. ارسلي لي بعض النقود، أريد أن ازورك.

هل يسمح لك بالسفر إلى الخارج.

نعم. اظن ذلك.

كانت تلك هي المكالمة.

جاءت تيريزا للزيارة. استقبلتها في محطة القطار. كان وجهها ساخناً وكانت عيناي دامعتين. كان بودي على هذا الرصيف أن ألمسَ تيريزا في كل جزء من جسمها. لكن يدايّ بدتا لي أقصر مما ينبغي، رأيت السقف فوق شَعر تيريزا وكدت اتسلق اليه. حملت حقيبتها فطالت ذراعي لكنني حملتها مثل الهواء. ولم أر الا بعد جلوسنا في الحافلة بأن يدي قد احمرت بفعل الاحتكاك بمقبض الحقيبة. امسكت بالمقبض في الموضع الذي امسكت به تيريزا وأحسست بوجود اساور في يدها. لم تنظر تيريزا إلى المدينة عبر نافذة الحافلة، كانت تنظر في وجهي. ضحكنا وكأنما الريح تنوي الكركرة عبر النافذة المفتوحة.

قالت تيريزا في المطبخ: هل تدرين من أرسلني إلى هنا. بيله. وإلا لما استطعت السفر. شَرِبتْ قدحاً من الماء.

لماذا جئتِ.

احببت أن أراكِ.

بم وعدتهِ.

لا شيء

لماذا انتِ هنا

أردت أن أراكِ. شربت قدحا آخر من الماء

قلت: أردت ألا أعرفكِ بعد الآن.

الغناء أمام النقيب بيله لم يعارضه شيءُ، قلت

والتعرّي أمامه لم يجعلني عارية مثلما حلّ بكِ.

لن يكون تصرفي سيئاً على الاطلاق، قالت تيريزا لأنني اريد أن أراكِ. سأروي لبيله قصةً ما لا يستطيع أن يستفيد منها. نستطيع أن نبحث الأمر، أنتِ وانا.

أنتِ وانا. لم يكن لتيريزا أيُ أحساس بأن عبارة أنتِ وأنا كانت قد دُمّرت، وانني لم أعد أستطيع السكوت ما دام قلبي ينبض.

تناولنا القهوة. شَرِبَتْها كالماء. ولم تترك الكوب من يدها. لعلها كانت عطشى بفعل الرحلة، خطر لي أنها عطشى على الدوام، منذ أن حلّت في المانيا. رأيت مقبض الفنجان في يدها وحافته البيضاء على فمها. كانت تشرب بسرعة بالغة كأنما كانت تريد الانصراف حينما يفرغ الفنجان. فكّرت أن أطردها، . ولكن طريقة جلوسها هنا ووضعها ليدها على وجهها.

انتابني شعور مثل الذي غلب عليَّ أمام مرآة الخياطة. رأيت تيريزا وهي مقطّعة: عينان صغيرتان، رقبة طويلة، أصابع غليظة. توقف الوقت، كان على تيريزا أن تذهب، ولكن عليها أن تترك وجهها هنا لأنني اشتقت اليه كثيرا. أرتني العقدة التي في أبطها، كانت قد استؤصلت. وددت لو آخذ العقدةَ بيدي وامسح عليها بدون تيريزا. وددت لو اني سلخت حبي من جسدي ورميته على الأرض ودسْتُ عليه. وان أتمدد بسرعة حيث كانت متمددة لكي تندس عبر عيني فتدخل رأسي. وددت لو خلعت الذنب من تيريزا كما يخلع ثوب مجعّد.

تمَّ ارواء عطشها، شربت فنجاناً ثانياً من القهوة بايقاع أبطأ من شربها للفنجان الأول. أرادت أن تبقى شهرا. سألتها عن كورت. قالت تيريزا: لا شيء يشغل باله سوى المذبح، لا يتحدث سوى عن شرب الدماء. أظن انه لا يطيق رؤيتي.

إرتَدتْ تيريزا بلوزاتي وفساتيني وجونلاتي. كانت تذهب بملابسي إلى المدينة بدلاً من أن تذهب معي. اعطيتها في المساء المفتاح وبعض النقود. قلتُ: ليس لدي الوقت. كانت عنيدة بشكل بالغ إذْ لم تعتبر هذه الحجة مهمة. راحت تطوف المدينة لوحدها وتعود إلى البيت حاملة اكياساً كبيرة.

كانت تقف في الحمام مساءً لتغسل ملابسي. قلتُ: يمكنك أن تحتفظي بها لنفسك.

وحينما كانت تخرج من البيت أخرج أنا أيضاً إلى الشوارع. كان خفقان رقبتي يتصاعد ولم اكن أشعر بأي شيء آخر. لم ابتعد عن الشوارع القريبة من البيت ولم ادخل اي متجر لكي لا التقي بتيريزا. ولم ابق طويلا وكنت أعود إلى البيت قبلها.

كانت حقيبة تيريزا مقفلة. عثرت على المفتاح تحت السجادة , وجدت في الجيب الداخلي للحقيبة رقم هاتف ومفتاحاً جديداً. ذهبت إلى باب الشقة واكتشفت أن المفتاح يلائم الباب. اتصلت برقم الهاتف، السفارة الرومانية، ردَّ صوتٌ. أغلقت الحقيبة وأعدت المفتاح إلى مكانه تحت السجادة. اما مفتاح الشقة ورقم الهاتف فوضعتهما في درجي.

سمعت المفتاح في الباب، خطوات تيريزا في الدهليز ثم باب الغرفة. سمعت خشخشة أكياس وباب الغرفة وباب المطبخ وباب البراد. سمعت قرقعة سكاكين وشوكات وخرير الحنفية وصفقة باب البراد وباب المطبخ وباب الغرفة. كنت ابلع ريقي مع كل ضجيج. أحسست باياد تلمسني، وكان كل صوت يثقل كاهلي.

ثم انفتح بابي. كانت تيريزا واقفة هناك وفي يدها تفاحة أَخذت منها قضمة وقالت: كنتِ تعبثين بحقيبتي.

أخذت المفتاح من الدرج. قلت: هذا هو الشيء الذي لا يحتاج اليه بيله. كنتِ عند صانع المفاتيح. قطارك يغادر مساءَ اليوم.

كان لساني أثقل مني. تَرَكتْ تيريزا التفاحة المقضومة. انصرفت إلى حزم حقيبتها.

ذهبنا إلى موقف الحافلة. هناك كانت تقف سيدة تحمل حقيبة يد رخيصة وتذكرة الحافلة في يدها.

كانت تخطو ذهابا وجيئة وقالت: عليه الآن أن يأتي. ثم شاهدتُ سيارة أُجرة ولوّحتُ لكي لا تأتي حافلة أخرى ولكي لا أبقى جالسة أو واقفة مع تيريزا.

جلستُ في المقعد الأمامي جنب السائق.

وقفنا على رصيفِ المحطة هي، التي أرادت أن تبقى ثلاثة اسابيع اخرى، وأنا التي كانت تريد أن تختفي تيريزا. لم يكن بيننا أي وداع. تحرك القطار ولم تكن هناك يد تلوّح لا في داخل القطار ولا في خارجه.

كانت السكك خالية وساقاي ألين من خيطين. عدت اسير ببطء حتى منتصف الليل من المحطة إلى البيت. لم اكن ارغب في الوصول أبداً ولم أستطع النوم ليلةً بعد ذلك.

وددت لو أن الحب ينمو مثل العشب بعد حشّه. أينبغى للحب أن ينمو بطريقة مختلفة؟ مثل الاسنان عند الاطفال، مثل الشَعر، مثل اظافر الاصابع. أينبغي أن ينمو كما يشاء؟ افزعتني برودة الفِراش ثم الدفءُ الذي جاء حينما استلقيت.

حينما ماتت تيريزا بعد نصف عام من عودتها، أردت أن افصح عما في ذاكرتي، لكن لمن. وصلتني آخر رسالة منها بعد مماتها:

اني ما زلت أتنفس فحسب مثل الخضروات في الحديقة. لدي شوق جسدي اليكِ.

بدأ الحب نحو تيريزا ينبعث من جديد. لقد أجبرته على ذلك ولكي احمي نفسي. أحمي نفسي من تيريزا ومن نفسي، كما عرفت نفسي وعرفت تيريزا قبل زيارتها لي. اضطررت إلى تقييد يديّ. كانتا تريدان الكتابة لتيريزا بأنني ما زلت أعرفها وأعرف نفسي، وأن البرود الكامن في نفسي يُهيّجُ حباً يُناقضُ العقل.

بعد مغادرة تيريزا تحدثت مع إدغار. قال: ينبغي عليك ألا تراسليها. لقد أخذتِ قراراً. فإن كتبت لها وانت تعذبين نفسك

بهذا الشكل، سيبدأ كل شيء من جديد. ثم ستأتي مرة أخرى لزيارتك. اعتقد أن تيريزا تعرف بيله ما دامت تعرفك. أو لمدة اطول حتى

لماذا ومتى وكيف يصل الحب الحميم إلى منطقة القتل؟ كان عليّ أن أطلق اللعنات التي لا سيطرة لي عليها.

فليعاقب الرب

من يهجر بعد محبة

ليعاقبه الرب

بخطوات كخطو الخنفس

وصرير يشبه الريح

وغبارِ مثل عجاج الأرض.

اللعنات تصرخ، لكن في أي أُذن.

حينما أتحدث اليوم عن الحب سيستمع العشب، . يبدو لي كما لو أن هذه الكلمة غير أمينة حتى مع نفسها.

ولكن حينما كانت شجرة البتولا الحاملة لمطرقةِ بابِ بعيدة جداً عن الصخرةِ المنتصبةِ على أرض الغابة، فتَحت تيريزا الدولاب وأرتني العلبة التي جيء بها من البيت الصيفي. هذا المكان أفضل للعلبة من مكانها في المصنع، قالت تيريزا. فإن كان لديكِ شيء آخر إجلبيه إلى هنا. وكذلك على إدغار وكورت وغيورغ بطبيعة الحال أن يفعلوا الشيء نفسه، قالت. فلدي ما يكفي من المكان، قالت تيريزا لأننا نقطف التوت الشوكي في الحديقة.

كانت جَدّتها تجلس تحت شجرة التوت. كانت على سيقان

نباتات التوت الشوكي اعداد كبيرة من الحلزونات. كانت قواقعها ذات خطوط سوداء وبيضاء. أمسكت تيريزا بحفنة من التوت الشوكي وهرستها بقوة. قالت تيريزا: في بلاد أخرى تؤكل الحلزونات. فالناس يمتصونها من قواقعها، كان والد تيريزا يسير في الشارع حاملاً حقيبة بيضاء من الكتان.

خَلَطَت تيريزا مرة أخرى بين روما وأثينا وبين وارشو وبراغ. لم ألزم الصمت هذه المرة. أنك تميزين بين البلدان حسب الملابس ولكنكِ تنقلين المدن إلى شتى الجهات، كما تشائين. فلتنظري إلى الأطلس. لعقت تيريزا التوت الشوكي المهروس من بين خواتمها. وقالت هل أفادكِ ما تعرفينه بشيء؟

تجلس الجدة على الكرسي، تحت شجرة التوت تسترق السمع وتمص قطعة حلوى. وحينما مرت تيريزا بها وهي تحمل صحفة الطعام المملوءة توقفت قطعة الحلوى عن الحركة يميناً ويساراً بين خديها. كانت قد استسلمت للنوم دون أن تغلق عينيها تماما. حُشرت قطعة الحلوى في بطن خدها الايمن كما لو كانت تعاني من ألم الاسنان. كما لو أنها مقدمة على الحلم بأن السكك الحديد قد وصلت إلى نهايتها، وكما حدث لها ذلك مرة في القطار. وأنها ستبدأ في الحلم بحياتها تحت أوراق التوت من جديد.

أحضرت لي تيريزا خمسَ زهرات عباد شمس. ونظراً للخلط بين المدن تبين أن أحجام هذه الأزهار متباينة مثل تباين أصابع اليد. أردت أن أقدّم الازهار إلى السيدة مارغيت لأنني عدت إلى البيت متأخرة وكذلك لمجيء كل من إدغار وكورت وغيورغ فرادى خلال أسبوع واحد.

كان الكيس الهنغاري موضوعاً جنب سرير السيدة مارغيت.

أما المسيح فينظر من الجدار المظلم إلى وجهها المضاء. لم تأخذ السيدة مارغيت الأزهار. قالت: هذه ليست جميلة، إذْ ليس لهذه الازهار قلباً ولا وجها.

رسالة موضوعة على الطاولة. بعد أخبار أوجاع ظهر الأم كتبت ما يلي:

في صباح يوم الإثنين وضعتُ للجدة ملابس نظيفة. ارتدتها قبل الذهاب إلى الحقل. نقّعتُ الملابس المتسخة. في أحد الجيوب كانت بعض أثمار زعرور. ولكن في الجيب الآخر جناحا سنونو. يا إلهي لربما أَكَلَتِ السنونو. إنه لعار إذا ما وصل الإنسان إلى ذلك الحد. لربما تستطيعين التحدث اليها. لربما تعرفك منذ أن توقفت عن الغناء. انها كانت تحبك دائماً ولكنها لم تكن تعرف مَنْ تكونين، لربما ستعرف ذلك مرة أخرى. لم تكن يوما تطيقني. عودي إلى البيت، أظن أنها لن تعيش طويلا. جلسنا، كورت وغيورغ وأنا، في حديقة أشجار البقس في الفناء. وأشجار الزيزفون تتمايل في الهواء. وجلس السيد فايَزْآبند أمام بيته وفي يده الانجيل. كانت السيدة مارغيت قد أطلقت اللعنات قبل أن ندخل الفناء إدغار وكورت وغيورغ وانا. ولم يكن الأمر يهمني بتاتا.

قدم لي غيورغ هدية وهي لوح مدور أخضر ذي مقبض. وكانت على اللوح سبع دجاجات صفراء وحمراء وبيضاء. كانت خيوط تخترق أعناقها وبطونها وكانت مشدودة إلى بعضها تحت اللوح بكرةٍ خشبية. الكرة تتأرجح حينما يمسك احد باللوح. كانت الخيوط مقوسة مثل برامق مظلة شمسية. هززت اللوح في يدي، فخفضتِ الدجاجاتِ الرؤوس ورفعتها مرة اخرى. سمعت طقطقة مناقيرهن فوق اللوح الأخضر. وعلى الصفحة الخلفية

للّوح كان غيورغ قد كتب:

إرشاد وتوجيه: في حالة تراكم الهموم هزوا اللوح باتجاهي صديقكم طير الدغناش.

قال غيورغ: الأخضر عشب، النقاط الصفراء حبّات ذرة. أخذ إدغار اللوح من يدي، قرأ وهز اللوح، رأيت الكرات تطير والدجاجات اندفعت بقوة. المناقير طقطقت مع بعضها. صار من الصعب علينا ترك أعيننا مفتوحة وضحكنا.

أردت أن أهز الدجاجات بينما الآخرون يتفرجون. كان اللوح لوحي.

يخرج الطفل من البيت. يأخذ معه لعبه إلى الاطفال الآخرين بيديه وفي جيوبه وبقدر ما يستطيع حمله حتى في البنطلون وتحت الملابس. يضع كل لعبه على الطاولة ويُخلي جيوب بنطلونه ويطرح البقية من تحت ملابسه. وحينما تبدأ اللعبة لا يتحمل الطفل أن يمس طفل اخر أشياءَه.

غيّر الحسد سلوك الطفل، لأن الآخرين يلعبون أفضل منه. ودفعه بُخلُهُ إلى رفضِ أي عبثٍ بأشيائه الخاصة. كما أن الخوف من أن يبقى لوحده يقلق راحته أيضا. لا يريد الطفل أن يكون حسوداً ولا بخيلاً ولا خائفا ولكنه بقي على حاله بل زادت مشاكله. يجب على الطفل أن يعضّ ويخدش. وحش عنيد يطارد الأطفال ويخرّب الألعاب التي كان يريد أن يتمتع بها.

الطفل قبيح ومتفرد في خِضم هذا العالم. يحتاج كلا اليدين لكي يغطّي عينيه. يريد أن يتخلى عن لُعبِهِ كلِها ويهديها إلى الآخرين. ينتظر حتى يمس أحد لعبة من لعبه، أو يسحب يديه من عينيه فيردها بالعض والخدش. كان الجد قد قال: الرد ليس

بخطيئة. لكن الأطفال لا يعضون ولا يخدشون. انهم يصيحون: دسها في فمك، اني لست بحاجة اليها.

هناك أيام يامل الطفل خلالها أن تضربه أُمه. يسير الطفل مسرعاً، يريد العودة إلى البيت ما دام الذنب جديدا.

تعرف الام لماذا يعود الطفل بهذه السرعة إلى البيت. لا تلمه. وعن بُعدٍ لا نهاية له يفصل بين الباب والكرسي تقول: انهم يستفزونك بكلام ويمكنك الآن أن تلتهم لُعَبَكَ. إنك أغبى من أن تمارس اللعب. والآن بدأتُ أجرُّ مرة أخرى ذراع إدغار: ستنقطع الخيوط حالاً، اعطني لعبة طير الدغناش. صاح الجميع: لعبة طير الدغناش. قال غيورغ: انتِ يا طيرةَ الدغناش السفابية. ناديت طالبةَ اللوحَ، ستنقطع الخيوط حالاً. تصورت أنني كبيرة السن لاتابع هذا التلهّف الطفولي، لكن ذلك الوحش العنيد نال مني.

السيد فايرآبند نهض من الكرسي ودخل إلى غرفته.

رفع إدغار يده فوق رأسي. رأيت الكرات تطير تحت الدجاجات. انها تلتهم أثناء الطيران، صاح إدغار. انها تلتهم الذباب، صاح كورت. انها تطير لكي تلتهم، نادى غيورغ. كانوا يتصرفون بجنون، إذ أن العقل طار من رؤوسهم مثل الكرة على الخيط. كم كنت راغبةً رغم إرادتي في الانضمام اليهم، بدون إفساد اللعبة وبدون سرقة الجنون. انهم يعرفون، قلت في نفسي، بان لا شيء سيبقى لنا سوى مَنْ نكون وأين نحن. وفي تلك اللحظة كان رسغ إدغار بين اسناني وقد انتزعت لعبة طير الدغناش من يده وخدشت ذراعه.

لعق إدغار الدم القليل بلسانه وكورت نظر اليّ.

السيدة غراوبيرغ اطلقت نداءً نحو الفناء: تعال للأكل. كان الحفيد يجلس في أعلى شجرة الزيزفون ويصيح: ماذا طبخت يا ترى. رفعت السيدة غراوبيرغ يدها: تمهّل فحسب ستعرف ذلك حالا. كان تحت شجرة الزيزفون منجلٌ. ومِدَمّةٌ معلّقةٌ بأدنى غصنٍ من الشجرة.

وحينما نزل الحفيد من الشجرة ووقف فوق العشب جنبَ المنجل كانت المِدَمّة تهتز من على الغصن. قال الطفل: أرني لعبة طير الدغناش! فقال غيورغ: ليس للاطفال شأن في هذا. لوى الطفل شفتيه مثل أرنب ووضع يدهُ بين فخذيه: هنا تنمو شعرات لي. قلت: هذا شيءٌ طبيعي. تقول جدتي بأنني سأبلغ مبلغ الرجال مبكرا. هرب الطفل.

قال إدغار: ينبغي للطفل أن يتوارى عن الأنظار، عمَّ يبحث هنا؟ ماذا سيقولون؟ قلت في نفسي، اذا جاءت تيريزا صدفة. هكذا كنت متفقة على الامر مع تيريزا.

أخرج كورت قنينتي مشروب كحولي من حقيبة السفر ونازِعةِ سداداتٍ من جيبها الداخلي. قلتُ: لن تعطيني السيدة مارغيت أقداحا. شربنا من القناني مباشرة.

أرانا كورت بعضاً من صوره في المذبح. ففي إحداها شاهدنا خطاطيف عُلّقت عليها ذيول بقر لغرضِ تجفيفها. قال كورت: هذه هي الذيول الصَلبة التي ستستخدم فِرشاتٍ لتنظيف القناني وهنا اللّينة التي سيلعب بها الاطفال. في الصورة الاخرى شاهدنا عجلاً وقد جلس فوق ظهره ثلاثة رجال. أحدهم في الأمام عند الرقبة. كان يرتدي صدرية مطاطية وفي يده سكين. وكان خلفه شخص يحمل مطرقة غليظة. وكان الرجال الآخرون يقفون على شكل نصف دائرة وهم ينحنون. كانت في أيديهم أكواب قهوة.

وعلى الصورة التالية أمسك الرجال الجالسون بالعجل من أُذنيه وأطرافه بقوة. وفي الصورة الثالثة قطع السكين حُنجرة العجل، امسك الرجال باكواب القهوة تحت سيل الدم المتدفق. وعلى الصورة التي تلت شربوا. بقي العجل ملقى على الأرض لوحده في القاعة. وصُفّت الاكواب خلفه على حافة النافذة.

وعلى احدى الصور ظهرت كومة تراب وخطافات مدببة ومجاريف وقضبان حديدية. وفي الخلف شجيرة. قال كورت: وهنا كان يجلس الشخص الذي حُلق شعره بملابسه الداخلية.

أرانا كورت عماله في الصور. في البداية، قال: لم اكن أعرف لماذا كانوا يركضون بتلك السرعة إلى القاعة. يقع مكتبي على الجانب الآخر من المبنى وتطل النافذةُ على الحقل: سماء، أشجار، أدغال وحلفاء، صار عليّ أن أراها في فترة الاستراحة. لم يسمحوا لي بدخول القاعة لكنهم سمحوا لي بدخول القاعات الاخرى كافة.

والآن صار الأمر لديهم سيان. فتح غيورغ القنينة الثانية. وضع إدغار الصور واحدة بعد الأخرى فوق العشب. كانت الصور مرقمة على صفحاتها الخلفية.

جلسنا امام الصور مثل الرجال الذين جلسوا أمام العجل. قال كورت: لديَّ صورٌ مع البقر والخنازير، أراني العامل الذي ترك القضيب الحديدي يسقط على يده. كانت تلك أحدث حالة. لف كورت الصور بورق صحيفة. سحب فرشة الاسنان من جيب سترته. كان بيله عندي وقال، عليك أن تنسى الصور عند الخياطة. قلت: تيريزا أفضل من الخياطة سإحضر الصور الاخرى إلى هنا أيضا.

من تكون هذه؟ سأل غيورغ. فتحت فمي لكي اتحدث، لكن كورت بادر بالقول: هي خَياطة أو ما شابه.

قال إدغار: النساء يحتجن دائماً إلى نساء للاتكاء عليهن. هنّ يُصبحن صديقات لكي يكرهن بعضهن. وكلما كرهن بعضهن أكثر زاد قربهن من بعضهن. أرى ذلك عند المعلمات. إحداهن تتهامس والآخرى تدير أُذنها لتستمع وتترك فمها معلّقاً مثل برقوقة يابسة. يرن جرس الدرس فلا يقدرن على الابتعاد عن بعضهن. وغالباً ما يقفن أمام باب قاعة الدرسِ وكلّهن أفواه وآذان مع بعضهن، وينقضي وقت الدرس حتى النصف. وفي فترة الاستراحة يواصلن التهامس. ولا يمكن أبداً أن تدور أحاديثهن إلاّ عن الرجال. ضحك إدغار: لأغلبهن واحدٌ وواحد جانبي آخر.

كان إدغار وغيورغ رجلان جانبيان لمعلمتين. وحينما كُنَّ يأتين إلى الموعد لننام في أحضان الطبيعة، يحمرُّ وجهاهما وتنظران إلى كورت واليّ.

أما أنا فقد كنت المرأة الجانبية للشتاء لعدم توفر رجل حتى انتهى الشتاء.

لم يكن يتحدث عن الحب قط. كان يتحدث عن الماء وقال: إنني قِشّة نجاة له. فإن كنتُ قشةَ نجاةٍ فأنا واحدة على الأرض. هناك كنا نتمدد كل أربعاء بعد العمل في الغابة. دائماً في الموقع نفسه. حيث كان العشب مرتفعاً والأرض ثابته. لم يبق العشب مرتفعا. مارسنا الحب على عجل ثم حلّت الحرارة وحلَّ الصقيع في جلودنا. عاد العشب إلى الانتصاب، لا ادري كيف. وبدأنا نعد اعشاش الغربان بين الأشجار، لا ادرى لماذا؟. كانت الاعشاش خالية. قال: هل ترين؟ كانت في الضباب ثقوب، ما لبثت أن انغلقت. ونالت الاقدامُ أشدَّ درجات البرودة واستطعنا

السير بخطو متقارب لمدة طويلة في الغابة. وبدأ الصقيع يلسع قبل أن يخيم الظلام. قلت: انها ستعود حتماً للنوم، انها تلتهم ما تجده في الحقل. الغربان تبلغ المائة سنة من العمر.

لم تعد قطرات الماء تلمع على الأغصان. كانت قد تجمدت على شكل أُنوف. لم أعرف كيف يتلاشى الضوء، بالرغم من إمعاني النظر إلى ذلك لمدة ساعة. قال أن هناك أشياء لا تصل العيون.

وحينما يخيّم الظلام الدامس كنا نصعدُ إلى الترام ونعود إلى المدينة. اما ماذا كان يقول أيام الاربعاء حين يعود في ساعة متأخرة إلى بيته، فلا ادري. كانت زوجته تعمل في مصنع مسحوق الغسيل. لم أسأله أبداً عن الزوجة. كنت أعرف انها لم تكن تبقى وحيدة بسببي. فهذا الرجل لم يكن ينزع إلى الأخذ فحسب, كنت أحتاج اليه أيام الاربعاء في الغابة. كان يروي احياناً شيئاً عن طفله ويقول إنه يُتأتيءُ ويعيشُ عند الحمو والحماة في الريف وانه يزوره كل يوم سبت.

كانت أعشاش الغربان في كل يوم أربعاء خاوية. قال: كما ترين. له الحق فيما قاله عن الغربان ولكن ليس له اي حق فيما قاله عن القش. فعلى أرض الغابة يُعدّ القش قمامة. كنت قمامة له وكان هو قمامة لي. القمامة موقفٌ، حينما يصبح الضياع عادة.

كان أحد العاملين في مكتب تيريزا، وفي أحد الايام لم يحضر إلى العمل. وتحت أعشاش الغربان اقترح عليّ الهروب معه عبر نهر الدانوب. كان يُراهن على الضباب، آخرون راهنوا على الريح، أو الليل أو الشمس وهكذا فان الشيء نفسه مختلف عند كل شخص، كما في الالوان المفضلة، فكرت بالأمر: كما في الانتحار.

لا بد أنه كانت في غابة أشجار الأقاقيا عندنا في بقعة من الغابة شجرة ذات مطرقة باب على جذعها. لقد رأيت تلك الشجرة فيما بعد، ليس آنذاك في الغابة. لربما كانت منتصبة أمامي على مسافة قريبة جدا. لكنه كان يعرف تلك الشجرة وقد فتح ذلك الباب.

وفي يوم الأربعاء التالي مات اثناء محاولة الهروب مع زوجته. انتظرت اشارة تدل على انه ما زال حيا. ولم أفتقده حبا به. لكن الإنسان لا يتحمل موت إنسان آخر يشترك معه باخفاء سر ما. كنت أسأل نفسي آنذاك لماذا كنت اذهب معه إلى الغابة وأتمدد تحته لوقت وجيز فوق العشب الكثيف. وأنطلق من داخل اللحم متقلبة متخبطة دون أن أتعلق بعد كل ذلك للحظة واحدة بعينيه ـ لربما كان ذلك هو الأمر.

لم أسمع عنه الا بعد أشهر حينما رأينا قصاصة ورق في الصندوق الزجاجي الطبي عليها اسمه. كانت تيريزا المعروفة بجولاتها وبحثها عن الاخبار في المصنع قد شاهدت الخبر الرسمي. ورد فيه ما يأتي: الاسم، المهنة، عنوان المنزل، مكان الوفاة: في البيت. الوقت الساعة ١٧ و٢٠ دقيقة. ختم الطب الشرعي، توقيع أزرق.

وتسلّم مصنع مسحوق الغسيل قطعة ورق مشابهة عليها اسم زوجته وقد تعرفت تيريزا على الاسم الذي كان يعود الى ممرضة في مصنع مسحوق الغسيل. كان على الورقة تأريخ يوم الوفاة نفسه ـ وفاة طبيعية ـ عجز في القلب، الساعة ١٢ و١٠ دقائق في البيت.

قالت تيريزا: انكِ تسألين كثيراً عنه، وأنتِ تعرفينه أكثر. كانت لكِ علاقة به والكل يعلم ذلك. وكان ذلك أول أمرٍ عرفته

عنكِ. قبل أن نلتقى عند الخياطة، حيث كان عندها. خرج حينما وصلت. قالت تيريزا: كانت تقرأ له حظه في اوراق اللعب. وليس الامر بذي اهمية الآن، لكنني ما كنت لأثق به.

لم يسألني النقيب بيله عنه قط. لربما كان هناك شيء. لم يكن النقيب بيله يعرفه. لكن كنت غالباً في الغابة فكيف يمكن الآ يعلم بذلك النقيب بيله. لعل النقيب بيله قد حدثه عني بأي شيء صحيح لانني لم اكن احبه، هذا ما جذب انتباهي.

ولربما كان باستطاعته أن يروي عنى اشياء للنقيب بيله، كيف أني أُحسن الغناء حيثما أُجبر على ذلك. قال كورت: إنَّ حبكم تفوح منه رائحة الخشب والحديد، ليس لدي حب وهذا هو الأفضل. لا أستطيع مضاجعة بنات مصاصي الدماء وزوجاتهم، قال، حينما قمنا بإعداد قائمة ضحايا الذين سمعنا بهم. صارت لدينا صفحتان. قام إدغار بارسال القائمة إلى خارج البلاد.

حصلت على معظم الاسماء من تيريزا والبعض من الخياطة. فزبونتها صاحبة البقع المنوية وزوجها وابن اخيه لم يعودوا على قيد الحياة.

كان غيورغ يقوم بحش العشب. كانت رؤوسنا مثقّلة بالقائمة والمشروبات الكحولية. جُنَّ غيورغ وصرنا ننظر اليه. بصق في يديه، رقص خلف المدمّة وجَمَعَ التبن. ثم علّق المِدمّة على الغصن. سحب فرشة أسنانه من جيب بنطلونه وبصق عليها ومشط بها حاجبيه.

سألتُ، لمن يعود البيت الصيفي. قال إدغار، لاحد رجال الجمارك. كان يملك الكثير من العملات الأجنبية، وكان يخفيها عند والديّ في الثريا لكي لا يعثر عليها أحد. كان ابي يعرفه منذ

أيام الحرب. وهو الآن متقاعد ويستطيع تهريب القائمة عبر سلطات الجمارك. كان ابنه قد أعطاني المفاتيح وهو يسكن في المدينة.

كانت بضع اوراق قد اختفت من غرفة إدغار. وحصل على القائمة مرة أخرى. ليس في البيت. قال إدغار: لكنه لم يعثر على قصائده أبدا، حتى ولا في ذاكرته.

لم تحضر تيريزا في عصر هذا اليوم. أعطيتها الصور في المصنع. كان أبوها قد حُذّر قبلي بيوم واحد. قيل له أن اتصال ابنته بي سيلحق الضرر بها، كما كان النقيب بيله قد قال. وأنني لا ينقصني سوى الضوء الاحمر.

تظاهرت تيريزا بالغباء، وسألت، أن كان بيله يعنى الحزب بذلك. قال أبي: الانتماء للحزب لا يعني الدخول في مبغى.

كان إدغار وكورت وغيورغ قد سافروا منذ وقت طويل. يبس ما تمّ حشّه من العشب في الشمس. كنت اشاهد كل يوم كيف يزداد كوم العشب اصفراراً وتقلصاً في حجمه. كان قد اصبح تِبْنا. وبدأت الجذور تنمو من جديد.

وفي عصر أحد الايام امتزج لون السماء بالسواد ووهج النار. وعلى طُرُقِ المدينة الآخرى تخطف البروق وتتلوها الرعود. الريح تميل بأشجار الزيزفون تكَسَرُ بعض اغصانها تكبسها على أشجار البقس ثم تعيدها الى الأعلى. تقلبت أشجار الزيزفون وقرقع خشَبُ أشجار البقس وبدا الضوء كالفحم والزجاج. حتى صار المرء يمدّ يده فيمس الهواء.

كان السيد فايرآبند يقف تحت أشجار البقس ويدس التبن في كيس أزرق. خطفت الريح الكيس من يده. ركض وراءه واوقفه

برجله. بدا السيد فايرآبند مكشوفا في هذا الضوء. خفتُ أن يراه البرق ويقضي عليه. وحينما تساقطت قطرات المطر الثقيلة ركض ليجد مأوًى تحت سقف. من اجل حبيبتي إيلزا، قال، وحمل الكيس إلى غرفته.

بعد استهلال لالآم ظهر الام ورد ما يلي: لقد كتبتْ لي السيدة مارغيت أنك تقيمين علاقة مع ثلاثة رجال وشكراً لله أنهم المان، لكن ذلك نوع من الدعارة على أي حال. تقوم الأُم برعاية ابنتها في سنوات المدرسة في المدينة وهي أهلٌ لذلك. وبالمقابل تحصل الام على عاهرة. وسيكون لكِ في المصنع صديق أيضاً. فليحفظنا الرب الى حين تأتين في أحد الايام وتقدمين لي رجلاً من رومانيا وتقولين: هذا زوجي. ان الحلاق والذي كان يمارس عمله في المدينة فيما مضى قال آنذاك إن النساء المتعلمات سيئات مثل الأشباح. لكن الام تقول ابنتي لن تكون كذلك.

كان شمع العسل يغلي في القدر، والفقاعات تنفجر وترغوا حول ملعقة الطبخ الخشبية كرغوة البيرة. وعلى الطاولة انتصبت صورة بين بوتقات ومجموعة فرش وأقداح. قالت المجمّلة: هذا إبني. كان الطفل يحمل على ذراعه ارنبًا أبيض. لا وجود للأرنب الآن لأنه التهمَ البرسيمَ الرطب وانفجرت معدته. اطلقت تيريزا لعنة. قالت المجمّلة: لم نكن نعرف ذلك ولكن كنا نقتطف في الفجر. معتقدين أن الاكثر طزاجة هو الافضل. زلّطَتْ بقعة بقدر كف من ساق تيريزا بملعقة الشمع الساخن. آن الاوان، قالت، حيث ينمو الشَبَت على بطن الساق. وحينما سحبت شريط الشمع اغلقت تيريزا عينيها. قالت المجمّلة: كنا على أي حال سنذبح الأرنب فيما بعد، لكن ذلك لم يكن صحيحا. انخلع الشريط. سحبت مرة اخرى. قالت المجمّلة: يُحدث الشريط الأول ألماً

لكن النساء يألفن ذلك وهناك ما هو اسوأ،

أسوأ هكذا، كان باستطاعتي أن أقول، ولذلك السبب بالذات ترددت حقاً في أن أدع السيدة تزيل شعر جسدي.

وضعت تيريزا يديها تحت رأسها ونظرت اليّ. اتسعت حدقتا عينيها مثلما يحدث لقطّة. أنك تخافين. زلطت المجمّلةُ ابط تيريزا ببقعة شمع. تكونت فرشة حول مادة الشمع حينما سحبتها الأصابع المدببة.

قالت تيريزا: الارانب حيوانات جميلة وخاصة البيضاء منها، لكن لحمها نتن مثل لحم الأرانب الرمادية. قالت المجمّلة: الأرانب حيوانات نظيفة، كان ابط تيريزا مليطا. فلاحظت في داخله عقدةً بحجم جوزة.

كان طير الدغناش جنب القاموس. ودأبت تيريزا على هزّهِ في كل يوم، قبل أن تتناول الطعام. حينما كانت تدخل من الباب تقول: أتيت لأعلف الدجاج. وكانت تسأل في كل مرة أن كنت أعرف في ذلك اليوم كيف يدعى هذا الطير بلغة رومانيا، استناداً إلى ارشادات غيورغ. لكنني استطعت أن أُبيّن لتيريزا بلغة رومانيا فقط اسم الطير في اللغة الالمانية: قَتَلَ تسعَ مرات. لم يكن اسم الطير موجوداً في أي قاموس.

قالت تيريزا: إستخدمتُ مرةً مربيةَ أطفال المانيّةٍ، كانت كبيرة في السن. لأن جدتي لم تكن تقبل بمربيات أطفال شابات لكي لا يُصاد أبي بشباك الغواية. كانت المربية العجوز متشددة جدا وتفوح منها رائحة السفرجل. كانت ذراعاها مكسوتان بشعر طويل وكان من المفروض أن اتعلم الالمانية منها. النور، الصياد، العروس. كانت أحب كلمة لي هي عَلَفٌ [Futter] لأنها تعني في لغتي:

مارس الجنس ولم تكن لها رائحة السفرجل:

إنها تعطينا الحليب والزبدة

ونحن نعطيها العَلَف

غنّت لي مربية الأطفال:

عودوا أيها الأطفال سريعا إلى البيت

فالأم ستطفيء النور بنفخة.

قامت بترجمة الأغنية لي، ودأبتُ على نسيانها. كانت أُغنية حزينة، كنت أفضّل الفرح. وحينما أرسَلَتْها أمي إلى سوق المدينة أخذتني معها. وفي طريق العودة إلى البيت سمحت لي أن اشاركها في التفرج على صور العرائس في شباك عرض لأحدِ محلات التصوير، ثم أحببتها لأنها كانت تلزم الصمت. كانت تتمعن بالصور لوقت أطول مما أقضيه أنا. وحينما كنا نغادر المكان تبقى آثار أصابعنا على زجاج الواجهة. بقيت اللغة الالمانية بالنسبة لي دائماً لغة سفرجل صلبة.

ومنذ أن رأيت عقدة الورم أسأل تيريزا في كل يوم أن كانت قد ذهبت إلى طبيب. كانت تدير خواتمها حول أصابعها وتبدو كأنها تفتش عن الجواب في الخواتم. كانت تهز رأسها وتطلق لعنة وتتوقف عن الأكل وتتجمّد أسارير وجهها. في أحد ايام الاثنين قالت: نعم. سألتُ: متى. قالت: كنت أمس عند طبيب في بيته. العقدة عبارة عن زائدة دهنية وليس كما تظنين.

لم أصدقها وتابعتُ الكذبةَ الطازجةَ الطريَّةَ في عينيها. رأيت إبنة المدينة في وجهها، جموحةً، ونشطة تتسلل إلى زاويتي فمها. لكن تيريزا دست الجندي الصغير التالي في فمها، مضغته، وهزت دجاجات الدغناش والكرات وجعلتها تتحرك في الهواء مثل

الطيور. قلت في نفسي: حينما يكذب الإنسان لا يجد بعد ذلك لذةً للطعام. ولأن تيريزا استمرت في تناول الطعام توقفتُ أنا عن الاستمرار بالشك..

سألت تيريزا: إذا تسنى لكِ غداً أن تتحولي وأنَّ لك الحقُ في اختيار ما ترغبين التحول اليه، فأيَ طيرٍ تريدين أن تكوني؟

لم تستطع تيريزا أن تستمر لمدة أطول في القول: أحضر لكي اعلف الدجاج ولم نأكل بعد ذلك سوية الا لمدة قصيرة.

وحينما حضرت للعمل في صباح أحد الايام سمعت ضجيجا. لم يكن هناك أحد في الدهليز الهاديء. وقفت أمام باب المكتب والمفتاح في يدي. استمعت، كان الضجيج خلف الباب. فتحت الباب بقوة. كان شخص يجلس على مكتبي. يلعب بطير الدغناش. كنت أعرفه من ظاهره، والناس يسمّونه المبرمج. ضحك كالمجانين، أخذت دميةَ طير الدغناش عنوةً من يده. طبقاً للسلوك الاجتماعي يطرق الإنسان الباب في هذا الوقت من النهار قبل أن يدخل. لم اكن متأخرة في الحضور إلى العمل لكن طردي منه جاء قبل وصولي. وبعد أن أغلقت الباب بشدة شاهدت حاجياتي مرمية في الممر: صابون، منديل، غلاّية تيريزا الكهربائية وابريق. وفي داخل الابريق ملعقتان وسكينان وقهوة وسكر وكوبان. في أحد الكوبين محّاية مطاطية وفي الاخرى مقص أظافر. بحثت عن تيريزا، وقفت في مكتبها، وصُفّت الحاجيات فوق الطاولة الخالية. انتظرت قليلاً. كان الهواء خانقاً والكل يسيرون ذهاباً وجيئة. الجميع في حالة هيجان في تلك الغرفة الصغيرة، في هذا الكستبان المكتظ بالناس. كانوا ينظرون اليّ من زوايا أعينهم. لم يسألني أحد لماذا كنت أبكي. رنَّ جرس الهاتف، ذهب أحدهم إلى هناك وقال: نعم، إنها هنا.

ارسلني إلى مدير المستخدمين. وضع أمامي استمارة لكي أوقّع عليها. قرأت وقلت: كلا. نظر اليّ بعينين متعبتين. قطع كعكة في المنتصف، سقطت فتاتتان صغيرتان على جاكتته السوداء، ولا ادري ما الذي خطر ببالي. لكنني صرخت بصوت أعلى. اطلقت لعنة لأول مرة لأنني بُلغت بطردي من عملي.

لم تحضر تيريزا إلى عملها في هذا اليوم.

كانت السماء جرداء. أمسكتْ ريحٌ دافئةٌ بفروة رأسيَ بينما كنت أعبر فناء المصنع، لم اكن احسُّ بساقيَّ. من يرتدي ملابس نظيفة لا يمكن أن يصعد إلى السماء وهو قذر. أردت أن أكون قذرة بالرغم من سماء النقيب بيله ومع ذلك فقد كنت منذ ذلك الوقت ارتدي ملابس نظيفة على الأغلب.

لثلاث مرات أخرى أخذتُ الطريق نَفسه إلى مكتب تيريزا، فتحت البابَ وأغلقته دون أن أنبس بكلمة. كانت حاجياتها ما تزال فوق الطاولة. تركت دموعي تسيل على أذنيَّ وحنكي بلا انقطاع. كانت شفتاي ملتهبتين كأنهما غمستا في ملح خالص وكانت حنجرتي مبلّلة.

وتحت الشعار المرفوع فوق البلاط وجدتُ حذائيّ يتحركان بمشقة بينما أحذية الآخرين تمشي بيسر. كانت في أياديهم خرافٌ صفيحيةٌ أو أوراقٌ متموّجة. رأيتهم بجنبي رغم بُعدهم عني. لكن شعرهم على رؤوسهم وهو لوحده الذي بدا قريباً لي وأكبر حجماً من قمصانهم وملابسهم.

لم أعد افكر بنفسي بعد، انتابني خوف مُروّع على تيريزا. اطلقتُ لعنةً للمرة الثانية.

كانت تيريزا في ذلك الوقت عند المدير. كان قد أمر

باستدعائها. وبعد ثلاث ساعات تركها تذهب لشأنها بعد أن كنت قد خرجت من البوابة مطرودة. تقرر أن تنتمي إلى الحزب وتبتعد عني. وبعد ثلاث ساعات قالت: حسنا.

كان على تيريزا أن تجلس في الصف الأمامي أثناء الجلسة المنعقدة بعد ظهر ذلك اليوم، أمام الغطاء الاحمر لطاولة الرئاسة. وبعد كلمة التقديم جرى تكريم والد تيريزا. وبعد ذلك قام رئيس الجلسة بتقديم تيريزا للحاضرين. طلب اليها أن تنهض وتتقدم، قالَ، لكي يرى الناس العضوَ المجد قبيل الانتماء إلى الحزب. نهضت تيريزا وأدارت وجهها نحو القاعة، صرّت المقاعد واشرأبت الأعناق. أحست تيريزا بما كانوا ينظرون اليه: ساقيها.

أحنيتُ رأسي كما هو المطلوب عند الظهور أمامَ جمعٍ من الناس، قالت تيريزا فيما بعد. ضحك البعض وصفّق البعض الآخر حتى. ثم بدأتُ باطلاق اللعنات. وسرعان ما توقفوا عن الضحك والتصفيق إذ لم يكن أحد في رئاسة الجلسة يصفّق. احسّوا وكأنهم فوجئوا متلبسين فأخفوا أيديهم.

قالت لهم تيريزا: يمكنكم الوقوف على رؤوسكم واصطياد الذباب بفتحات شروجكم. وضَعَ أحد الجالسين في الصف الاول يديه على فخذيه. كانتا حمراوين مثل غطاء الطاولة. اذناه أيضاً كانتا حمراوين بالرغم من انه لم يجلس فوقهما. فَغرَ فاه، أخذ نَفَساً وكوّر أصابعه. أمّا جاره النحيف ذو الساقين الطويلين، فقد بدا لتيريزا كعلامة تدعوها للجلوس والسكوت ووضع الحذاء عند الكعبين. سحبت قدمها بعيدا وقالت: أن لم يكفكم هذا فيمكنكم أن تجهدوا أنفسكم حتى يخطر ببالكم شيءٌ أفضل.

حافظتُ على هدوء صوتي، قالت تيريزا. إبتسمت فظن اولئك في البدء اني اريد أن اشكرهم لثنائهم على أبي. ولكن

وجوههم سرعان ما انقلبت إلى وجوه بُومٍ وصارت في القاعة عيون بيضاء أكثر من الجدران.

وعلى غير انتظار جاء كورت إلى المدينة في أحد أيام الاربعاء. جلستُ بالرغم من الشمس في الغرفة في ذلك اليوم الصيفي، لأنني كنت اضطر على البكاء بسرعة خصوصاً وانا بين الناس في الخارج. كنت أجلس في وسط غرفة الترام لكي أستطيع الصراخ بصوت عال ولأنني كنت أخرج مسرعة من المتجر إلى الشارع لكي لا أضطر إلى خدش الناس وعضهم.

اعطى كورت ولأول مرة باقة ازهارٍ إلى السيدة مارغيت، ربما لأنه أتى في منتصف الاسبوع. كانت الباقة مقطوفة من الحقل، أزهار خشخاش وأزهار قراص الحمام. وهي ذابلة بسبب طريق السفر. ستستعيد نضارتها إن وضعت في الماء، قالت السيدة مارغيت. لم تكن الحاجة قائمة لجلب الأزهار، فقد كانت السيدة مارغيت تبدي مرونةً واضحة منذ أن طُردت من عملي. كانت تمسح بيدها على شعري لكنني اشعر ببرودة في داخلي. لم أستطع دفع يدها بعيداً عني ولا كنت قادرةً على تحمّلها. حتى مسيحُها المعلّق أمامي كان ينظر اليّ حينما قالت: عليك بالصلاة، يا طفلتي، الرب يفهم كل شيء. تحدثتُ عن النقيب بيله وتحدثتْ هي عن الرب. كنت خائفة من أن أصفعها بيديَّ على وجهها.

قالت السيدة مارغيت أن شخصا ما حضر اليهم وسأل عني. كان جسمه يفوح برائحة عرقه. ظنّت أنه باحث عن بائعات الهوى، فليحمن الرب، وأضافت: كما هي الحال مع الكثير منهم، لا أحد يستطيع التعرف عليهم ويكشف أمرهم وأن الرجل قد اراها هويته الشخصية، وأنها لم تستطع التمييز جيداً بدون

نظارة من كان واقفاً امامها، وقبل أن تستطيع قول أي كلمة كان دخل الغرفة. لكنه استأذن على أي حال. وقد لاحظت من استماعها إلى الأسئلة أن الرجل ليس بباحث عن الجنس.

انها تدفع الايجار وتذهب إلى العمل، لا أعرف أكثر من ذلك، هذا ما كان من جواب السيدة مارغيت لهذا الرجل. ثم أنها رفعت يدها. اني أُقسم، قالت، مع الاشارة إلى المسيح: اني لا أكذب وهو شاهدي.

كان ذلك في الربيع. أروي هذا الحدث الآن لأول مرة لأن الرجل ذهب ولم يعد ابدا. وحينما همّ بالذهاب اعتذر وقبّل يدي. كان مهذبا يعرف أُصول اللياقة لكنه كان يفوح برائحة العرق.

وأنها دأبت على الصلاة من أجلي منذ ذلك الحين. أن الرب يستمع لي، وانه بعلم أنني لا اصلّى لكل الناس. ولكن عليك انتِ ايضاً أن تصلّي قليلا.

جاء كورت بصورة مفاجئة لأن إدغار وغيورغ كانا قد اتصلا به من المصنع واخبراه أنهما طُردا من المذبح، قال كورت: أن أحد المبرمجين قال لهما انكما مطرودان لكثرة التغيُّب. وأن الادارة تريد التحدث مع تيريزا ثم انقطعت المكالمة.

ظل كورت طوال الليل يشكو من الآم الاسنان. كان شعره مشعثا. المعروفُ أنه لا يوجد طبيب أسنان في القرية، فسكان القرية كلهم يذهبون إلى ورشة الاسكافي. لدى الاسكافي كرسيٌ مزوّد بلوح أمام بطن الجالس ويمكن حصره به. يجلس المريض على الكرسي ويربط الاسكافي السن المصابة بخيط قوي. وعلى الطرف الآخر للخيط يشد عقدة ويعلقها على مدق باب الورشة.

وبِركْلةٍ ثابتة يغلق باب الورشة ويقلع الخيط السن من الفم. ويدفع المريض أربعين لاياً [رومانيا]، بقدر ثمن زوجٍ من النعال الصغيرة، قال كورت.

لم تُطرد تيريزا بعد الجلسة الحزبية ولكنهم نقلوها إلى مصنعٍ آخر.

قال كورت: هي صبيانية وليست سياسية. كان أبوها ناضجاً لذا يمكنها أن تبقى صبيانية. كانت زوايا عينيه اكثر احمراراً من شعره وكان فمه رطبا.

قلت: أبي أيضا كان ناضجاً، وإلاّ لما انتمى إلى فرقة أس أس. كان سيصب التماثيل وينصبها في أطراف البلد. كان سيسير للحرب دائما. اما أنه لم تعد فيه فائدة سياسية بعد الحرب فذلك ليس ندمه. لقد انطلق نحو الاتجاه الخطأ، هذا كل ما في الامر.

كان الجميع صالحين لاستخدامهم مُخبرين سريين، قال كورت سواء كانوا عند هتلر أو عند انتونيسكو. وبسبب ندبة على إبهامه خِلتُهُ ابن شيطان. بعد موت هتلر بسنتين بدأوا يبكون على ستالين. ومنذ ذلك الوقت يساعدون تشاوتشيسكو على ارتكاب الفظائع. المخبرون الصغار لا يتطلعون إلى المراكز العالية في الحزب. وباستطاعة المرء أن يستخدمهم دون حياء أو تردد. اعضاء الحزب يحملون انفسهم عبئاً ثقيلاً حينما يرغبون في وظيفة المخبر السري. إذ انهم سيستطيعون الدفاع عن انفسهم بطريقة أفضل.

قلت: حينما يرغبون. كنت أكره اظافره المتسخة، لأنها كانت تسيء الظن بتيريزا. أكره ذقنه الغائرة لأنها نصف مقنعة. أكره زره المرتخي في قميصه، لأنه على وشك السقوط مع الخيط الاخير.

سألت: كم على الإنسان أن يبذل من الجهد لكي يصبح سياسياً مثلكَ؟ نزعت الزر المرتخي من قميصه، وسحبت الخيطَ الأخير ودسسته في الفم. مدّ كورت يده ليضرب يدي لكن الضربة ذهبت في الهواء.

انكَ تسمّي سوءَ ظنِك دِقّة، قلت والخيط فوق لساني والزر في يدي، لكنك تنسى صورك عند تيريزا. قال كورت: لا يلحقها أي ضرر إن عثر أحدهم على الصور عندها.

قلت: تظن انك أن لم تثق بأحد ستصبح غير منظور. نظر كورت إلى صورة الميتة حديثاً وفستانها الفضفاض المنقوش ومظلتها ثمّ قال: كلا، لن يتركنا بيله بعد الآن لحالنا. عضضت على الخيط في فمي وبَلَعْتُهُ: هل سبق لأحد أن اختار أباه. شَبَكَ كورت رأسه بيديه. هناك اناسٌ لم يعودوا يعرفون آباءهم. سألت: مَنْ؟ فهوى بضربة باصابعه على الطاولة الخالية وكانه يتوقع أن يشخشخ طائر الدغناش. كل زوج من الاصابع يحدثان صوتاً مختلفا اذا نقرا على الخشبة ذاتها.

فكرت لنفسي: نحن نعرف بعضنا معرفةً جيدة ونعرف أننا نحتاج إلى بعضنا. ولكن ما مدى سهولة كسب اصدقاء آخرين لنا، لو لم تكن لولا قد ماتت في الدولاب.

قلت: إذهب إلى طبيب الاسنان، أنك تغار لأن لا أحدَ يستطيع مساعدتنا. قال: أنتِ ايضاً ستصبحين صبيانية سخيفة.

ثم ارخى يديه مثل طفل. لكنني دسست الزر في فمي: اتركه هنا قبل أن تفقده. جعجع الزر بين أسناني. سألَ كورت: أينَ لُعبة طير الدغناش؟

كتبت رسالة إلى أمي واخبرتها أنهم طردوني من عملي. تسلّمت الام الرسالة في اليوم التالي وبعد يوم واحد تسلّمتُ جوابَها:

أعرف ذلك من أهل القرية سأحضر يوم الجمعة بالقطار المبكر إلى المدينة.

كتبت لها الجواب:

لن أحضر إلى المحطة في وقت مبكر. سأكون في الساعة العاشرة عند النافورة.

لم يسبق أن تم تبادل الرسائل بتلك السرعة أبدا.

وصلت الأم في الصباح الباكر إلى المدينة. التقينا عند النافورة. كانت تحمل بيديها سلتين فارغتين وأمام قدميها كانت حقيبة مملوءَة. قبلتني عند النافورة دون أن تضع السلتين على الارض. قالت: لقد اشتريت كل شيء، احتاج بعد إلى زجاجات حفظ المخللات فقط.

اخذت منها الحقيبة الثقيلة. ذهبنا إلى المتجر. لم نتحدث مع بعضنا. فلو اني حملت إحدى السلتين المتشابهتين لبدونا للناس الغرباء مثل أُم وابنتها الصغيرة. لذا كان المارة يسيرون من بيننا بين حين وآخر حيث كنا نمشي وبيننا مسافة تسمح لهم بذلك.

في المتجر طلبت الأم خمس عشرة زجاجة لحفظ الخيار والفلفل والجزر الأحمر. سألت كيف ستحملين كل هذه الاشياء؟ قالت: لا يمكن لأحد أن يحفظك حقاً، لا المصنع ولا الزوج. القرية كلها تعرف أنكِ مطرودة.

سأحمل زجاجات الخضروات والحقيبة، احملي انت زجاجات الفواكه. طلبت سبع عشرة زجاجة إضافية لحفظ البرقوق

والتفاح والخوخ والسفرجل. كانت للام ثلاثة تجاعيد على جبينها وهي تعدُّ الخضروات والفواكه. وصار عليها اثناء العد أن تستعرض في رأسها انواع البنجر والاشجار، لكي تتذكر كل شيء. كانت الزجاجات التى صفّها البائع حسب الترتيب فوق المنصة متشابهة.

قلت: ان كل زجاجة تشبه الاخرى. رزمها البائع. قالت الام: نعم انها متشابهة بالتأكيد، لكن يجوز للمرء أن يقول لأي غرض يريد تلك الزجاجات. عليّ أن اضيف الجدة إلى اولئك. قالت: في الشتاء حينما يتناول المرء المخللات ستكون امامه في البيت. إنكِ لا تأتين إلى البيت. وقد سمعت الناس في القطار يتحدثون عنك بأنك حامل في الشهر الثالث. لم يعرفوا انني كنت في العربة ذاتها لاني كنت أجلس في الخلف وقد سمع الذين كانوا بقربي تلك الأقاويل أيضاً وصاروا ينظرون نحو الاسفل. كان بودي أن أندس تحت المقعد.

ذهبنا إلى ركن الحساب، بصقت الأم بَصْقةً بين الابهام والسبابة ودفعت المطلوب. انك تنظرين متعجبة، ألا تعلمي أن العمل يجعل الايادي خشنة.

وضعت الام السلتين على الارض، فرقت بين ساقيها وتناولت إحدى السلّتين ووضعت فيها الزجاجات. قالت: هل فكرت ولو لمرة واحدة في حياتك كلها، بأن على الأم أن تخجل؟

صرختُ في وجهها: أن لم تتركيني وشأني وإن نطقت بكلمة أخرى فلن تريني بعد الآن أبدا.

بَلَعَتِ الأُم ريقها، وقالت بصوت خافت، كم الساعة الآن؟

كانت في معصمها واحدة من ساعات الأب الميتة. سألتُ:

لماذا تحملين هذه الساعة؟ انها لا تعمل. قالت: لا أحد يعرف بذلك، ولكنك أيضاً لديك واحدة! قلت: أنا ساعتي تعمل والاّ لما حملتها. قالت: حينما أحمل ساعة أعرف اموري بطريقة أفضل، حتى وإنْ كانت لا تعمل. لماذا تسألين إذاً كم الساعة؟

قالت الام: لأن المرء لا يستطيع التحدث اليك حول شيء آخر.

كانت السيدة مارغيت قد قالت: لا موسيقى بدون نقود. لكن ماذا ينبغي على المرء أن يعمل إن لم تكن لديه نقود لدفع الايجار؟ أستطيع أن انتظر شهرين، فليكن الرب في العون، لذا لن أبقى لوحدي. ليس سهلاً العثور على فتاة المانية أو هنغارية ولا أقبل بأي شخص آخر في بيتي. تبعاً لميلادك فانت كاثوليكية وستؤدين الصلاة ايضا. لدى الرب الوقت الكافي اكثر منا نحن البشر. الرب يرانا منذ ولادتنا، الاّ اننا نحتاج إلى وقت طويل حتى نراه. قالت السيدة مارغيت: حينما كنت شابة لم اكن أُصلّي، . أدرك لماذا لا ترغبين في العودة إلى الريف، فهناك يقيم المسحوقون فقط. فأن بقي إنسان جاهلاً بما يدور حوله قيل له في بيست أنت فلاح.

أرادت السيدة مارغيت أن تشتري جبنة طرية في السوق. قالت: إنها جبنة غالية جدا, تذوقت قطعة صغيرة، صرخت الفلاحة في وجهي: بهذه الأيدي القذرة. اني اغسل يديَّ لمراتٍ عديدةٍ في اليوم أكثر مما تفعله هي في شهر. أما الجبنة فكانت حامضةً كالخل.

سمعت، السيدة مارغيت قالت أن كثيراً من الفلاحين في هذه الأيام يضيفون الطحين إلى الجبن، انها خطيئة أمام الرب، والرب نفسه يعرف أن الفلاحين لم يكونوا يوماً اناساً طيبين.

قلت لتيريزا: ستمسح السيدة مارغيت على رأسي مقابل تأجيل الأيجار. انها تعطي لنفسها ذلك الحق. ولما كانت لا تحصل على نقود بدل الغرفة فإنها تطالب بالمشاعر. فإن سددت الايجار بسرعة لا تصل أياديها إلى رأسي.

دبرت تيريزا لي دروساً خصوصية في اللغة الالمانية. صار عليّ أن أقوم بتعليم صبيين في البيت لثلاث مرات في الأسبوع. كان والدهما رئيس عمال في مصنع الفرو، والأم ربة بيت ويتيمة سابقة. اما الصبيّان فكانا بطيئي الفهم.

للأب موارد مالية جيدة، ولذا لا تولي الأُم اهتماماً بأي شيء آخر.

كانت تيريزا قد تعرفت على صاحب الفرو واولاده في حمام الينابيع الحارة. قالت تيريزا: الولدان ودودان وفيهما نزعة إلى الأُلفة تجاه الآخرين. وحينما ذهبت تيريزا لارتداء ملابسها قال الأب: لنذهب نحن أيضاً إلى البيت. لكنه أرسل الأطفال من غرفة تغيير الملابس إلى حوض الماء مرة أخرى وتسلل إلى كابينة تيريزا بلباس السباحة المبلل. راح يلهث وأمسك بثديي تيريزا. دفعته إلى خارج الكابينة. لم تستطع غلق الباب لأن الباب كان بدون مزلاج. بقي واقفاً أمام الكابينة. شَاهَدَتْ تيريزا أصابع قدميه من تحت الباب. لقد فكرت أن لا فائدة من هذا. قال لها كانت هذه مجرد مزحة، لم يسبق لي أن خنت زوجتي أبدا.

صاح: تعالا حالا. سمعت تيريزا صفقَ ارجلِ الطفلين المبتلة. على أرضية الحمام. وحينما خرجت من الكابينة كان صاحب الفرو في كامل ملابسه. قال: إنتظري بربك، لم يُسيء الاولاد لك، انهما جاهزان حالا.

سمعتُ صراخاً في بيت السلم. كان صادراً من الطابق الثالث. هناك كانت الشقة التي يفترض أني أُعلّم الطفلين فيها. وحينما وصلت إلى الباب لم أستطع طرق الباب. كان باب الشقة مخلوعاً ومركوناً في بيت السلم على الحائط. والدخان يخرج من الشقة.

كان فم صاحب الفرو يقطّر سائلا ويلفظ كلاما غير مفهوم. رائحة الكحول تفوح منه. قال: اللغة الالمانية جيدة وتفيدنا دائما فلا أحد يعلم ماذا سيحل بنا. كانت عيناه تُشبهان حوصلة ضفدعٍ بيضاء. كانت الزوجة تنظر من النافذة المخلوعة والدخان الكثيفَ يلف المكان ويلفها قبل أن يخرج مِثْلَ وسادةٍ إلى الخارج ثمَّ يرتطم بالأشجار. لم يكن هواءُ عصرِ ذلكَ اليوم منعشا فدفع بالدخان إلى داخل اغلفة الجدران الكارتونية.

كان الطفل الأصغر يمسك بقوة بمنشفة الاطباق وهو يبكي. والطفل الأكبر يضع رأسه فوق الطاولة.

الالمان شعب فخور بنفسه، قال صاحب الفرو، نحن الرومانيون كلابٌ ملعونة. قطيعٌ جبان، يستدل الإنسان على ذلك من حالات الانتحار. كلهم ينتحرون شنقاً ولا احد منهم يطلق النار على نفسه. كم كان هتلركم يشك في نوايانا ارجع إلى فَرجِ أُمك، صرخت المرأة. صاحب الفرو حطم الدولاب: هذا شيء جيد ولكن أين أُمي؟

على أرضية المطبخ كرات من فتات الخبز. قبل بدء العراك كان الطفلان قد تراشقا بها.

دسّ صاحب الفرو سيجارة في زاوية فمه. كان يتمايل بيديه ورأسه. شعلة ولاّعته فشلت في تحديد مكان السيجارة. سقطت

السيجارة على الأرض. ظل ينظر اليها طويلاً آثر على أن يمسك بالولاّعة وشعلتها تلتهب بصورة مائلة فاكتوى إبهامه دون أن يحس بذلك. انحنى وكانت ذراعه قصيرة. تلاشت الشعلة عائدة إلى الولاعة. نظر إلى الطفلين لم يساعداه. ترنّح وسقط على أرض الممر كان قاب قوسين من السيجارة.

وفي بيت السلّم هوى الباب على أرض الممر محدثاً ضَجّةً صاخبة. ركضتُ إلى بيت السلّم. كان صاحب الفرو ممدداً على أرض بيت السلم، تحت الباب. زحف خارجاً من هناك وترك الباب ملقى حيث كان. وبأنفٍ نازف تحامل على نفسه وشرع بنزول السلالم.

أراد أن ينقل الباب إلى الشارع، قلت، وقد وصلت إلى المطبخ: لقد ذهب.

قال الطفل الأصغر: لقد خلع الباب في وقدة غضب، ثم حبس نفسه في الغرفة وجلس على طاولة المطبخ وبدأ يشرب الكحول. ذهبتُ لكي استدعي الأُم من الغرفة لأن الرجل قد هدأ تماما. كانت الزوجة تنوي اعداد فطائر محشية. سَخُن الزيت. رشّ الزوج مشروباً على النار وعلى الزيت. قال انه يريد احراقنا. تصاعد اللهب وكاد يحرق وجه الأُم. طالت النار دولاب الجدار. تسنى لنا اطفاؤها على الفور.

انها تصل الآن لأول مرة إلى خضم هذا الجنون، قالت المرأة للطفل. اتجهت بتثاقل نحو الطاولة وجلست على الكرسي.

قلت: لا بأس. لكن الأمر كان مزعجا مثل كل شيء لا أستطيع تحمّله ولا أنا قادرة على تغييره. مسحت بيدي على شعر امرأة غريبة عنى كما لو كانت صديقة مقرّبة. تغير حالها تحت

مسحات يدي لكن قلبها كان يحترق غمّاً وهو يحمل حبها الوفي الذي لم يتبق منه سوى طفلين ورائحة دخان نتنة وبابُ شقة مخلوع. ويدٌ غريبة تمسح على شعرها.

نشجت المرأة بالبكاء. أحسستُ أن حيوان قلبها يقفز من داخلها إلى يدي. كان يقفز يمنةً ويسرة، بينما أنا أمسح على شعرها، بوقعٍ أسرع.

قال الطفل الأكبر: إذا ما حل الليل سيعود أبونا مرة أخرى

كان شعر المرأة قصيراً، شاهدت فروة رأسها. وبين أشجار الحور حيث تراجع الدخان اليها شاهدت امرأة شابة تغادر بيت الأيتام. كنت أعرف أين تقف في هذه المدينة كنت أعرف التمثال المنتصب هناك عند السور. كان والد تيريزا هو الذي صب تمثال الأم الحديدي فوق القاعدة مع الطفل الحديدي عند السياج الصخري. كان هناك باب رمادي اللون خلف التمثال. كان الوقت متأخراً لعودة المرأة. جسدها خلف الباب سيكون أطول مما ينبغي بالنسبة لسرير مخصص لطفل. كانت مشطوبة من بين الأيتام ومن السنين والذين كانوا في الخارج ينتظرون الحب في عش الفرو العائد لرجل. كل شيء في بيتهم، أغطية الفرش ووسائد الصفّات والسجاد والخفاف كانت مصنوعة من الفرو، قماش التنجيد في المطبخ وحتى مَسّاكة الاواني الساخنة.

نظرت المرأة إلى الطفلين وقالت: ما الذي ينبغي للمرء أن يعمله؟ لا خير في كليهما فهما يمثلان حزمة هموم للعائلة.

يذهب الطفل إلى الغرفة حينما يضطر للبكاء. يغلق الباب ويخفض مصاريع النافذة ويشعل النور. يقف أمام مرآة الحمام التي لم يسبق لأحد قبله أن تزيّن أمامها. لهذه المرآة جناحان

قابلان للفتح والاغلاق. وهي على شكل نافذة يرى المرء نفسه فيها باكياً لثلاث مرات. ويظهر فيها رثاء النفس أكبر بثلاث مرات مما هو في الفناء. لا تدخل الشمس إلى هذا الحمام. إذ ليس للشمس مَشاعر رثاء النفس كونها مجبرة على الوقوف في السماء دون سيقان.

ترى العيون في المرآة أثناء البكاء طفلاً واقفاً لا أهل له، ومعه تبكي مؤخرةُ رأسِهِ وأُذناه وكتفاه. وحتى أصابع قدميه تبكى على بُعْدِ ذراعين من المرآة، بكاء يحرق الوجنتين.

احدثت مطحنة البن ضجيجاً عالياً اثناء عملها حتى اني شعرت به في أسناني. عود الثقاب أزَّ أمام فم المرأة. التهمت الشعلة العود بسرعة وكَوَتْ أصابعها حينما توهج الغاز حول قرص الموقد وسُمِعَ خريرُ ماءِ الحنفية.

صعدت كتلة بخار رمادية من إبريق القهوة، وضعت المرأة القهوة في الإبريق فطفح مثل تربٍ من فوق الحافة.

امسك الطفل الأصغر بمنشفة الصحون تحت الماء البارد، طواها ووضعها على جنبيه.

شربنا القهوة أنا والمرأة والغزال الخزفي ينظر الينا. وعند الرشفة الثانية لامست ركبتها ركبتي تحت الطاولة. اعتذرت المرأة بالرغم من أنني سبق أن مسحتُ على شعرها. كان الدخان قد خرجَ من الشقة لكن الرائحة النتنة كانت باقية. تمنّيت لو لم اكن موجودة حيث أمسكتْ يدي بكوب القهوة.

قالت المرأة: إذهبا إلى تحت حيث الرمل، ولا تعودا أبدا.

القهوة مركّزة قاتمة كالحِبْر، مرت الجملة على لساني حينما رفعت كوبَ القهوة. كانت في حضني بقعتا قهوة. وبدا طعم

القهوة كما لو أنه يُنذر بقرب عراك.

جلستُ منحنيةً وسمعتُ خطوات الأطفال السريعة وهم ينزلون درجات السلم. نظرت إلى الكرسي بحثاً عن الشفقة تجاه المرأة. كان نموذج نقش الاوراق في فستاني يصل حتى الكعبين. وفي الجزء الخلفي للكرسي الذي كنت اسند ظهري عليه، كان يجلس بين المرفقين في الأمام شيءٌ لا حياة فيه إضافة إلى بقعتى قهوة في حضني.

وحينما توقف ضجيجُ خطواتِ الأطفال وهم ينزلون درجات بيت السلم اصبحتُ إنسانةً تجالس المصيبة لكي تبقى.

انا والمرأة قمنا بتثبيت باب الشقة. بدأتِ العمَلَ وكانت قويةً لأنها كانت تركّز فِكرها على الباب فحسب. أما أنا فقد كنتُ أفكر بها. لأنني سأنطلق وستبقى هي خلف هذا الباب وحيدة.

أتَتْ بمنشفةِ الصحون المبلّلة من المطبخ وازالت بقع دم زوجها من الباب.

في طريق العودة إلى البيت كنت أحمل في يدي قبعةً من فرو القندس بينما تشتعل شمس مساءٍ كاملة فوق رأسي. كانت السيدة مارغيت تلبس مناديل رأس وليس قبعات فرو. قالت مرة: القبعات والفرو تجعلان النساء فخورات، والرب لا يحب النساء الفخورات.

عبرتُ الجسر على مهل، ورائحة النهر كانت أيضاً كرائحة الدخان. فكرت بالصخور وتحققت من أن الفكرة لم تكن في رأسي. وإنما في الخارج وقد تجاوزتني. كان بمقدورها، كيفما يطيب لها، ببطءٍ أو بسرعة، أن تبتعد عنى وكابتعادها عن قضبان سور الجسر. وقبل أن ينتهي الجسر أردت أن أعرف أن كان النهر

متمدداً على بطنه أم على ظهره في هذا الوقت. كان ماءُ النهر منبسطاً بين الشاطئين خطر لي أني لا احتاج إلى قبعة فرو بل إلى مال لكي لا تمسح السيدة مارغيت على رأسي.

حينما دخلتُ الفِناء كان حفيد السيد غروبيرغ جالساً على السلم. والسيد فاير آبند ينظّف أحذيته بالفرشاة امام الباب. كان الحفيد يلعب لعبة مفتشٍ تذاكر السفر مع نفسه. حينما يجلس فهو مسافر واذا وقف كان هو المفتش. قال: التذاكر رجاءً. أخذ التذاكر بيد من يد الى أخرى. اليد اليسرى كانت تعني المسافر واليد اليمنى تعني المفتش.

السيد فاير آبند قال: تعال إلى هنا. ثم سأقوم بدور المسافرين. قال الطفل: أفضّلُ أن أكون كلَّ شيء معا، فأكشف الذي لا يجد تذكرته.

سألته كيف حال إيلزا؟ نظر السيد فاير آبِنْدْ إلى قبعة الفرو في يدي: من أين أنت؟ انك تفوحين برائحة الدخان.

وقبل أن أجد كلمةً وضع الفرشاة في أحد الحذائين، نهض وأراد أن يمر بالطفل. مد الطفل ذراعه وقال: لا أحد يغيّر العربة هنا، ابقوا حيث أنتم. رفع السيد فاير آبند ذراع الطفل دون أن يقول كلمة واحدة وكما تُرفعُ عارضة. كان قد أمسك بالذراع بشدة أكثر مما ينبغي. كانت آثار أصابعه ظاهرةً على ذراع الطفل، حينما نزل السيد فاير آبند درجات السلم متجهاً إلى غابةِ أشجار البقس.

كان إدغار قد علّق على طردنا من عملنا قائلاً: نحن الآن في المحطة الأخيرة. هز غيورغ رأسه: في المحطة ما قبل الأخيرة، الأخيرة هي ترك البلد. إدغار وكورت هزّا رأسيهما بالموافقة.

هززتُ رأسي بالموافقة أيضاً دون أن اردف ذلك بأي تصوّر. لقد حدث ذلك تلقائياً وهو أننا، ولأول مرة، تلقينا وقعَ هذه الكلمة علينا بهدوء.

خبأت قبعةَ الفرو في زاويةٍ خلفيةٍ من زوايا الدولاب. قلت لنفسي: لربما كانت في الشتاء أجمل مما هي الآن، . كانت تيريزا قد جرّبت القبعة وقالت: أن رائحتها مثل رائحة الاوراق المتعفنة. لم أعرف أن كانت تعنى القبعة التي كانت على رأسها لأنها كانت قبل ذلك بوقتٍ قصيرٍ قد أرتني العقدة في إبطها. زرّرَت بلوزتَها وشاهَدَتِ القبعةَ في المرآة. ثارت تيريزا غضباً لأني قلت أن العقدة كانت أصغرَ حجما لاسبوعين خَلَيَا. كانت تريدني أن اكذب. كنت أُريدها أن تراجع طبيبا. قلت لها سأذهبُ معكِ. فزعت وقطّبت حاجبيها وتقززت من فرو القندس الخشن على جبينها. سحبت تيريزا القبعة من رأسها بشدة وشمّتها. ثمَّ قالت: أنا لستُ طفلةً.

في المساء عبثتُ طويلاً مع لعبةِ طير الدغناش. لم يَعُدْ منقار الدجاجة الحمراء يصل إلى اللوحة. فهي قد لَوتْ رَقَبَتَها كما لو أنها مصابة بالدوار ولم تستطع نقر الاشياء من على الأرض. كان الخيط الذي يحرك رقبتها عبر بطنها نحو الأعلى ونحو الأسفل قد اشتبك واضطرب. سقط النور على ذراعي ولم يبلغ بُقع القهوة في حجري. كانت الدجاجة الحمراء تلمع بجنون وجفاف مثل كلب سلوقي. وبالرغم من عجزها عن النقر فإنها لم تبدُ مريضة بل شبعانة ومتلهفة للطيران.

نقرت السيدة مارغيت على الباب وقالت: أن الضجيج عال ولا أستطيع أداءَ الصلاة.

قال النقيب بيله: أنتِ تعيشين من ساعات التعليم وتحريض

الشَعبِ والدعارة المتجوّلة. وكلها ضد القانون. كان النقيب بيله يجلس على مكتبه الصغير الكبير بينما وقفتُ أنا امام طاولة خطايا صغيرة خالية عند الجدار الآخر. رأيتُ كعبين صغيرين تحت الطاولة وعلى الرأس صلعةً رطبة ومقوّسة مثل سقف حلقي. رفعت رأس لساني. كان لتجويف الفم في لغة النقيب بيله اسم معناه سماء الفم. رأيت الصلعة مطروحةً فوق وسادة تابوت متسخة بنشارة خشب والكعبين تحت برقع.

وكيف حالك إذاً؟ سأل النقيب بيله. لم يبدُ وجهُهُ خبيثا. عرفت أن عليَّ أخذ الحذر، لأن الشدة كانت تأتي دائماً من الخلف، حينما كان وجهُهُ هادئاً. اني محظوظةٌ مَعَكَ، قلت. اني على الحالة التي تريدونها أنتم. انكم حقا تعملون من أجل ذلك.

قال النقيب: أمكِ تريد تركَ البلاد، هنا أمامي وثيقة مكتوبة بذلك. هزّ بورقة مكتوبة. كانت مكتوبة بخط يدٍ لكنني لم أُصدق بأنها كانت من يدِ امي. قلت: اذا كانت تريد الخروج فأنا لن أطلب الخروج في المدى البعيد القادم.

وفي اليوم نفسه سألتُ الأمَّ في رسالة قصيرة أن كانت الكتابة بخط يدها. لم تصلها الرسالة أبدا.

وبعد مرور اسبوع على مقابلتي له كان النقيب بيله قد قال لإدغار وغيورغ بانهما يعيشان على تحريض الشعب والتطفل. وذلك ضد القانون. كل فرد في هذا البلد يقرأ ويكتب وإذا رغب الناس فيستطيع كل إنسان أن يكتب قصائد دون معاداةٍ للدولة أو الانتماء إلى منظمة إجرامية. الشعبُ نفسه هو الذي يصنع فَنَّه، ولذا لا يحتاج بلدنا إلى حفنة من الخارجين عن المجتمع. فإن كنتم تكتبون بالالمانية فاذهبوا إلى المانيا، لربما تشعرون هناك بانكم في الوطن في مدينة موراست، التي كنت أظن أن فيها

ستعود لكم عقولكم.

قلع النقيب بيله شعرة من رأس غيورغ. رفعها أمام مصباح المكتب وضحك. مضروبة قليلاً من الشمس كما عند الكلاب. لكن لون الشعر يعود إلى ما كان عليه في الظل. إذ أن باطن الخلايا بارد.

قال النقيب: الان يمكنكما أن تنصرفا كان الكلب بيله قابعاً أمام الباب. سأل إدغار: هل تفضلتم بمناداة الكلب اليكم؟ فرد النقيب بيله: لماذا؟ انه قابع أمام الباب وحسب.

زمجر الكلب بيله. لم يقفز. خدش أحذية غيورغ وعضعض حاشية بنطلون إدغار. وحينما وصل إدغار وغيويرغ الممر في الخارج، انطلق صوت خلف الباب: بيله، بيله. قال إدغار: لم يكن ذلك صوت النقيب، لربما كان الكلب ينادي النقيب اليه.

فَرّشَ غيورغ أسنانه بسبابته يمنةً ويسرة فَسُمعَ صريرها. وضحكنا. هكذا يتصرف المرء، قال غيورغ، إذا جرى اعتقاله بدون فرشة أسنان.

ذهبت ثلاث مرات لتعليم أطفال صاحب الفرو اللغة الالمانية. كانت الأُم طيبة والشجرة خضراء والماء يجري.

الرمل ثقيل، لم يردد الاطفال هذه الجملة بل قالوا: الرمل جميل. لم يقولوا، الشمس مُحرقة، بل قالوا: الشمس مشرقة. كيف يقول المرء بالألمانية «العامل المتميز»؟ أراد الاطفال أن يعرفوا وكيف نقول «صياد» وكيف نقول «رائد»؟

السفرجل ناضج، قلتها باللغة الالمانية وانا افكر بمربية أطفال تيريزا... السفرجل مكسوٌ بالزغب، السفرجل مصاب بالدود.

بِمَ يُشبّه هؤلاء الاطفال رائحتي يا ترى؟

لا نحب السفرجل، قال الطفل الأصغر، والفرو، سألته. قال الطفل الاكبر: يا لها من كلمة قصيرة، قلت: الجلد؟ قال الطفل: هذه الكلمة ليست بأطول من السابقة

وحينما حضرت للمرة الرابعة لتعليم اللغة الالمانية، كانت أمُ الاطفال واقفة وبيدها المكنسة في الشارع أمام المجمّع السكني. كنت اراها من بعيد، لم تكن تكنس، كانت تتكيء بمرفقها على المقبض. اقتربت منها فبدأت بالكنس. ألقيت عليها التحية فنظرت اليّ. كانت رزمة ملفوفة بورق الصحف مطروحة على درج السلم.

قالت: الأمور سيئة في المصنع، ليس لدينا المال لدفع اجور التعليم بعد الآن. ركنت المكنسة على الجدار وتناولت الرزمة قدّمَتها لي، وهَمَسَت وسادة من فرو المِنْك وقفازات من جلد الحمل الأصلي

كانت ذراعايَ معلقتين ولم أرفع يدا. **ماذا** تكنسين هنا؟ سألت. أشجار الجوز هناك، والغبار هنا.

رمى مقبض المكنسة الظل ذاته على الجدار مثل ظل معزقة الأب في الحديقة. حينما تمنى الطفل أن يحظى بنبات شوك الحليب وان يبقى إلى ما بعد الصيف.

وضعت المرأة الرزمة الصغيرة على السلم ولحقت بي: انتظري، أقول لك شيئا. جاء أحدهم الينا وتحدث بسوءٍ عنكِ. لا أصدق أي شيء قاله لكن أشياء مثل هذه لا يسمح بها في بيتنا. ينبغي عليك أن تتفهمي، أن الأطفال ما زالوا صغاراً لمثل هذه الأمور.

وعلى الورقة التي هزّها النقيب بيله في الهواء. كانت كتابة

بخط يد الأم. تمَّ استدعاؤها إلى شرطي القرية صباحاً في الساعة الثامنة. املى عليها وهي كتبت. حجز الشرطي الأم في مكتبه لعشر ساعات. جلست عند النافذة. لم تجرؤ على فتحها. وكلما مر أحد طرقت على زجاج النافذة ولم يرفع أحدٌ من المارة في الشارع رأسه. فالناس هناك يعرفون بأن النظر إلى النافذة ممنوع. وما كنت أنا ايضاً لأنظر إلى النافذة من الشارع، إذ لا أحد يستطيع تقديم المساعدة على أي حال.

قالت الأم: ومن شدة الضجر، قمت بمسح الغبار في المكتب. عثرت على خرقةٍ مسح جنب الدولاب. بدلاً من مجرد الجلوس والتفكير بالجدة. قالت الأم: سمعت دقات نواقيس الكنائس قبل أن يصلصل المفتاح. كانت الساعة السادسة مساءً. اشعل الشرطي النور. لم يلاحظ أن كل شيء كان نظيفاً. داهمنى الخوف فلم اذكر ذلك. والآن يؤسفني القول أنه كان سيفرح. شاب وحيدٌ في القرية، لا يقدم له أحد يد العون.

قالت الأم: لقد ساعدني كثيراً، وانا موافقه على ما أملاه عليّ ولولاه لما استطعت لوحدي أن اكتب بتلك الطريقة. هناك بكل تأكيد أخطاء في النص فليست لدي الخبرة الكافية في الكتابة بيدى. ولا بد أن الآخرين سيفهمون ما كتبت وإلا لما استطاع أن يبعث بها إلى دائرة الجوازات.

كانت فوق الفراش بعض سراويل تيترا المتينة. قالت الخياطة: إنها تسعون قطعة، وفوق المنضدة انتصبت قطع كريستال كثيرة. قالت: سأسافر إلى بودابست، لماذا لا تسكنين في البيت وانت مطرودة من العمل. لم يَعُدْ ذلك بيتا. خيّطت الخياطة لنفسها منشفة حمام استعداداً للرحلة.

لن اتواجد في الغرفة اثناء النهار ولكنني سأكون فيها صباحاً

ومساءً. سابقى هذه المرة اسبوعا. قالت: اذا فقد أحد عقله مثل جدتك، لا يمكن أن يكون بلا مشاعر. فعليك العودة إلى البيت من أجلها. وضعت عليها برنس الحمام. فوخزها دبوس إبرة في رقبتها. سحبت الدبوس على الفور. قلت: انت خائفة أن يهجرك أبناؤك حينما يكبرون. ولن يترددوا في توجيه التهم ذاتها التي توجهينها لي الآن.

كانت هناك قلنسوة كبيرة معلقة بالدبابيس. مددت ذراعي داخلها حتى المرفق. أدارت الخياطة رأسها نحوي وقالت: القلنسوة تمثل قلب منشفة الحمام. يستطيع الإنسان أن يبكي دون منديل، لقد تدربت على ذلك ليلة امس. القلنسوة انزلقت على وجهي ومسحت منديل، ولم استطع أن أفعل شيئا أبدا. دسست إصبعي في قمَّتها وسألت: لماذا بكيت.

نزعتُ المنشفة قبل أن اسحب اصبعي من سمت القلنسوة. قالت: اختي وزوجها، هربا اول امس من البلاد. لربما وصلا إلى هناك بأمان، كانت اوراق لعبهما محظوظة، لكن الفأل أظهر لي ريحا ومطراً. لربما كان الطقس هكذا عند الحدود، فقد كان هنا جافاً وهادئاً.

بدأت ماكنة الخياطة بحصر خيوط المنشفة ببطء وتمريره عبر الابرة والبكرةُ سَحَبَتِ الخيط. كان ما قالته الخياطة مضجراً مثل قفز الخيط عبر تعشيقات ماكنة الخياطة.

آمل أن يتعرف عليّ موظف الجمارك. سأرتدي لهذه الرحلة الملابس ذاتها التي كنت ارتديها آنذاك، هكذا اتفقنا، أنا وهو. قالت الخياطة وفي فمها دبوس ابرة: افضّل الشخص، الذي يوصي الناس مقدماً بما يرغبون فيه. فحين أعود يتوافدون عليّ لأخذ حاجياتهم. اما الذين يأتون دون قرار مسبق إلى بيتي يمسون

كل شيء ولا يشترون الا نادراً أو يكادون ألاً يشتروا شيئا.

كانت دبابيس الأبر كلها قد سُحبت من القماش وكانت الأبر، كالجُملِ واحدة تلو الأخرى، مدسوسة في فم الخياطة قبل أن توضع إلى جانب ذراعها فوق ماكنة الخياطة. انجزت خياطة منشفة الحمام مع تعزيز الحواشي لمرتين أو ثلاث مرات. وقامت بعقد نهايات الخيوط لكي لا تنحل أبدا. ضغطت على قمة القلنسوة برأس المقص فبرزت نهايتها. وعلّقت القلنسوة فوق رأسها دون أن ترتدي ما تبقى منها.

قالت: في هنغاريا يمكن للمرء أن يحصل على قزم ذي أنف طويلة، ثمَّ يجعله يهز رأسه. وإذا ضربه المرءُ بشدة أدار الرأس ثم توقف وأنفه تشير إلى جهة ما. فإن سار المرءُ بذلك الاتجاه سيجد الحظ لا محال. هذا القزم غالي الثمن ولكنني في هذه المرة سأجلب معي قزم حظ. غطّت القلنسوة عيني الخياطة: وأسمُ هذا القزم إمْريه. وهو ينظر دائماً إلى اليسار أو اليمين، ولا ينظر إلى الامام قط.

فتحت رسالة الام. بعد أخبار الآم ظهرها ورد ما يلي: جرت مراسيم دفن الحلاق أمس. كان يبدو في الأسابيع الاخيرة هرما طاعناً في السن فلو كنت رأيته قبل موته لما استطعت التعرف عليه. أمس الأول كانت ذكرى ميلاد مريم. جلست في فناء البيت لأنال قسطاً من الراحة إذْ ينبغى على الإنسان الاّ يعمل في يوم عطلة. شاهدت كيف تجتمع السنونوات فوق اسلاك الكهرباء وقلت لنفسي ها قد اوشك الصيف على النهاية. واذا بالحلاق يدخل الفناء. كان يلبس حذاءين مختلفين، حذاءاً قصيراً وصندلا. يحمل لوح شطرنجه تحت ذراعه سائلاً عن الجد. قلت له: الجد مات منذ مدة. فرفع لوح الشطرنج وقال: ماذا اعمل

إذا. قلت: لا يستطيع المرء أن يعمل أي شيء، والافضل أن تعود إلى البيت. قال: أجل أجل، لكنني اريد أن العب جولة معه.

جلس هناك وصار يحاكيني في النظر إلى السنونوات. لم اشعر بالراحة في داخلي. وحينذاك قلت له: لقد ذهب ابي إلى بيتك وهو ينتظرك هناك، فذهب.

بعد طردهم من العمل قال إدغار وغيورغ لي: نحن أحرار مثل كلاب الضاحية. سوى أن كورت يبقى مرتبطاً، لكي يحافظ على سر شاربي الدم. انتقل غيورغ، مؤقتاً، إلى السكن مع كورت في قرية الشركاء في الجريمة.

قال كورت: حينما يسير غيورغ في القرية، تنبح الكلاب كافة، أنه غريب هناك. ولعل الأمر الوحيد الذي لم يبق على غيورغ غريبا: هو أنّه بدأ حكاية حب مع جارة شابة.

مع ابنة شاربِ دماء دائمة الابتسام. بدءاً من الامسية الاولى وبينما كنت خارجاً من المذبح، حضر غيورغ مع تلك الفتاة الساذجة عبر حقل محصود، حيث كانت قبل ظهر ذلك اليوم تنتصب عيدان الذرة. كلاهما كان يحمل بذور العشب في شعره.

صرح غيورغ أن كورت غازل الجارة اثناء مرورهما بالحديقة، لكن الامر كان معكوساً. إذ كانت الجارة قد بادرت بمغازلته كورت.

قال كورت: إن لهاعيون منقطّة، وعجز كأنه سفينة. لا يستطيع أحد التحدث معها إلاّ عن موضوع عصر الطماطة، وحتى عن ذلك الموضوع لا تعرف هذه الفتاة سوى ما نَسيتهُ جَدّتُها من أمور. إنها تفرق ساقيها لكل من هبّ ودب. في أوائل الربيع

كانت تضاجع الشرطي في الحقل وهو يتظاهر بأنه كان يتفقد حالة البنجر هناك. كان إدغار على يقين بأن شرطي القرية هو من ارسل تلك المرأة أول الأمر خلف كورت للتجسس عليه ومن بعده على غيورغ.

بقيت الايام معلّقة بخيط المصادفات. تأرجحت بها فطرحتني أرضاً منذ طردي من العمل.

كانت القزمة ذات الضفيرة العشبية ما تزال جالسة في ساحة ترايان. تحمل في ذراعها كوز ذرة أخضر وهي تتحدث معه. فتقته ورفعت بيدها حُزمة من ضفيرة ذرة فاتحة اللون. مسحت بضفيرة الذرة على خدّها وأكلت الضفيرة والنّويات الغنية بالحليب.

تحول كل ما أكلته القزمة إلى طفل - كانت نحيفة لكن بطنها كَبُرت. كان عمال المناوبة قد مارسوا الفعلة معها تحت ستر ليلة ربيعية يبدو أنها كانت هادئة جدا، راضية بقدرها كونها بكماء. اما الحراس فقد اجتذبتهم أشجار البرقوق إلى شوارع أُخرى. وإما أنهم قطعوا الصلة معها أو أنهم توقفوا عن النظر اليها امتثالاً للأوامر. لربما كان التوقف قد حان بان تموت القزمة أثناء المخاض.

تغير لون الأشجار في المدينة إلى الاصفر، واول تلك كانت أشجار الكستناء ثم الزيزفون. صرتُ منذ الطرد لا ارى على الاغصان سوى حالةً واحدة. أما السماء فكانت احياناً تفوح برائحة الحزن والمرارة والتي كانت رائحتي أنا وليس الخريف. وصار إمعان التفكير في النباتات التي تستسلم طوعاً قبل أن يقوم الإنسان نفسه باخضاعها، صار ذلك الامعان صعباً عليّ. لذا رأيتها أكثر من نظرة حتى بدأت القزمة ابتداءاً من هذا الخريف

المبكر تحشر ضفيرة الذرة ونوى الحليب في فمها.

التقيت بإدغار في ساحة ترايان. جاء حاملاً حقيبة كتّان بيضاء. كانت نصف مملوءة بالجوز، اعطاني الحقيبة متهكماً: إليك إنها مفيدةٌ للاعصاب! وضعت ملء كفٍ من الجوز في حضن القزمة. أَخَذَت واحدةً ودستها في فمها وحاولت كسرها باسنانها. قذفت الجوزة من فمها مثل كرةٍ وتدحرجت الجوزةُ على أرض الساحة وهنا أخذت القزمة الجوزات كلها واحدة بعد الاخرى من حجرها ورمتها على الأحجار. ضحك المارة. صارت عيون القزمة كبيرة وبدا عليها الجد.

أخذ إدغار حجارة بحجم اليد كانت ملقاةً جنب برميل القمامة. عليك دقّها بشدة، قال للقزمة، يوجد شيءٌ في داخلها ويمكن أكله. طَرَقَ الجوزة، فيما ابقت القزمة عينيها مغمضتين وهزت رأسها.

دفع إدغار الجوزةَ المكسورة بحذائه إلى الحافة ورمى الحَجَرة في القمامة.

يَضَعُ الطفلُ جوزةً في يد الأب اليسرى وجوزةً في اليد اليمنى. تتجسّدُ في الجوزتين رؤوس: رأسُ الأمِ ورأسُ الأب ورأس الجد ورأس الحلاق ورأسُ الصبي الشيطان ورأسُ الطفلِ نَفسِه. يشبّك الأبُ الأصابعَ مع بعضها.

فتصدرُ فرقعة.

توقّفْ، تقول الجدة المغنية، هذا ينخر في دماغي.

يترك الطفل الجدةَ المغنية تخرج من اللعبة، لأن فرقعة الأصابع تنخر في دماغها على كل حال.

حينما يفتح الأب الأيادي، ينظر الطفل إلى من سَلِمَ رأسُهُ

ومن كُسِرَ رأسُه.

خرجنا من ساحة ترايان عبر الشارع الجانبي الضيق والمنحني كالمنجل. إدغار يسير بأسرع مما ينبغي، ولأنه أوصل القزمة حد البكاء بفعلِ طرقهِ للجوزة. كان يفكر بها طول الطريق.

قال إدغار: أنا امنعكِ من فعل ذلك، عليَّ أن اسافر عائداً هذا المساء، اين ينبغي أن انام؟ عليكَ أن تَعِدَ أوَّلا بألاّ تفعل ذلك. لم أقل شيئاً. بقي إدغار واقفا ثمَّ صرخ: هل سمعتِ، قطةٌ تتسلق شجرةً؟ هل ترين انها ترتدي أحذية بيضاء؟

قال إدغار: انتِ لستِ بمفردك وحسب، ينبغي عليكِ الاّ تفعلي شيئاً لم نتفق عليه. إذا قبضوا عليكِ يعني ذلك إننا جميعاً مذنبون. لا فائدة، تعثّر إدغار بجذرِ شجرةٍ كان ممدداً كذراع تحت طبقة الاسفلت.

سئمتُ صوتَه. لم أضحك على عثّرته بل لأني كنتُ غاضبةً جدا. حينما كنتم في مدارسكم بعيداً جداً من هنا، واصلتُ الحياة، وأنتِ تتكلمين باسم الجميع، لكن غيورغ وكورت كانا منحازين لذلك الأمر.

قال إدغار: كلي جوزاتكِ! كي تصبحي أكثَر ذكاءً.

سكن إدغار عند والديه في القرية. لم يُحمّلوهُ مسؤولية طرده من العمل. قال والدُ إدغار: كانت الظروف هكذا فيما مضى أيضا، لم يستطع جدك أن يصل موقع مدير محطة أثناء الفترة الهنغارية لأنه لم يسمح بكتابة أسمه بصيغة هنغارية. بقي عاملاً بالسكك الحديد وبنى جسر القطار فوق الوادي. أبلهٌ ظل يكتب اسمه SZ ?، ثم حصل على البزة العسكرية ودَفأَ قفاهُ على الكرسي الجلدي. وحينما صفّر القطار نهض وقفز إلى الأعلى

ببزته الرخيصة أمام الباب. لوى كاحليه نحو الأمام ونفخ نفسه. كان جدُّكَ يضحك لمجرد رؤية هذا.

حينما غادر قطار المساء وابْتَعَدَ عن السكك وفيه إدغار شاهدت الحصى بين الدعامات. لم تكن الحصى أكبر من النوى. وعلى مسافة ليست ببعيدة كانت السكك تقطع حقل عشبٌ مزيَّتٌ. السماء ابتعدت أكثر من السكك. مشيتُ ببطءٍ باتجاه السكك حتى انتهى رصيف المحطة ثم رجعت.

وقفت امام الساعة الكبيرة في المحطة ورأيت الناس يسرعون وهم يحملون أكياسهم وسلاتهم، وكيف كان عقرب الثواني يقفز وكيف كانت الحافلات الثقيلة تتفادى عند المنعطف الاصطدام بالبيوت القائمة على امتداد الشارع. حملت حقيبتي فقط ونسيت جوزات إدغار فوق المصطبة. عبرت إلى رصيف المحطة. كان قطار آخر متوقفاً على السكك. كانت المصطبة خالية. لم يكن يوجد طريق آخر امامي سوى الطريق المؤدية إلى كابينة الهاتف.

رن الهاتف مرتين، ذكرتُ اسماً آخر، صدّق والد تيريزا وناداها.

جاءت تيريزا إلى المدينة والتقينا عند شجرة الصفصاف ذات الجذوع الثلاثة المنتصبة عند شاطىء النهر. أريتها زجاجة حفظ المخللات والفرشاة في حقيبتي.

أريتك البيت، قالت تيريزا. لكنني لا أشترك معك في هذه العملية. سأنتظركِ في الشارع الآخر. كنت قد تغوطت في زجاجة الحفظ ونويت أن الطّخ بيت النقيب بيله. وقررت أن اكتب وغد أو خنزير على الحائط تحت النوافذ العالية، فهي كلمة قصيرة تكتب بسرعة.

وعند البيت حيث يُفرض أن يسكن النقيب بيله، كان اسمٌ مختلفٌ معلقٌ على الباب. خلف الستائر كانت انوار. انتظرنا أنا وتيريزا. كان الوقت قبيل منتصف الليل، كنا نمشي ونلتف يميناً ويسارا. صلصلت أساور تيريزا فقلت: إنزعيها. ثم هبّت الريح على كل شيء أسود. رأيت اناساً واقفين حيث كانت شجيرات منتصبة فحسب، رأيت وجوها في السيارات المركونة، حيث كانت المقاعد خالية، كانت أوراقُ أشجارٍ تتساقط على الطريق حيث لم تكن أيةُ أشجار. قَصُرت خطواتنا وخَفَّ وقعُها. قالت تيريزا: احذيتكِ ليست على ما يرام.

كان القمر في طور الهلال. وغداً سيكون اكثر سطوعاً قالت تيريزا: انه يكبر كل يوم، هل ترى، إنّه ينحني الى اليمين؟ مصباح الشارع معلّقٌ فوق باب البيت، بيوت مثل هذه تبقى منوّرة دائما. وهذا الامر جيد، حيث يمكن رؤية جدار البيت بسهولة ورؤيتنا نحن أيضا.

اخترت المكان المناسب وسط النافذتين. دسست الفرشاة في جيب السترة، فتحت غطاء الزجاجة وناولتها لتيريزا. تركتُ حقيبةَ اليد مفتوحة. قالت تيريزا: أشمُّ رائحةً نتنة كما لو أنّهم قد قبضوا عليكِ، ذهبتُ بالغطاء إلى الشارع الآخر.

الشارع الآخر يخلو من المارة حين وصلت اليه. إنتقلت من سياجٍ إلى سياج من بوابةِ بيتٍ إلى بوابة بيتٍ آخر من شجرةٍ إلى شجرة. وعند نهاية الشارع جاءَ شخصٌ من خلف جذع شجرة وكأنه خرج من باب. نظرت ثلاث مرات حتى عرفت أنها كانت تيريزا، شممت عطرها.

قالت تعالَيْ، وسحبتني من ذراعي، يا الهي، لقد تأخرتِ هناك، ماذا كتبتِ. قلت: لا شيء. لقد تركت زجاجة الحفظ أمام

بوابة البيت فحسب.

ضحكت تيريزا مثل دجاجة. انتصبت رقبتها الطويلة الشاحبة في غمرة التباهي بجانبي وكأن ساقيها ارتفعا عند كتفيها. قالت تيريزا: أن الرائحة النتنة ما زالت مستمرة. سألتُ: لقد تشربتِ يا هذه، ولكن أين غطاء الزجاجة؟ قالت: عند الشجرة حيث كنت أنتظر.

رمينا الفرشاة من فوق الجسر إلى النهر. كان ماء النهر أسود وهادئاً مثل الانتظار في الذهن. حَبَسْنا أنْفاسنا ولم نسمع شيئاً يسقط على الماء. كنت على يقين أن الفرشاة لم تسقط على الماء. أخذت نَفَساً وداهمتني قحّة، لأن شعرات الفرشاة كانت توخزني في رقبتي. شاهدت الهلال وتأكدت أن الفرشاة معلقة في الهواء وترسم الكرة السوداء المخطّطة ـ الليل.

جاء إدغار مجدداً إلى المدينة. منذ ساعات ونحن ننتظر في الخمارة وصول غيورغ. لم يحضر. جاء شرطيان وراحا ينتقلان من منضدة إلى منضدة. بروليتاريا الخراف الصفيحية والبطيخ الخشبي ابرزوا الهويات الشخصية وذكروا اماكن العمل.

المجنون صاحب اللحية البيضاء أمسك باحد رجال الشرطة من كُمِّهِ وفتح منديله المطوي بقدر الكفِّ وقال: استاذ الفلسفة. النادل القى بالمجنون خارج الباب. صرخ: سأرفع دعوى ضدك، أيها الشاب، انت والشرطي. الخراف تلتهم وستنال منكم، إنها تلتهم ولا تَتَخَيّلوا أيَ شيء غير ذلك. في هذه الليلة سيهوي نجمٌ والخراف ستلتهمكم من الوسائد كالعشب. ابرز إدغار هويته، مدرس في مدرسة ثانوية للصناعات الخفيفة، قال: هناك قرب المتحف. عرضت هويتي وقلت، مترجمة ثم ذكرت اسم المصنع الذي طردت منه. كان رأسي يلتهب، اطلقت نظرة جادة نحو

وجه الشرطي الشاب، لكي لا يلاحظ دقات صدغيَّ. قلّبَ صفحات هوياتنا وأعادها الينا. قال إدغار: يا لحسن الحظ.

نظر إلى الساعة، كان عليه أن يلحق بالقطار. بَقيتُ جالسةً على الطاولة ورأيتُ كيف مسح بيده على الكرسي الخالي حينما نهض للمغادرة. قرّب المسند الخلفي للكرسي إلى الطاولة وقال: الآن لن يحضر غيورغ.

تصاعَدَ صَخَبُ عمالِ المناوبة حينما ذهب إدغار. صلصلت الاقداح، تلوّى الدخان في الهواء. دُفعت الكراسي تخدشت الأحذية. كان رجال الشرطة قد غادروا المكان، تناولت كأس بيرة آخر بالرغم من أن طعم كل رشفة كان مثل شاي أعشاب لعلاج المثانة.

سَحَبَ رَجلٌ بدينٌ ذو خدين حمراوين النادلة إلى حضنه. النادلة ضحكت. رجل آخر فاقد الاسنان غَرَزَ قِطعةَ سُجُقِهِ في الخردل ودسّها في فم النادلة. قضمت النادلة جزءاً من السُجُق ومضغته ثم نشّفت الخردل من حنكها بذراعها العارية.

كيف كان هؤلاء الرجال يشتهون، كيف كانوا في فترات الاستراحة بين نوبات العمل خارج البيت يسعون في طلب الحب والسخرية منه. كانوا هم نفسُ الرجال الذين يطاردون لولا في المتنزه الكثيف، وهم الذين فعلوا فعلتهم بالقزمة في الليالي الهادئة والذين باعوا المسيح المصلوب في أكياس وشربوا الخمر حتى الثمالة. وهم الذين كانوا يأتون لزوجاتهم بكلى العجول أو بألواح خشب لتبليط أرضيات الغرف. ويُقدمون لعباً من الارانب للأطفال أو بعض الحبيبات لغرض اللعب. حتى غيورغ بلعبته طير الدغناش كان من تلك الشلّة وكذلك الجارة ذات العيون المنقّطة فقد كانت من المتآمرين أيضا، والتي قال عنها كورت انها تضحك

مثل حيوان متعثّر. ثم أن كورت نفسه لم يكن يختلف عنهم بباقات زهوره البرية التي كان يقدمها للسيدة مارغيت بعد كل رحلاته الطويلة والتي لا تلبث أن تذبل وتدلي برؤوسها. وكما الخياطة التي كانت تتسلم النقود مقابل كشف القدر وتعلّق قلوبا ذهبية على رقاب أطفالها. ولا تستثنى زوجة صاحب الفرو وقُبّعَتها المصنوعة من فرو القندس وكذلك إدغار وجوزاته وانا نفسي انتمي إلى اولئك مع قِطَع الحلوى الهنغارية التي كنت أقدمها للسيدة مارغيت وكذلك الرجل الذي لم افتقده بعد موته. أن ما كان بيننا هو في رأيي طبيعي ويشبه قطعة خبز أكلها إنسان. أو بقعة العشب في الغابة. واني كنت تلك القشةِ وساقيها المنفرجتين وعينيها المغمضتين تتحمّلُ الأشجار الحاوية على أعشاش الغربان والتي تتفرّج عليّ وأنا مثل وَغْدةٍ على الأرض تحترق وتبرد.

المجنون ذو اللحية البيضاء عاد إلى الخمّارة مرة اخرى. مشى بتثاقلٍ نحو طاولتنا وجلس يشرب بقيةً من كأس إدغار سمعتُ صوت ابتلاعهِ للبيرةِ وعادت اليّ ذكرى الحلم الذي كنت قد رويته لإدغار:

دراجةُ رِجلٍ حمراءَ يدوّي عليها محرّكٌ. لكن الدراجة ليس لها محرك وعلى الرجلِ الواقف فوق لوح الدراجة أن يدفعها بالدوس على الأرض مرة بعد مرة. انه ينطلق بسرعة فيطيرُ شالُهُ في الهواء. لا بد أن ذلك يحدث في غرفة، لأن دراجةَ الرِجلِ تنطلقُ فوق أرضية خشبية نحو حاشية قدم وتختفي في الثغرة المظلمة بين الأرضية الخشبية والحاشية. وبعد أن يختفي الرَجُلُ والدراجة، تظهر في الثغرة عيونٌ بيضاء. وأحد المارة الذين يمرون بي يقول: هذه هي دراجة الحوادث.

من الأفضل للجدة أن تستمر في الغناء، والأُم دائماً في فرش العجينة فوق الطاولة والجدُّ دائماً في لعب الشطرنج والأب دائماً في قطع أشواك الحليب بالفأس بدلاً من أن يغيّر أحدٌ نَفَسه فجأةً من يدري كيف. الأفضل أن يبقى هؤلاء هنا ليتجمّدوا بقباحة من أن يتغيروا إلى أُناس آخرين، هذا ما قاله الطفل لنفسه. الأفضل البقاء بين القُبحاء في البيت من الانتماء إلى الغرباء.

وبعد مرور يومين جاء كورت إلى المدينة. قدّم للسيدة مارغيت باقةً من أزهار الحقل البريّة. كانت الازهار تمدُّ السنتها الحمراء نحو الامام وتفوح برائحة الكعك.

قال كورت: الجارة ذات العيون المنقّطة، طرقت على شُبّاكي مساءَ أمس. كانت تحمل على ذراعها ارنباً صغيراً وقالت، أن غيورغ قد تورّط في عراك في محطة المدينة مع أشخاص مجهولين. وأنه راقد في المستشفى. قال كورت كنت قبل ظهيرة الأمس في القرية. ناداني الشرطي من الطرف الآخر للشارع. لمْ أعبر الشارع اليه، بقيت واقفاً، حيث كنت، انحنيت والتقطت ورقة صفراء من الأرض. عبر الشرطي الشارع وصافحني ودعاني للشراب في بيته، قلت: لا ترفع الكلفة بيننا بعد الآن. قال: سنرى ذلك. كان منزل الشرطي قريباً من مكان وقوفنا. رفضت مشروب الكحول. كان الشرطي يتوقع أن انصرف ولكنني لم أتحرك من مكاني واكتفيت بمضغ الورقة الصفراء في فمي من جهة إلى اخرى. لم يبق لديه ما يقوله ولم يستطع الانصراف. ولكي يتجنب رؤية الورقة وهي تتقلّب في فمي، انحنى ليشدّ خيوط أحذيته. بصقت الورقة بالقرب من يده على الأرض وتركته واقفاً هناك وانصرفت. قال شيئاً خلفي، لربما أطلق اللعنات.

ذهبت مع كورت إلى المستشفى. أعطى كورت البواب

زجاجة كحول. اخذها وقال: صديقكم يرقد لوحده في غرفة في الطابق الثالث. أخبرتكم بذلك بالرغم من منعي عن ذلك. ولا أستطيع السماح لكم بالصعود إلى هناك. وعلى طريق العودة عبر المدينة تحدث كورت: أن الجارة قد حصلت على الأرنب الصغير الذي تحمله على ذراعها من غيورغ. كان غيورغ قد انقذ الأرنب من قطة في الحقل واهداها إلى ابنة احد شاربي الدم. الارنب جميل، رمادي مثل تراب مغبر. كان يرتجف بشدة حينما أتى به غيورغ. جلده عند البطن رقيق للغاية حتى ظننت أن أحشاءهُ ستخرج من بطنه حينما قفز من يدي.

من أين تعرف الحبيبة أن غيورغ راقد في المستشفى، سألت؟ من الأرنب، قال كورت وضحك.

كانت عظام فك غيورغ مهشّمة. حينما خرج من المستشفى قال: أعرف وجوه المعتدين الثلاثة من أيام الدراسة في مطعم الجامعة أعرفهم بالنظر فقط، ولا أعرف اسماءَهم.

كانوا قد صدموه في كتفه حينما نزل من القطار. تخلّص منهم. قال غيورغ: أن امثالهم يبدأون بالضرب دون تردد. تركوني حتى اصبحت أمام بوابة المحطة إذ رأوا أن رصيف المحطة مكتظ بالناس.

وبالقرب من موقف الباص حاصروا غيورغ بين الجدار والمقصف، تهاوت عليه الكلمات والركلات. قال غيورغ: لم أعد أقوى على النظر

جاء رجل نحيف قصير القامة وأيقظ غيورغ في المستشفى. وقف امام السرير، اخرج محفظته من جيبه وطرح نقوداً على أحد الدواليب وقال: نحن انتهينا الآن. رمى غيورغ اولاً الوسادة ومن

ثم كوب الشاي على رأس الرجل. ابتسم الرجل وكان الشاي يقطر من شعره، قال غيورغ، أخذ ماله القذر وانصرف. لم يكن من بين العاملين في المستشفى.

سافرت الحبيبة ذات العيون المنقّطة مع أرنبها الرمادي القابع في السلّة إلى المدينة وزارت غيورغ في المستشفى. سُمح لها بالدخول إلى الغرفة وتركت الأرنب عند البواب. اطعمه البواب خبزا. قدمت الحبيبة تفاحاً وكعكاً إلى غيورغ ومسحت على شعره لكن غيورغ اراد أن يعرف منها متى كانت قد قابلت شرطي القرية آخر مرة.

قال كورت: هي أغبى من أن تكذب، أخَذَتْ رشفةً من الشاي من كوب غيورغ وأجهشَتْ بالبكاء. صرخ غيورغ في وجهها. رمى بالتفاح والكعكة في السلّة وطردها. تركت الارنب عند البواب، فهو يعود إلى المريض الذي زارته، قالت للبواب، سيأخذه حينما يخرج من المستشفى.

وحينما وصل غيورغ إلى بوابة المستشفى بعد عشرة أيام نقر البواب على زجاج النافذة واراه الأرنب. كان قابعاً في قفصٍ عند شماعة القبعات وهو مشغول بالتهام قشور البطاطس. أشار غيورغ بيده رافضا وواصل السير. صاح البواب: لا تعد لأخذه فيما بعد، اننا سنذبحه يوم السبت.

لم تقبل المحكمة الدعوى المقامة ضد المعتدين. ولم نكن نتوقع غير ذلك.

وحينما حضر غيويرغ إلى المحكمة عرف الموظف المختص من كان يقف امامه. كانت لدى النقيب مدة عشرة أيام. ولكنني بالرغم من ذلك سأحاول، قال غيورغ.

اين تعمل؟ سأل الموظف. تقديم الشكوى ضد مجهولين بدون أدلّة امرٌ يستطيع اي إنسان يشعر بالسأم في هذا البلد أن يقوم به.

فرد غيورغ: اني لا أشعر بالسأم، وانا آت من المستشفى لأنني تعرضت لاعتداء بالضرب. اين وثيقة الخروج من المستشفى التي تثبت ذلك؟ سأل الموظف. قال غيورغ: لم أتسلّم وثيقة لأن الطبيب كان مشغولاً بعرس حينما تمّ اخراجي من المستشفى.

كان غيورغ يحتفظ بوثيقة الخروج من المستشفى في جيبه وكان تقرير الطبيب يفيد ما يأتي: انفلونزا صيف مع غثيان.

قال الموظف: إنك تعاني، لكنك تعاني من الكسلِ والأوهامَ وجنونِ الاضطهاد. خذ الورقة معك انك محظوظ لأن مرضكَ غير مكتوب عليها. هل تشعر ببراءتك؟ لا أحد يتعرض للضرب دون سبب.

قضى غيورغ هذا اليوم في الخمّارة المجاورة لمحطة القطار. كان قد قطع تذكرة لغرض زيارة والديه. وحينما وصل رصيف المحطة والتذكرة في يده جلس على إحدى مصاطب المحطة.. شاهد كيف يرفع الناس السلال والأكياس على سلالم القطار ويصعدون اليه. كانت أبواب العربات مفتوحة والرؤوس مصطفّة جنب بعضها في نوافذ العربات. النساء يأكلن التفاح والأطفال يبصقون على رصيف المحطة والرجال يبصقون على أمشاطهم ثمّ يمشطون شعرهم. شعور بالتقزز داهمَ غيورغ.

اغلقت أبواب العربات، صفّر القطار، دارت عجلاته، التفت الركاب ليلقوا نظراتهم على رصيف المحطة.

قال غيورغ: لم اكن أرغب، في العودة إلى خياطة في وجهها

نَمشٌ، تخيّط وتكوى وتقول أن ابنها يمثل وجوداً خائبا، أمُّ تبعث دون علم زوجها القليل من النقود والكثير من كلمات التأنيب في ظرف الرسالة نفسه. ولا هو راغب في العودة إلى أب متقاعد يهتم بدراجته أكثر من اهتمامه بولده. كما أن غيورغ لم يكن راغباً في العودة إلى كورت في قرية شركائه في الجريمة. لم يكن يريد رؤية الجارة ذات العيون المنقّطة أبدا.

لم اكن أرغب في العودة إلى والديّ إدغار والسيدة مارغيت. قال إدغار: كانت في نفسي أُمنية واحدة لا غير، وهي الاّ أُحمّلَ ساقيّ خطوة إضافية واحدة على وجه الارض. توجهت إلى قاعة الانتظار متعباً خاويا. عرضت على المفتش تذكرة سفري وتمددت على إحدى المصاطب. وسرعان ما رحتُ في نوم عميق مثل قطعة عفش منسية، بقيت نائماً حتى حل ضياء النهار وجاء شرطيٌّ يحمل هراوته ويؤدي واجبه. حين كان المنتظرون يتحدثون عن قطارات الصباح غادرت المحطة. ولكل واحد منهم هدف.

بعد استيقاظه مع شيء من النشاط ذهب غيورغ إلى دائرة الجوازات دون أن يقول لي لإدغار أو كورت كلمة واحدة.

قال غيورغ: لم أكن مهتماً بمحاولاتكم للتهدئة، لم أرغب في سماع ذلك الهراء حول التخفيف من وطأة الحال من افواهكم. لقد كرهتكم وتمنيت، وأنا الذاهل، ألاّ اراكم. وكان مجرد التفكير بكم يسوقني إلى اللظى. كنت اتمنى لو أن بمقدوري استئصالكم ثمَّ استئصال نفسي من حياتي عَبْر التقيؤ، لأنني شعرت كم كنا نتكل على بعضنا. وهكذا وصلت دائرة الجوازات، دون الاحساس بالطريق، كتبت بالقرب من شباك المراجعات طلباً للخروج من البلد وقدمته فورا. عملت بسرعة قبل أن تتصدى لي عيون النقيب بيله أمامي على الورقة.

لم يَعُدْ غيورغ يعرف بدقة ماذا كتب في الطلب.

لكن، رغبتي الملحّة في أن اكون في ذلك اليوم خارج البلد، كانت بكل تأكيد مدوّنة في الطلب. الآن أنا بحالة أفضل، أكاد أشعر أنني إنسان. وبعد تقديم الطلب لم تبق لدي أية رغبة في رؤيتكم.

وضع غيورغ يده على رأسي وأمسك باليد الاخرى بشحمة اذن إدغار.

قال إدغار: كانت المسألة متعلقة بأمنك الشخصي، أنك اجبرت نفسكَ على خداعِ نفسك. لا أحد منا كان سيقول كلمةً واحدةً تقلل من شأن رغبتكَ في ترك البلد.

قالت تيريزا: لم تعد الخياطة من رحلتها إلى هنغاريا ولم يكن أحد يتوقع ذلك. كان كشف الحظ في لعبة الاوراق قد جعل من الخياطة شخصية غامضة أمام الجميع. انزعجت تيريزا لأنها كانت قد أوصت الخياطة أن تشتري لها حلية برسيم ذي أربع أوراق لكي تضيفها إلى عقدها الذهبي دون أن تعرف شيئاً عن خطة هروبها.

قالت تيريزا الجدة في الشقة الآن مع الأطفال. كانت تجلس أمام ماكنة الخياطة حينما وصلت تيريزا إلى هناك، كما لو أن الامور كانت هكذا طوال الوقت. كان الأطفال يخاطبونها بماما وان تيريزا كانت لوقت من الأوقات غير واثقة تماماً بأن تلك المرأة لم تكن هي الخياطة نفسها حقاً. قالت تيريزا: أن هذه المرأة تشبه الخياطة، سوى أنها أكبر من الخياطة بعشرين سنة. كنا نتخوف من شبه كهذا. الجدة تتحدث مع الأطفال باللغة الهنغارية. هل تعرفين أن الخياطة كانت هنغارية، ولماذا تحتفظ

بذلك سرا؟ قلت: لأننا لا نتحدث بالهنغارية. قالت تيريزا: ونحن لا نتحدث بالالمانية، ونعرف حقا انكِ المانية. أن الاطفال لا يحسّون بَعْدُ أن أمّهم ذهبت. حتي متى سيبقى الاطفال هكذا دون أن يبكوا أو يستطيعوا أن يقولوا: أُمّنا في فيينا تدّخر لشراء سيارة؟

أصبحت العقدة تحت إبط تيريزا بحجم برقوقة وبدأت تكتسب في وسطها لوناً أزرق. كانت كشجرة الباتولا التي لجذعها مِدقّة باب تطل على داخل الغرفة. خيّطت تيريزا رداءاً لنفسها وكان عليّ مساعدتها في خياطة ثقوب الأزرار وإنجاز غرزات الساحرة عند الحاشية في الأسفل.

قالت تيريزا: يصبح الخيط المستخدم لتثبيت الازرار عندي سميكاً إلى حَدٍّ يبدو عنده مشوّها، والحاشية تتقلّص.

كان صديق تيريزا، الطبيب الذي كنت قد شاهدته لمرة واحدة فقط، يعمل في مستشفى الحزب. في نوبات النهار والليل. قام سابقاً بعلاج العمود الفقري لأبِ تيريزا ودوالي أُم تيريزا وجدة تيريزا التي تشكو من الخَرَف. وما أراد أن يفحص تيريزا.

إني أرى في النهار والليل مرضى فحسب، قال لتيريزا، سَئمت المرضى ولا أُريد أن ألعب دور الطبيب معكِ. قال: عليكِ أن تراجعي الطبيب الذي كنتِ تترددين على عيادته حتى الآن، . وحينما رَوَتْ له تيريزا ما ذهب إليه الطبيب الآخر قال: لا بد أنه يعرف، وهزّ رأسه. كان الطبيب الآخر يرى، لو صدقنا تيريزا أنها كانت عنده فعلاً: لا يمكننا اتخاذ أي إجراء الآ اذا زاد نمو العقدة، عندذاك يمكننا إستئصالها.

إن كان الرجل الذي أحبه لا يريد فحصي فإن ذلك يُحيّرني حقا، قالت تيريزا ولكن إذا قام بعلاجي فإن ذلك سيضايقني.

لأنني سأكون مثل كل الآخرين الذين يمر لحمهم من تحت يديه، وسأبقى بدون سر.

علاّقةَ حلي تيريزا منتصبةً فوق الطاولة، وإلى جانبها بقايا قطع من قماش.

قالت تيريزا: حينما أنام معه، لا أخلع بلوزتي لكي لا يرى العقدة في ابطي. يحمل عليّ ويسعى إلى هدفه لاهثاً وعلى عجل وبعد ذلك يقفز من الفراش ويدخّن وكم يعجبني لو أنه بقي بعض الوقت إلى جانبي. كي لا يفكر بعقدة الأبط. وحينما أسأل: لماذا تترك الفراش بسرعة يقول: إنكِ صبيانية. قالت تيريزا: والآن توقفتُ عن ذلك السؤال تماماً، لكن ذلك لا يعنى أن الأمر لم يعد يزعجني.

إلبسي الفستان، قالت تيريزا لربما لاق عليك. تعرفين أنه كبير جداً بالنسبة لي، قلت:

حتى لو كان الفستان مناسباً لي فلم تكن في نيتي أن ألبسه. العقدة كانت في داخله. فحينما كنت أمسك بالفستان بيديّ اثناء الخياطة اتخيّلُ انني انما أُخيّط العقدة على نفسي وان العقدة كانت تتجول إلى جانب الخيط من جسمي.

كنت أخيّط فتحات الأزرار وكانت تيريزا على يقين بأن الفستان لم يَعُدْ يعجبها.

كان والد تيريزا في زيارة لجنوب البلاد لحوالي اثني عشر يوماً لغرض صب تمثال تذكاري. لذا فقد سُمح لي أن آتي اليها في مسكنها. وكانت ام تيريزا قد لحقت بزوجها فيما بعد لكي تحضر حفل إزاحة الستار عن التمثال.

اتفقنا على كتم وجودي في البيت عن الجدة. استدرجتها

تيريزا إلى الحديقة حتى وصلتُ إلى غرفتها. قالت تيريزا: لا تحمل الجدة أي ضغينة ضدك، فهي تسأل عنك أحيانا. قبل عامين مثلاً كانت ستسكت عن وجودك هنا ولكن منذ أن اصيبت بالخَرَفِ فإن لسانها قد فَلَت.

في رسالتها لي وضعت الام مبلغ(٣٠٠ لاي) لأيجار الشقة. وبعد شكاوى الآم الظهر ورد ما يلي: لقد قمت ببيع البطاطا وادّخرت بعض المال لكي لا تقومي بأعمال سيئة للحصول على النقود. بدأ الليل بالبرودة الآن وقد بدأت مساء أمس باشعال النار لأول مرة. ما زالت الجدة تنام في خارج البيت. سائقو الجرارات الذين يعملون في حرث الحقول في الليالي يرونها دائماً خلف المقبرة. لعل ذلك المكان يجتذبها ولو صح ذلك لكان أمراً جيداً.

في الامس جاء القسّيسُ إليّ برأس محمّرةٍ إلى حدٍ بالغ. ظننت أنه تناول الخمر حتى الثمالة لكنه كان محمراً بسبب الغضب. قال: يا إلهي بحق السماء لا يجوز هذا بعد الآن. قامت الجدة أمس، بالتسلل إلى غرفة المقدسات من وراء ظهرِ شماس الكنيسة، . وحينما حضر القسيس لأداء القداس الكبير اشارت إلى جُبّةِ الرَهْبَنَةِ وياقتِها البيضاء، ثم قالت إنك سنونو أيضا، سأغيّر ملابسي لكي نطير معاً.

كانت أدرج غرفة النصوص المقدسة فارغة، وقد أكلت الجدة قِطعِ خبزِ الذبيحة كلها. بدأ القداس. كان ستة مصلين قد اكملوا أداءَ الاعتراف، قال القسيس. إقتربوا من المذبح لتناول خبز القربان فركعوا وعيونهم مغمضة. وصار على القسيس أن يؤدي واجبه أمام الرب. مشى بالكأس من مصلٍ إلى آخر المقدسة وفيها قطعتان مقضومتان لا غير، . كلهم فتحوا أفواههم لأستقبال خبز

القربان. كان عليه ترديد عبارةِ هذا جَسَدِ المسيح. وضع للشخصين الاولين في الصف قطع خبز القربان على ألسنتهم. أما الأشخاص الاربعة التالون ذكر القسيس عبارة جسد المسيح وضغط برأس ابهامه على لسان كلٍ منهم.

كتَبَتِ الأُم بكل مودة وعبّرت عن بالغ الاعتذار. قال القسيس: ولكن عليّ أن ابلّغَ الاسقفَ بذلك الحدث.

إنتقل غيورغ للسكن مع والديّ إدغار.

قال غيورغ: غابت الجارة ذات العيون المنقّطة كما لو انها اختفت من على وجه الأرض. كان الشرطي قد صادرها. حديقتها نُهبت ولم يبق سوى العشب الذى نما حتى السماء. ماذا عساي أن اعمل عند كورت طوال النهار، الظلام يحل مبكرا. يعمل كورت في المذبح حتى المساء. وفي المساء يقلي لنا أربع بيضات وكنا نشرب الكحول لتسهيل الهضم. ثم يأوي إلى الفراش بأيادٍ متّسخة. وحينما كان ينام كورت أجول مع زجاجة الكحول بيدي في زوايا البيت كله. في الخارج تنبح الكلاب وبعض طيور الليل تصرخ. كنت استمع واشرب الزجاجة حتى تفرغ. وحينما أصل منتصف حالة السكر أفتح باب البيت وانظر إلى الحديقة فى الخارج. كان النور مضاءً في نافذة الجارة. وطالما كان ضياء النهار باقيا ظلت الحديقة المهجورة هناك ولم اكن أرغب في الذهاب إلى الجارة. ولكن مع نزول الظلام هاجت رغبتي اليها. كنت اغلق الباب خلفي وأضع المفتاح الكبير على بسطة النافذة. كنت أرغب في غلق الباب لكي أسير على عجل وبخط مستقيم ثمّ اطرق على نافذة الجارة. كانت تنتظرني على أمل أن أوافيها في أحد الاماسي. كانت كلُ ليلةٍ عذاباً مُراً لكن المفتاح الكبير على بسطة النافذة صدّني عن الذهاب. كنت على بُعْدِ شعرةٍ من

قرار الركض نحوها وإلى فراشها.

كان كورت يقول شيئاً اثناء تناولنا للطعام كان يتحدث عن الأنابيب والحُفَرِ والأبقار وبطبيعة الحال عن شرب الدماء أيضا. لم أكن اقدر على بلع أي شيء حينما كان كورت يأكل ويتحدث عن شرب الدماء. لكنه كان يتلذّذ بالأكل حينما يقول: كلما زادت البرودة في الخارج زادت كميات الدم التي تُشرب. كان يأكل بقايا الطعام من صحني ويلعق المقلاة.

قال غيورغ: كان عليّ اثناء النهار أن اخرج من البيت، وأذهب إلى مكان ما دون تحديد، وإلاّ جننت. كان شارع القرية الرئيس خاويا، ولذا سرت نحو الاتجاه الآخر إلى القرية. لم نبق بقعة في المنطقة لم أطأها ثلاث مرات. ولم يكن للهيام على وجهي بين الحقول معنى. كانت الأرض رطبةٌ بفعل ما تساقط عليها من ندى. كل شيء كان مدمراً ومقطّعاً ومحصوداً داخل حزم متراصة. لم يبق هناك غير النباتات البرية التي كانت تنمو حتى الجذور. تنشر بذورها بكل اتجاه. اغلقت فمي وغطت البذور رقبتي وأُذنيَّ وشعري. وحك جلدي فبدأت بهرشه. كانت في داخل كُتلِ النباتات البرية قطط بدينه متربصة. لم تكن سيقان النباتات تُصدر أيَّ خشخشة. استطاعت الارانب الكبيرة أن تهرب قبل فوات الاوان. أمّا صغارها فقد جُنّت وكانت تلك نهايتها المحتومة. لم يطل ذلك حلقي بينما تمزقت الحلوق الأخرى. مررت بذلك المشهد مرتجفاً ومتسخاً مثل حيوان الخُلْد، ولكني لن أهرع لأنقاذ أرنب بعد هذا ابدا.

قال غيورغ: في الحقيقة، هذه الأعشاب جميلة ولكن أينما نظرنا في وسطها، تفتح الحقول افواهها. السماءُ تواصل ابتعادها الأرض تزداد التصاقاً بالاحذية. اوراق النباتات البرية وجذورها

وأغصانها كافة بدت حمراء مثل الدم.

جاء إدغار إلى المدينة بدون غيورغ. في مساءِ اليوم السابق كان غيورغ قد فرح بخروجه من القرية في نهاية المطاف، بدلا من الاستمرار برؤية القذارة والاعشاب والانتقال إلى الشوارع المبلطة وترامات المدينة. في الصباح سار متراخياً في جولة لكنه لم يستطع رؤية كل شيء.

لم يكن غيورغ يرغب في السير السريع، أحسَّ إدغار كما لو أن غيورغ يريد أن يفوته القطار. وفي منتصف الطريق إلى هناك توقف وقال: أنا عائد، لا أريد الذهاب إلى المدينة.

قال إدغار: إن كل ما أثاره غيورغ حول شعوره بالوحدة عند كورت كان مجرد حِجّة. الان لم يعد وحيداً فإنا متواجد في البيت طوال النهار وكذلك والداي ولكن التحدث معه أصبح شاقا. فهو الآن كالشبح.

نهض غيورغ مبكراً ارتدى ملابسه وجلس عند النافذة. وحينما كانت الصحون والملاعق تقرقع يأتي غيورغ حاملاً كرسيه ثم يجلس إلى المائدة. وبعد تناول الطعام يعيد الكرسي إلى قرب النافذة وينظر إلى الخارج. هناك كان يرى دائما شجرة الاقاقيا العارية منتصبة ويرى الخندق والجسر والاوساخ والأعشاب، ولا شيء غير ذلك. سأل عن موعد وصول الصحيفة. واذا حضر ساعي البريد لم يلمس الصحيفة: كان في انتظار خبرٍ من دائرةِ الجوازات. واذا ذهب إدغار إلى نزهة أو لشراء حاجة من متجر القرية لم يذهب معه، يقول: لا يستحق ذلك لبس الحذاء.

قال إدغار: إنَّ غيورغ صار مصدر إزعاج لوالديَّ، ليس بسبب الأكل والنوم، إذا كان يدفع تكاليفها بالرغم من أن والديّ

لم يكونا يرغبان في أخذ المبلغ ابدا. قالت أمي: هو يسكن هنا عندنا واصبحنا نحن مصدر ازعاج له، انه فظ وسيء السلوك.

أصبح الامر يزداد ثقلاً بالنسبة لإدغار يوما بعد يوم، فإن قال لوالديه بأنه يعرف غيورغ كشخص آخر أفضل بكثير لكنه حالياً يصبح عنيداً متحجراً لأن مخه مثقل بالهموم. قال الوالدان: لماذا؟ انه على وشك الحصول على جواز السفر.

بدأ الامر في هذا الصباح الاكتوبري حينما عاد غيورغ في منتصف الطريق بينما توجّه إدغار لوحده إلى المدينة، كان يوما مشؤوما.

كانت في القطار مجموعة من الرجال والنساء يغنون أناشيد الكنيسة. النساء يحملن في أيديهن شموعاً مشتعلة. لكن الأناشيد لم تكن تُغنى على اسلوب الكنائس بل كانت تطلق على وقع هزات القطار الرتيبة. كان المغنون يترنحون. النساءُ باصواتهن الرفيعة العالية النغمات كما لو كن في خطر وكان غناؤهن ولولةً اكثر منه صراخاً وكانت عيونهن جاحظات تكاد تخرج من جبهاتهن وكن يلوّحن بالشموع بدوائر كبيرة تبعث الخوف من أن يشتعل القطار بالنار. وكان الركاب الجدد الذين يصعدون إلى القطار يهمسون فيما بينهم بأن هذه المجموعة المغنية تنتمي إلى طائفة من القرية المجاورة. لم يحضر مفتش التذاكر إلى العربة إذ لم يكن المغنون يرغبون في أن يزعجهم أحد ولذا قدموا له الرشوة كي لا يحضر. وفي خارج العربة كان حقل الذرة الجاف المتروك وأغصان عباد الشمس العارية من الاوراق، كلها تنطلق بالاتجاه المعاكس. وفي قلب هذه الأرض القفر خلف الجسر حيث الأدغال البرية، سحب أحد المُغنين كابح الطوارىء، قائلاً: علينا أن نصلّي هنا.

توقف القطار ونزلت المجموعة. وفي وسط تلك الأدغال حيث اصطف الجمع. كانت على الارض أعقاب الشموع المطروحة من مخلفات صلاة سابقة. السماءُ تبدو منخفضة، المجموعة بدأت بالغناء، الريح اطفأت الشموع. تزاحم الناس الباقون في القطار على نوافذ العربة ليشاهدوا ما يجري هناك.

رجلٌ واحد وإدغار بقيا جالسين في العربة. الرجل يرتجف، كوّر أصابعه على شكل قبضة. كان يضرب نفسه على فخذيه وينظر نحو الأرض. وعلى حين غرّة سحب قبعته من رأسه وأجهش بالبكاء. لدي موعدٌ مهم، صاح محدثاً نفسه وضغط بقبعته على وجهه. اطلق اللعنات على الطائفة وقال: ذَهَبَ المال كله هباءً.

حين صعد أفراد الطائفة من جديد، بدأ القطار يتحرك ببطء. فتح الرجل الباكى النافذة ومد رأسه إلى الخارج. كانت عيونه تريد تقصير المسافة على طريق السكك فوق السد الممتد إلى ما لا نهاية. أعاد الرجل قبعته إلى رأسه وأطلقَ تنهيدة، بينما واصل القطار طريقه على مهل.

وقبل وصول القطار إلى المدينة بقليل اطفأت النساء شموعهن ودَسَسْنَ بها في جيوب معاطفهن. كانت معاطفهن ومقاعد العربات مغطاةً بقطرات الشمع الشبيهة بقطرات دهن باردة.

توقف القطار، نزل الرجال ومن ثم النساء وخلفهن غير المشاركين في طقوس الطائفة.

نهض الرجل الباكي، سار عبر العربة حتى مؤخرتها ونظر إلى رصيف المحطة. ثم عاد ادراجه وجلس في أحد الأركان واشعل سيجارة. كان ثلاثة من رجال الشرطة يقفون على رصيف

المحطة. حينما نزل الركاب كافة من القطار صعد الشرطة إلى العربة التي كان يجلس فيها الباكي ورموا به إلى الخارج. بقيت قبعته مطروحة على الأرض حين القوا القبض عليه واخذوه. سقطت من جيب سترته علبة كبريت. التفت الرجل مرتين أخريين نحو إدغار. التقط إدغار علبة الكبريت ودسها في جيبه.

وقف إدغار أمام ساعة المحكة الكبيرة. كانت الريح لاسعة. شاهد الركن الذي تعرض فيه غيورغ للضرب. وبين الكشك والحائط كانت دوامة ريح تعصف بأوراق القمامة والشجر. سار إدغار في الشارع المؤدي إلى المدينة. كانت المدينة ممتدة أمام من لم يكن له هدف محدد.

ذهب إدغار إلى صالون الحلاق، لأن عدد الزبائن اقل في ساعات الصباح، ثم قال: لأنني لم أكن أعرف ماذا أعمل وقد بدأ شعري يزعجني. أردت الوصول إلى مكان دافىء باسرع وقت وشعرت بأنني أحتاج إلى شخص يعيرني اهتماما دون أن يعرف شيئاً عني.

قال إدغار للحلاق الذي اعتاد أن يحلق شعره منذ أيام الدراسة وكان يخاطبه حتى ذلك الحين ? حلاّقي. في تلك الايام الخوالي كان إدغار وكورت وغيورغ يذهبون سويةً إلى الرجل ذي العيون الماكرة لأن ثالوثهم كان أقدر على تحمّل وقاحة ذلك الحلاق. كان دنيئاً حتى النخاع ولكنه حين يبدأ بالحلاقة ينقلب تصرفه إلى الخجل التام أو التزام الصمت المطبق.

مد الحلاق يده إلى إدغار مُحيّيا: آه هكذا، انت في المدينة مرة اخرى. وأين الاحمران؟ لم تكن آثار الكِبر قد بدت على وجهه. لم يَعُد يأتي الكثيرون حاليا، حتى يحل الربيع ثم قال. انهم يلبسون القبعات ويشربون الكحول بتكاليف الحلاقة.

كان للحلاق ظفر طويل في وسطاه اليمنى بينما الاظفار الاخرى قصيرة. فرّق شعر إدغار بظفره الطويل إلى خصل عديدة. سمع إدغار المقص وهو يحش الشعر، وكان وجهه يصغر شيئاً فشيئا، ابتعدت المرآة. اغلق إدغار عينيه لأنه أحس بالقرف.

قال إدغار: لم يسألني الحلاق كيف اريد قطع شعري. فقد عاقبني بدلاً من كل اولئك الذين لا يأتون الاّ في الربيع التالي. وحينما نهضت من الكرسي كان شعري قصيراً مثل فرو..

كنا قد شاهدنا الكثير من الأحداث أيامَ كنّا طلاباً وقريبين إلى بعضنا، إدغار وغيورغ وأنا. لكن المصيبة نالت منا جميعاً باسلوب مختلف بعد أن فرقت الأيام بيننا في أرجاء البلد. بقينا معتمدين على بعضنا. حتى الرسائل الحاملة للشَعر لم تفدنا بشيء لدفع الخوف من نفوسنا عَبْرَ السطور المكتوبة. كان على كل منا أن يتعامل لوحده مع الواح الارضيات الخشبية وطير الدغناش وشاربي الدماء والمكائن الهيدروليكية، كان على كل فرد أن يتعلم كيف يفتح ويغلق عينيه في آن واحد.

وحينما تمّ طردُنا أدركنا أننا، حتى بدون هذا الذهول، كنا في حال أسوأ. فسواء كنا موظفين أو مطرودين فقد كنا في محيطنا مجرد فاشلين، حتى أمام أنفسنا. وكل ذلك بالرغم من اننا قاومنا كل الاسباب وتجاوزنا معظم الصعاب لكن شعورنا كان محبطا. كنا خائري القوى والعزيمة وقد مللنا التفكير بالاشاعات المتعلقة بالموت المرتقب للدكتاتور ومللنا من متابعة أخبار موتى الهروب وهوس الهروب وجنونه الذي كان يطاردنا حتى بلا إرادتنا.

فالانهيار حل بنا بصورة طبيعية كالشهيق والزفير. كان ذلك مثل روح المشاركة بينا والثقة المتبادلة. ومع ذلك فقد ساهم كل منا لوحده بهدوء: المساهمة في الانهيار الذاتي. فقد كانت لكل

منا صورةً سيئةً عن نفسه ويعاني من نوبات الغرور التي تعذب أرواحنا.

فابهام كورت المنفقع وفك غيورغ المهشم والأرنب الرمادي الترابي والزجاجة الحافظة في حقيبة يدي ـ كلها تعود إلى من تعود اليه منا. كان الآخرون على علمٍ بذلك.

كان كل منا يتصور كيف يبقي على متعة الانتحار جانبا ويُفهمَ الآخرين، دون أن يُفصحَ عن ذلك ابداً، بأنه كان يفكر بالانتحار ولكنه استبعده حباً باصدقائه. هكذا صار كل منا يبرّر موقفه ويلزم الصمت الذي كان في متناول اليد. كان كلٌ منا يدين الآخرين لأنهم بقوا على قيد الحياة بدلاً من أن يكونوا من الأموات.

ارتكزت جهودنا على الصبر في محاولة منا لأنقاذ انفسنا. وكنا حريصين على أن لا ينضب ذلك الصبر وأن يعود الينا بسرعة إذا ما أُخذَ منا عنوة.

بينما كان إدغار يخترق الساحة خالي البال سمع وقع كفوف كلب خلف أقدامه، توقف وترك الرجل وكلبه يمران. كان الكلب هو اللئيم بيله. أما الرجل ذو القبعة السوداء فلم يكن يعرفه. شمّ الكلب معطف إدغار وبدأ يزمجر. فقاد الرجل الكلب من لجامه بعيداً من إدغار لكن الكلب ابدى مقاومة وظل يدير رأسه نحو إدغار. وحينما بلغ إدغار أضواء المرور التالية كان ذلك الرجل والكلب خلفه. وحينما اضاء اللون الاخضر عبر الرجل وكلبه الشارع ودخلا المتنزه. والظاهر أن أحداً كان ينتظر وصول الكلب. فقد صعد الرجل الترام خلف إدغار لوحده.

قال إدغار: قلت في نفسي، أن صاحب القبعة السوداء ليس ببشر وانا وفروة رأسي لست كلبا ولكننا نبدو كذلك فحسب.

وحينما عاد غيورغ من منتصف الطريق المؤدية إلى المحطة دخل الغرفة منهكاً. وكما يبدو فإنه وصل راكضا. سَألَتْ أُم إدغار: هل نسيت حاجة. فقال نسيت نفسي ثمَّ وضع الكرسي عند النافذة وراح ينظر إلى النهار الخاوي.

قبيل الظهر طرق ساعي البريد الباب. كان يحمل رسالة مسجلة إضافة إلى الصحيفة اليومية. لم يتحرك غيورغ من مكانه. قال والدُ إدغار: الرسالة لك وعليك التوقيع بالاستلام.

احتوت الرسالة على البلاغ الخاص بجواز السفر. ذهب غيورغ إلى غرفته وبيده الرسالة، اغلق الباب، وتمدد على الفراش. سمعه والد إدغار وهو يجهش بالبكاء. طرقت ام إدغار الباب وجلبت له الشاي. طلب منها غيورغ الانصراف مع الكوب.

وحينما قرقعت الصحون لم يحضر غيورغ لتناول الطعام. طرق والده الباب وجلب له تفّاحة مقشّرة ووضعها على المنضدة دون أن يقول شيئا. كان رأسُ غيورغ مغطى بوسادة.

نزل والدا إدغار إلى فناء الدار. انصرفت الأُم إلى إطعام البط وانصرف الاب إلى قطعِ الأخشاب. أخذ غيورغ المقص واتجه نحو المرآة. بدأ يحلق شِعره.

وحينما عاد أبَوا إدغار من فناء الدار ثمَّ إلى الغرفة كان غيورغ يجلس عند النافذة. يبدو مثل بهيمة تعرضت لإفتراس. دُهش والد إدغار لكنه بقي محافظاً على هدوئه. قال: ما فائدة هذا.

حينما رأيت غيورغ لأول مرة، قلتُ: لا يمكنك المغادرة بهذا الشكل. عليك الذهاب إلى الحلاق. قال: لن أقوم بأي شيء

لأجلكم حين أصل المانيا. هل سمعتم؟ لن احرّك إصبعا واحداً من أجلكم.

نظرنا انا وكورت وغيورغ إلى البقع الصلعاء التي احدثها إدغار في رأسه وكيف وصلت حد الجلد. قال كورت لإدغار: شعرك يبدو مثيراً للضحك.

لا يعرف الطفل كيف ينبغي للنهار أن ينتهي؟ يذهب مع المقص إلى الغرفة ويُنزل مصاريع النافذةِ ويُشعل النور. يقف امام مرآة التزيين ويقصُّ شعره. ينظر إلى نفسه ثلاث مرات في المرآة فيبدو شعره معوجاً فوق جبينه.

يكمل قصَّ شعره في مواضع إعوجاجه فَيَظْهرُ الشعر المجاور المقطوع سابقاً معوجا.

تظهر على وجهه فرشاةٌ معوجّة بدلاً من حافات خصلات سائبة، ويبدو الجبين أجدبا. يجهش الطفل بالبكاء.

تضرب الام الطفل وتسأل: لماذا قُمت بذلك؟ يقول: لأن منظر وجهي لا يعجبني.

كُلُ الموجودين في البيت ينتظرون أن تنمو من الفرشاة المعوجة خصلات شعر جديد والطفل أشدُّ حماساً في انتظاره من الآخرين.

تحلُّ ايامٌ أُخر. تنمو خِصَلُ الشعر.

وفي أحد الأيام لا يعود الطفل مرة أخرى يعرف كيف ينبغي للنهار أن ينتهي.

توجد صور فوتوغرافية لأشجار شتاءٍ عاريةٍ من الأوراق وأشجار صيفٍ كثيفةِ الاوراق. أمام هذه الاشجار تنتصب تماثيل ثلجية لرجال أو توجد نبتات الورود. وفي مقدمة الصور يقف

طفلٌ مبتسم وقد مال في وقفته وبدا وكأن فرشاة تنطبع فوق وجهه.

كانت على سطح علبة الكبريت العائدة للرجل الذي نزل من القطار صورة شجرة مع صورة نار مشطوبة. وتحت تلك الصورة كانت كتابة تفيد بما يأتي: حافظوا على الغابة. وضع إدغار علبة الكبريت في المطبخ. وبَعدَ يومين قالت أُمه: تحت عيدان الثقاب توجد أرقام.

في محطة القطارات الخارجية كانت قطارات أجنبية متوقفة، قال إدغار، أراد الرجل أن يعبر الحدود.

كانت الارقام الظاهرة على علبةِ الكبريت تبدو مثل أماكن بعيدة. ملأ إدغار علبة الكبريت بِعيدانٍ إضافيةٍ حتى امتلأت. وضع رؤوس العيدان الحمراء فوق بعضها. سحب الغطاء حتى نصفه كما يُسحب غطاء فراش: حينما تصل المانيا اتصل هاتفياً من هناك.

قام غيورغ بسحب غطاء العلبة حتى غطى رؤوس عيدان الكبريت. كان يبدو بشعره المقصوص، والذي لم يستطع الناس التعود عليه، كان يبدو مثل ضيف. لم اغادركم بَعْدُ، قال غيورغ. إذا لم يرموني خارج القطار المنطلق فسأتصل بالرقم.

لم نعرف أن كان غيورغ قد اتصل بالرقم. لم يحصل من شباك المراجعة على جواز السفر. طلبوا منه مراجعة النقيب بيله. تظاهر النقيب بيله بأنه لم يرَ شعر غيورغ المثير للدهشة. قال: تفضل بالجلوس! وكانت تلك اول مرة يخاطب بها غيورغ بصيغة الاحترام.

طرح النقيب بيله ورقة إقرار مع قلم حبر جاف على المنضدة

الصغيرة وجلس خلف المنضدة الكبيرة. مد ساقيه إلى الامام ودفع بالكرسي نحو الخلف. قال النقيب: مجرد توقيع صغير. قرأ غيورغ في استمارة الاقرار بأن عليه الامتناع عن فعل أي شيء يلحق الضرر بالشعب في رومانيا.

غيورغ لم يوقع.

سحب النقيب بيله ساقيه نحو الوراء ونهض واقفا. ذهب إلى الدولاب واخرج ظرفاً، ثمَّ وضعه فوق المنضدة الصغيرة. قال النقيب: افتحه من فضلك. فتح غيورغ الظرف.

هذا جيّد، قال النقيب بيله، يمكنني أن اكتب لحضرتك رسائل توصية.

كانت في الظرف شعرات حمراء. لم تكن من شعري. قال غيورغ: كانت على ما أظن، شعرات من كورت.

استقل غيورغ القطار بعد ثلاثة أيام. كانت علبة الكبريت في جيب معطفه. لم يتم رَمْيهُ من القطار المنطلق. وصل إلى المانيا.

قال عن رحلة الخروج: لن اكتب رسائل بعد الآن، بل سأكتفى بالبطاقات البريدية. كانت اولى تلك البطاقات موجهة إلى والديّ إدغار. مشهدٌ لشارع مشجّر في يوم شتوي تمتد فيه الأشجار الكثيفة على شاطىء النهر. عَبَّرَ في البطاقة عن شكره على مدة السكن عند والديّ إدغار. وصلت البطاقة بعد مرور شهرين. وحينما رماها ساعي البريد في صندوق العائلة كانت قد تحورت إلى تَرِكَةٍ بالية.

وقبل ذلك باسبوعين كان ساعي البريد قد طرق باب العائلة. كان إدغار قد وقّع بأنه قد تسلّم البرقية.

وبعد مرور ستة أسابيع عقب رحلة الخروج، عُثر في صباح

مبكر في فرانكفورت على جثة غيورغ ملقاةً فوق بلاط الرصيف. في الأعلى كانت إحدى النوافذ في الطابق الخامس من المنزل المؤقت للمهاجرين مفتوحة.

جاء في البرقية ما يأتي: مات على الفور.

حينما القيت البطاقة الحاملة لخط غيورغ في صندوق بريد العائلة، كنا، إدغار وكورت وانا قد بعثنا لمرتين اعلاناً إلى إدارة الصحيفة حول موت غيورغ.

أومأ محرر الصحيفة في المرة الأولى برأسه وتناول الاعلان بيده.

وفي المرة الثانية صرخ بنا الرجل طالباً منا الانصراف خارج المبنى. قبل مغادرتنا طرحنا الاعلان، جنب نظارته فوق المنضدة.

وفي المرة الثالثة لم يسمح لنا بالدخول عند بوابة المبنى. لم ير اعلان موت غيورغ النور أبدا.

كانت بطاقة غيورغ البريدية فوق طاولة في غرفة نوم والديْ إدغار، موضوعة في الدولاب الزجاجي أمام الاقداح. كان مشهد الشارع المشجر الشتوي يطل على الفراش. وحينما تنهض أُم إدغار مبكراً، تسير حافية القدمين عبر أرضية الغرفة حتى الدولاب الزجاجي وتلقي نظرة على المشهد. قال والد إدغار: سأضع البطاقة في الدرج. ارتدي ملابسكِ. قامت أُم إدغار بارتداء ملابسها لكن البطاقة بقيت في مكانها في الدولاب الزجاجي.

لم تقم أُم إدغار باستخدام المقص الذي قطع به غيورغ شعره، بعد ذلك ابدأ في خياطة الملابس.

لم أستطع النوم في مكان مظلم منذ موت غيورغ. قالت السيدة مارغيت: اذا نمت فستجد روحه الراحة. من ينبغي أن يدفع تكاليف الكهرباء. حتى وإن لم يستطع الإنسان النوم، يستطيع أن ينال قسط الراحة المطلوب وذلك افضل في الظلام.

سمعتُ السيدةَ مارغيت عبر باب الغرفة. كانت تَئِنُّ إما بسبب التفكير أو ربما بسبب ما تغط فيه من نوم. كانت أصابع قدميّ تطلان من نهاية الفراش وعلى بطني يحط طير الدغناش. الفستان الموضوع على الكرسي تحوّل إلى امرأة غريقة. اضطررت إلى رفعه بعيداً. أما جوارب البنطلون المتدليه من مسند الكرسي فبدت مثل سيقان مبتورة.

وددتّ لو أني تمددت في الظلام داخل كيس مع الحزام والشباك, في الكيس الحاوي على الأحجار والذي لم يصبح من نصيبي.

قالت السيدة مارغيت: يُحتمل أن أحداً دفعه من النافذة. أتصوّر أحياناً أن لي القدرة على تقييم البشر بمجرد النظر إليهم. لم يَبْدُ على غيورغ أنه يبحث عن الانتحار. انه لن يُبعث من جديد. فإن كانت المسألة جريمة فَلْيشمله الرب بالرحمة. عبر الانتحار يمر الإنسان بنار التطهير قبل الدخول إلى جنة السماء ـ إني أُصلّي من أجله.

عثر كورت في الزاوية الداخلية للدولاب على تسع قصائد لغيورغ. ثمانٌ منها تحمل عنوان: طير الدغناش. أما القصيدة الأخيرة فكان عنوانها: من يستطيع أن يأخذ خطوة برأسه.

كان إدغار يرى الحُلمَ نفسه: كورت وأنا نائمين في علبة كبريت وغيورغ واقفاً عند نهاية السرير ويقول: انكما في سعادة

حقا. وسحب الغطاء حتى بلغت حافته رقابنا. كانت الشجرةُ الظاهرة على غطاءِ علبةِ الكبريتِ في الحلم شجرة زان. كانت تُصدِرُ حفيفا. قال غيورغ: ناما، سأقوم بحماية الغابة. وبعد ذلك سيأتي دوركما. وعند الحافة النهائية للسرير اضطرمت النار.

ومنذ موت غيورغ صار كورت يتغيّبُ عن العمل، فبدلاً من الذهاب إلى المذبح كان يتجه إلى المدينة.

ذهبت الجارة ذات العيون المنقّطة في وقت متأخر من إحدى الامسيات عبر الحديقة وطرقت باب كورت. سألتْ: هل أنت مريض؟ انك لست في الفراش.

قال كورت: كما تَريْن، أقف عند الباب.

كانت الكلاب تنبح في القرية، لأن الريح تصطدم بالميازب. كانت الجارة اطفأت النور في غرفتها على الجانب الآخر. كانت نافذتها مظلمة. ترتدي ملابس خفيفة وتلفُّ نفسها بذراعيها. وتلبس نعلاً صيفية من أعمال الحياكة ولها كعاب من فلين. وكانت جواربها السميكة من صوف الغنم تبدو صغيرة الحجم بالنسبة لها، لذا كانت كعابها تبرز خارج النعل.

طلبت الجارة من كورت عنوان غيورغ في المانيا، أرادت أن تقف بهدوء لكنها ترنحت وبدت مكتئبة. بينما يسقط الضوء على نعلها الزحّافة. وبدت ساقاها في الظلمة نحيفتين من داخل الجوارب القصيرة مثل أطراف عنزةٍ بيضاء. لم تكن ترتدي جوارب بنطلون.

سأل كورت: ماذا تريدين أن تفعلي بالعنوان فهو لم يودعك حينما غادر؟

سحبت رقَبَتَها نحو الداخل: لم نكن على خصام ابدا.

احتاج إلى بعض الادوية.

قال كورت: إذهبي إذاً إلى طبيب!

جلبت تيريزا لكورت، لكي لا يطرد من عمله، تقريراً طبياً يستطيع كورت أن يسجل اسمه عليه. كلّف التقرير خرطوشة كاملة من سجائر مارلبورو. وحينما همَّ كورت بدفع قيمتها إلى تيريزا قالت: لقد سرقتها من دولاب أبي.

ورد في رسالة الأم بعد الحديث عن الآم الظهر ما يأتي: لدي الآن الاستمارات الكبيرة. لقد قام الشرطي بملء هذه الاستمارات لأمّي ولي. قال: الآن يمكنك تسجيل اسمك فأنت تحسنين اللغة الرومانية بما يكفي. قلت لربما أنك لا ترغبين ابداً في مرافقتي، وهذا ما قصده الشرطي، لذا سيتأخر كل شيء.

يقول الساعاتي: عليكِ أن تفكري بالامر مليا، وهو يتمنى الخروج بدلاً عنك، لكن كيف؟

لقد شرحت كل شيء للجدة، فهي أيضا وجب عليها التوقيع. لا يستطيع أحدٌ أن يقرأ توقيعها ولكنه بخطها. الاسوأ هو أن يكون التوقيع قابلاً للقراءة، لأن الجدة لا تعرف اسمها، بسبب الخَرَف كما تعلمين. لقد غنّت قليلاً وإني لسعيدة إذْ لا أدري ماذا يدور في رأسها حينما تنظر اليّ مثل حيوان الظربان.

قمت اليوم ببيع قطع الاثاث الموجودة في جزء الغرفة الامامي. فلم يكن احد يرغب بشراء السجادة لأن الأرضة قد أكلت اجزاءً كبيرة منها. ابعث لكِ اجرة الغرفة مضاعفة وبعد ذلك عليك أن تقرري بنفسك. لا اريد أن تبقي هنا لوحدك. فلديك حياة وأمامك مستقبل.

سَجّلتُ اسمي في أعمدة الاستمارات: تأريخ الولادة، المدارس، مكان العمل وفي أي جيش خدم الوالد. سمعت اناشيده الحماسية لهتلر. شاهدت فأسه في حديقتنا. لم أكن اعرف إن كانت توجد نباتات برسيم الحليب أيضا. ولكن كان هناك ما يكفي من منتسبي فِرق إس إس.

الجد والحلاّق والساعاتي والأب والقسيس كانوا يسمّون المانيا وطن الام. وبالرغم من أن الآباء كانوا قد زحفوا إلى العالم من أجل المانيا، بقيت وطن الام.

كان غيورغ بتركه للبلاد قد مهّد الطريق لإدغار ولي. قال آنذاك مرة: سأخرج من هذا المأزق. وبعد ستة أسابيع سقط ميتاً فوق بلاط شتاء فرانكفورت.

بقيت لُعَبُ طيور الدغناش في دولاب كورت، مخبأة داخل حذاء. وبدلاً عنها طار غيورغ من مأزقه وهوى إلى الكيس. ولربما عكست البِركَةُ التي استقر فيها رأسه، عكست صورة السماء. كان لكل منا صديق في كل غيمة صغيرة... ومع ذلك لَحِقْنا إدغار وأنا وغيورغ. حتى إدغار قدّم طلباً للهجرة من البلاد. وفي جيب سترته كانت تستقر البرقية الحاملة لخبر موت غيورغ.

لم يجد كورت في نفسه القدرة على الهجرة. قال: ليس للبقاء هنا أي معنى، ولكن إذهبا انتما أولا. سألحق بكما. كان يهزُّ نفسه وهو جالسٌ على الكرسي، الأرضية الخشبية تصرّ على وقع اليأس، لم يستطع هذا اليأس أن يُرهب أيَّ واحد منا.

قال كورت: أنا شريك في جريمة شاربي الدماء، لذا فلن يطردني أحد. وحينما تهاجران سأكون بين أيديهم. ومنذ الصيف

يساق السجناء في حافلات تنقلهم إلى خلف المذبح في أحد الحقول. يحفرون قناة وحينما ينال منهم التعب تهاجمهم الكلاب. يحملونهم إلى الحافلات فيبقون فيها مطروحين حتى تعود الحافلة في الساعة السادسة مساءً إلى المدينة. قال كورت: أُصوّرُ المشهدَ من مكتبي. باغتني مرة إثنان من شاربي الدماء، لا أدري إن كانا قد عرفا بالسر أولا؟ ولربما عرف به الآخرون أيضا. الافلام محفوظةً لدي في أعماق الدولاب. وهكذا عثرت على قصائد غيورغ. آخذها إلى تيريزا ومن ثم أجلبها قبل أن اسافر إلى لقاء والد إدغار. وعليه أن يرسلها لكما عبر موظف الجمارك.

قال كورت: لربما سيتم طردي فعلاً. ارسلا لي صورتين حينما تصلان إلى المانيا، واحدة للنافذة وواحدة لبلاط الارضية. انهما ستصلان اليّ وبيله يعرف بكل تأكيد بأنهما تسببان لنا ألَما.

بكت تيريزا حينما سمعت بأنني سجلت اسمي في أعمدة الاستمارات. كان صديقها قد هجرها وقال: إمرأة بلا أطفال هي مثل شجرة بلا أثمار. كان هو وتيريزا قد ذهبا إلى محطة الترام. وهناك أشار إلى الناس المنتظرين وبدأ يُخبرها عن أمراضهم.

قالت تيريزا: انك لا تعرفهم لكنه استمر فوزع حالات التشخيص: هذا مريض في الكبد وهذه مريضة في الرئة. وحينما توقف ذهنه عن تلقي أفكار أخرى قال: هل ترين كيف يحمل هذا الشخص رأسه؟ وهذه السيدة مريضة قلب وذلك الرجل في حنجرته. . . . سألتْه تيريزا: وأنا، ماذا عني؟ لم يجبها. قال: المشاعر، ليست كامنةً في الرؤوس. إنها تنبع من عُقَدِ الاورام.

كانت العقدة في إبطِ تيريزا قد بدأت تسبب الالآم في تلك الأوقات.

لم أرغب في أن تبقى تيريزا لوحدها وقلت: تعلّقي بكورت، تيريزا أومأت برأسها. انني على كل حال مجرد نصف العقدة، قالت. إنك تأخذين جزءاً مني معك. وما تبقى هنا تعطيه لكورت. وما لم يَعُدْ كاملاً فيمكن توزيعه بسهولة.

الآن جاء دوري لكي أضغط على مِدَقّةِ الباب القائمة على شجرة البتولا. كانت تيريزا تُدرك أن ذلك الذي بيننا قد إنهار وانني لن يسمح لي أبدا أن أدخل البلد لغرض الزيارة.

قالت: اعرف اننا لن نرى بعضنا بعد الآن.

وكنت قد قلت لكورت أيضا: تمسّك بتيريزا. قال: الصداقة ليست بسترة يمكن لي أن أرِثَها منكِ. أستطيع ارتداء تلك السترة ويمكن أن تليق عليَّ ظاهرياً ولكنها لا تبقى داخلياً على حميميتها.

ومهما قيل فقد صارْ الامر الآن نهائيا. فالكلمات وهي في الافواه تدوس بالقوة نفسها حينما تدوس بالأقدام على العشب، وهكذا كان شأنُ كلِ وداع.

فمن أحبَّ وهَجَرَ كنا نحن انفسنا. لقد بالغنا إلى أقصى حدِ بلعنةِ أُغنية:

فليعاقب الرب

من يهجر بعد محبة

ليعاقبه الرب

بخطوات كخطو الخنفس

وصرير يشبه الريح

وغبارِ مثل عجاج الأرض.

وصلت الام بالقطار المبكر إلى المدينة. تناولت قرصاً مهدئاً وهي في القطار ثم توجهت من المحطة إلى الحلاق. وكانت تلك هي المرة الاولى في حياتها عند الحلاق. طلبت أن يقصّ الحلاق ضفيرتها تمهيداً للهجرة من البلد.

قلتُ: لماذا؟ أن الضفيرة جزءٌ منك.

جُزء منى، نعم، لكنها لا تنتمي إلى المانيا.

من قال ذلك.

قالت: ستساء معاملة الإنسان أن وصل إلى المانيا بضفيرة. أما بالنسبة للجدة فسأقوم بنفسي بقص ضفيرتها. لقد مات الحلّاق. وأن أي حلاقٍ مدينةٍ سيضيق بها صبراً فهي لا تستطيع البقاء هادئة أمام المرآة. وعليّ أن أربطها بالكرسي.

قالت: لقد دقّ قلبي بشدة، فالرجل العجوز الذي قص لي ضفيرتي كانت يده ماهرة والشاب الذي غسل لي شعري فيما بعد كانت له يدٌ ثقيلة. لقد ارتجفت حينما وصل المقص إلى شعري، كما لو كنت عند الطبيب.

كان شعرُ الام ذي تموّجات دائمة. وبالرغم من برودة الجو فإنها لم تضع الغطاء على رأسها وذلك لكي يشاهد الناس حلقات شعرها. وحملت الضفيرة المقصوصة في كيس بلاستيكي.

هل ستأخذينها معك. سألتُ.

هزّت كتفيها.

انتقلنا من متجر إلى آخر. اشترت جهاز العروس لألمانيا. لوحة خشبية للمعكرونة مع خلّاطة ومطحنة جوز ومجموعات كاملة للطعام والمشروبات وإعداد المعجنات ومجموعة ملاعق

وسكاكين وشوكات غير قابلة للصدأ. إضافة إلى ملابس داخلية جديدة لها وللجدة.

كالتبضع لعروس، قالت ونظرت إلى الساعة الميتة في يدها. يستطيع المرء أن يبعث بصندوق يحتوي على مائة وعشرين كيلو بالقطار إلى المانيا. كان للساعة اليدوية الحمراء في يدها حزامٌ جديد. سألت الام كم الساعة الآن؟

لم تعد الحاجة بعد ذلك الوقت إلى قطع ضفيرة الجدة. فحينما وصلت الام من المدينة كانت الجدة ميتة، ممددة على الأرض وفي فمها قَضْمَةُ تفاح. كانت كمن ماتت مقابل جهاز عروس. علقت قضمة التفاح بين شفتيها. لم تختنق بسببها وكانت لها قشرة حمراء.

وفي اليوم التالي لم يعثر الشرطي في البيت كله على تفاحة أُخذت منها قضمة.

قال الساعاتي: لربما أكلت الجدة التفاحة أولاً وتركت القضمة للأخير.

قال الشرطي: يجب حذف اسمها الآن من الاستمارات. ناولته الأمّ بعض المال.

قالت الأُم: لقد جالت الجدة في الدنيا لكل ذلك الوقت، كان بامكانها التريث الآن حتى نصل إلى المانيا. لكنها لا تطيقني لذا فقد أغْمَضَتْ عينيها الآن. لقد دبّرت موتها في الخفاء حينما كانت تنظر اليّ مثل نظرتها لحيوان الظربان. وعليّ الآن أن اهتم بمراسم الدفن والقسيس. يجب أن يقام قبرها هنا. هكذا أرادت أن أبقي على كل شيء هنا حينما اغادر.

حلت ساعة الدفن. قامت الأُم والساعاتي بتقطيع ملابس الجدة الميتة وابعدوها عن جسدها. جاءت الام بِطَشْتٍ من الماء وملاءةٍ بيضاء. قال الساعاتي: غسل الأموات ليس على الأقارب. على الأصدقاء القيام بذلك وإلاّ يموت الجميع. غسل وجه الجدة ويديها ورجليها. قال: مرت أمس بنافذتي. مَنْ كان يفكر بأنني سأغسلها اليوم. لست خجلاً لأنها عارية. ثم قطّع القماش الجديد بالمقص وقامت الأم بخياطة كل شيء حول جثمان الجدة.

قلت في نفسي، ان من يرتدي ملابس نظيفة، لا يمكن أن يصل السماء وهو متسخ. قال الساعاتي: لا يمكن أن يحدث بطريقة مختلفة، أن جسدها لا يمكن أن يساعدنا بعد الآن فلا نستطيع بعد أن نحني جسدها. ثم قال لي: تستطيعين أن تساعدينا.

تناولت الخيط من علبة الخياطة وسلكت خيطاً مزدوجاً في ثقب إبرة غليظة. وضعت الابرة على كرسي. قالت الام: استخدمي الخيط منفرداً وليس مزدوجاً، فهو قوي بما فيه الكفاية. سيقاوم حتى الوصول إلى السماء قامت بعمل غرزات كبيرة وعقد غليظة في طرفي الكفن. كانت قد غيرت اتجاه المقص وثبتت باسنانها الخيوط حتى لامست الجسد الميت.

كان فم الجدة مفتوحاً بالرغم من أن حنكها كان مربوطاً بقطعة قماش. أريحي حيوانَ قلبِكِ، قلت لها.

استقرت الأم في السكن في مدينة أوغسبورغ. ارسلت رسالة إلى برلين تحتوى على أخبار الآم ظهرها. لم تكن واثقة من أنها هي كاتبة الرسالة لذا دونت على ظهر الظرف اسم الارملة التي كانت تسكن عندها: هيلينه شال.

ورد في رسالة الأم ما يأتي: كانت السيدة شال لاجئة يوماً ما. وبعد انتهاء الحرب وجدت نفسها وحيدة مع ثلاثة أطفال في عنقها، بدون زوج. استطاعت أن توصل أطفالها لوحدها إلى بر الأمان. والآن تجلس هنا. ويستطيع الإنسان إن كان بمفرده أن يعيش من راتب التقاعد عيشة مريحة جدا. وعلى أي حال فإنها تستحق ذلك.

قالت السيدة شال أن مدينة لاندسهوت أصغر من أوغسبورغ. كيف ذلك وهناك الكثيرون من قريتنا يسكنون هناك. أرتني السيدة شال خريطة المنطقة. لكن أسماء الاماكن تبدو معلّقة مثل الملابس المعروضة في شبابيك العرض والتي لا يقدر الناس على شرائها.

وحينما أقرأ في المدينة الكتابات الموجودة على الحافلات فإنها تجتذب انتباهي. أقرأ أسماء الشوارع بصوت عال. وحينما تبتعد الحافلة أكون قد نسيت تلك الأسماء. وضعت صورة بيتنا في الخزانة، لكي لا اراها طوال النهار. ولكن حينما يحل المساء، وقبل أن أطفىء النور، أنظر إلى صورة بيتنا القديم. عليّ أن أعظَّ شفتي وأشعرَ بالفرح بأن الغرفة سرعان ما يلفّها الظلام.

الشوارع هنا في حالة جيدة لكن كل شيء يبدو بعيدا. لست معتادة على الاسفلت اقدامي تؤلمني وكذلك دماغي. يبلغ التعب بي هنا في يوم واحد حداً لربما بلغ ما كان يصيبني خلال سنة كاملة في الوطن.

ليس هذا بيتنا، فهناك يسكن الآن غيرنا، كتبتُ في رسالة إلى الأم. كتبتُ بخط كبير على الظرف: البيت هو حيث انتِ.

العنوان: السيدة هيلينه شال. وكتبتُ اسم الأُم بين قوسين

تحت ذلك وبخط أصغر بكثير. شاهدت الأم بين القوسين تمشي وتأكل وتنام. وتحبني في خوف كما كانت على الظرف. الارضية، المنضدة والكرسي والسرير كانت تعود للسيدة شال.

وكتبت لي الأُم جوابا: لا يمكنك أن تدركي معنى الوطن. ولكن حيث يقوم الساعاتي برعاية القبور فذلك حقاً ينطبق على المعنى.

كان إدغار قد استقر في كولونيا. كنا نتلقى الرسائل نفسها والتي تحمل شعار البلطتين المتصالبتين.

انكم محكومون بالاعدام وسرعان ما ننال منكم.

كان ختم البريد من فيينا.

بقينا أنا وإدغارعلى الاتصال الهاتفي إذْ لم تتوفر لدينا النقود للسفر. والصوت عبر الهاتف لا يكفي بدوره. لم نكن معتادين على كشف أسرارنا في الهاتف فاللسان كان يبقى عالقاً بسبب الخوف.

كانت التهديدات بالموت تصلني عبر الهاتف أيضا، عبر السماعة التي كنت امسك بها وهي على خدي، حينما كنت اهاتف إدغار. كان ينتابني شعور اثناء الحديث وكأننا كنا قد جلبنا النقيب بيله معنا.

ما يزال إدغار يقيم في المسكن الانتقالي. عجوز في أروع أيام عمره، قال مازحاً: معلمٌ فاشل. وكما جرى لي قبله بشهرين، صار عليه الآن أن يثبت أنه قد فُصِلَ من عمله في رومانيا لأسباب سياسية. لا يكفي إحضار شهود، قال الموظف المسؤول. ورقة حسب عليها ختم يفيد بذلك.

من أين؟

هزّ الموظف كتفيه وركن القلم الجاف على الزهرية بشكل عامودي فسقط القلم.

ولم نحصل على مرتب العاطلين عن العمل وبسبب الفاقة اعتدنا على أن ندير في ايدينا أوراق النقد ثلاث مرات قبل شراء ما نريد ولم نتمكن من زيارة بعضنا كما كنا سابقاً وكما كنا نرغب في رؤية بعضنا.

سافرنا مرتين إلى فرانكفورت لرؤية الموقع الذي مات فيه غيورغ. في المرة الاولى لم تتوفر صورٌ لدينا لارسالها إلى كورت. أما في المرة الثانية فقد كنا من الهمة بمكان لالتقاط بعض الصور. ولكن كورت أيضاً كان يرقد في المقبرة.

شاهدنا النافذة من الخارج ومن الداخل والاسفلت من الاعلى والاسفل. كان طفل يركض عبر دهليز المنزل المؤقت ويلتقط انفاسه بصوت عال. كنا نسير على أطراف أصابع أرجلنا. أخذ إدغار مني ألة التصوير وقال لي: سنأتي مرة أخرى لا يفيدنا البكاء بشيء.

سرنا في مقبرة فالدفريد والطريق الرئيس. كان السكون الذي تضفيه النباتات المتسلقة في المقبرة يضني الأعصاب، لافتةٌ معلقة على أحد القبور مكتوب عليها:

هذه المقبرة في حال يرثى لها. نرجوكم إعادة المقبرة إلى حال أفضل وإلاّ ستتم تسويتها بالارض. ادارة المقبرة.

لم اذرف الدموع على قبر غيورغ. دسّ إدغار مِقدمة حذائه المدببة في حافة القبر المبلّلة. قال: ها هو في الداخل. أخذ حفنة من التراب وذرّها في الهواء وسمعناها تسقط على الارض. ثم أخذ حفنة أخرى وتركها تسقط في جيب الجاكتة. لم نسمع

صوت هذه الحفنة. نظر إدغار إلى بطن كَفّيه. وقال: يا لها من قذارة، عرفت أنه لا يعنى بذلك حفنة التراب وحسب. كان القبر ملقًى مثل كيس، والنافذة، لا بد أنها مجردَ ظاهرِ نافذة. كنت قد لمستها دون أن أُحسَّ بشيء في يديّ، لم اكن احسُّ اثناء فتح النافذة وغَلقِها بأي شيء، كما لم أكن اشعر بأي شيءٍ عند فتح العينين وغلقهما. ولا بد أن النافذة الحقيقية كانت داخل القبر.

إنّ الدافع للقتل يَذهب مع الميت. لم تدخل فكرة التابوت في رأسي، فكرت بنافذة فحسب.

لم أعرف كيف وصلت كلمة «لا متناه» (berendlich) إلى المقبرة. ولكني عرفت من هذا القبر ما كانت تحمل من معنى على الدوام.

لم أنس العبارة أبدا.

كان باستطاعتي أن أقول لتيريزا: «لا متناه» تعنى نافذة لا تختفي حينما يقفز منها إنسان إلى الخارج. لم أكن اريد كتابة ذلك في رسالة. لم يكن من شأن النقيب بيله أن يعرف معنى تلك الكلمة. فقد كان ملعوناً أكثر مما ينبغي لكي يفكر بمعناها بنفسه. لقد كان يرتكب جرائم حتى في أماكن لا يدوسها بقدميه. ويميل الى الألفة مع نافذةٍ ما في رواق ما.

حينما تركنا المقبرة، إدغار وأنا تمايَلتِ الاشجار. ضغطت السماء على اغصانها المعوجة. ازهار السوسن والزنابق المتجمدة كانت تغطي القبور كما لو كانت موضوعة فوق منضدة. قام إدغار بتنظيف كعبي أحذيته بعود صغير. كان المفروض أن تكون على جذوع الأشجار مدقات أبواب. لقد كنت مِثل عمياء تتجول في الغابة حين فشلت في رؤية تلك المدقات.

وبعد أخبار الآم ظهر الأُم ورد في رسالتها ما يأتي: وصل في هذا الاسبوعِ الصندوق الكبير الحاوي على حاجياتي من رومانيا. اختفى خلاّط المعكرونة مع اللوح الخاص به. وفي عصر يوم السبت عُدتُ إلى البيت بحمامتين في جيب معطفي، من أجل حساءٍ جيد. قالت السيدة شال أن ذلك ممنوع لأن الحمام من ممتلكات المدينة. واجبرتني على اعادة الحمامتين إلى مكانهما. فأكدت لها أن لا أحد رآني. قلت كان بامكان الحمامتين أن تطيرا بعيدا. فحينما تسمح الحمامات أن يصطادها الناس فهذا ذنبها حتى وإن كانت مُلكَ المدينة. فهناك في المتنزه حمامٌ فائض عن الحاجة.

أُجبرت على إخفاء الحمامتين في جيب معطفي والخروج من البيت. وبعد أن تجاوزت بيتين في الشارع أردت أن اطلقهما فإن كانت تعود إلى ممتلكات المدينة، فهي ستجد طريق العودة لوحدها. لم يكن في الشارع أحد. وضعتهما عند حافة الطريق فوق العشب. هل تعتقدين أنهما طارتا. لوحت بيديّ ولكنهما لم تتحركا. ثم وصل طفل يركب دراجة ونزل. سألني عن الأمر؟ قلت: حمامتان! لا تريدان الابتعاد من هنا. قال الطفل: اذاً فلتبقيا في مكانهما، هذا ليس من شأنكِ. وحينما انطلق الطفل بدراجته جاء رجل وقال: هاتان الحمامتان من المتنزه، من الذي أتى بهما إلى هنا. قلت له: الطفل هناك على الدراجة. صرخ الرجل: ما الذي دار في رأسك، هذا الطفل حفيدي. لم أكن أعرف ذلك. قلت: انني لم اكن أعرف حقا. ثم دسست الحمامتين في جيب معطفي. وبما أن الرجل صار ينظر اليّ بريبة قلت له: الكل سيبقى عاجزاً ولا يبادر أحد بعمل شيء. سأخذ الحمامتين واعيدهما إلى المتنزه.

ارسل كورت عبر موظف الجمارك رسالة مطوّلة تحتوي على قائمةٍ بضحايا الهروب، وقصائد طير الدغناش وصور شاربي الدماء والمساجين. وكانت إحدى تلك الصور للنقيب بيله.

ماتت تيريزا، ورد في الرسالة. حينما كانت تلمس ساقها باصبعها كانت لمستها تترك كَدْمَةً على جلدها. أصبحت ساقاها مثل خرطومين وتراكمت السوائل فيها ولم تفد الاقراص الطبية بشيء فارتفعت السوائل حتى وصلت القلب. جرى علاجها بالأشعة خلال الاسبوعين الاخيرين، اصيبت بالحمى وبدأت تتقيأ.

بقيتُ على وفاق معها قبل أن تقوم بزيارتِك. لقد أرسلها بيله اليك. لم اكن ارغب في أن تقوم بالسفر. قالت لي إنكِ حسود فحسب.

وبعد عودتها من المانيا، صارت تتجنب لقائي. راحت تمارس مراقبة الآخرين وتقديم التقارير عنهم. وقد لقيتها لمرتين فحسب واسترجعت كل شيء كان مودعاً عندها فقامت باعادتها كلها لي. ولكنني لن أفاجأ أن أخذ بيله يوما ما كل شيء من منضدة الكتابة.

لقد قدمت طلباً للهجرة، سنلتقي في الربيع.

لقد حزنت كثيراً لموت تيريزا، كما لو أن لي رأسين يقفزان سوية. في أحد الرأسين يكمن الحب الصارخ وفي الرأس الآخر الكراهية. كنت أتمنى أن يزدهر الحب مرة أخرى. لكن ذلك الحب نمى كما يختلط العشب والتبن مع بعضهما حتى صار ذلك أبرد علامة تأكيد على جبيني وجسّد اسوأ حماقة في حياتي.

ولكن قبل وصول الرسالة المطلوبة بثلاثة أسابيع تسلمنا إدغار

وأنا برقيتين متناظرتين.

عُثر على كورت ميتاً في غرفته. كان قد انتحر بحبل.

من بعث بالبرقيتين. قرأت بصوت عال كما لو كنت مجبرة على الغناء أمام النقيب بيله. كان لساني يطلق الكلمات عبر جبهتي كما لو كانت نهايته مشدودة بعصا إيقاع بيد النقيب بيله.

جاء إدغار لزيارتي. وضعنا البرقيتين جنب بعضهما. هز إدغار لعبة طير الدغناش، طارت الكرة، بدأت المناقير تلتقط من على اللوح. نظرتُ إلى الدجاجات بهدوء، لم أحسّ بالحسد ولا بالطمع، بل بالخوف فحسب. احسست بخوف إلى حد لم أرغب عنده في خطف طير الدغناش من يد إدغار.

لم تكن دائرة البريد ترسل الرسائل مصادفة في اكياس، قلتُ. لأن أكياس البريد تستغرق وقتا أطول في النقل من أكياس الحياة. كنت أُريد أن اشاهد الدجاجة البيضاء والحمراء والسوداء، كنت أُريد مشاهدتها حسب الترتيب. لكن الترتيب اختلط اثناء قيام الدجاجات باللقط. إلاّ أن ذلك لم يحدث للأكياس ذات الحزام ولا للنافذة ولا لعقدة الأبط أو الحبل.

انتِ وكيس خبزك السفابي، قال إدغار، فحينما يسمع أحد ذلك يعدّك مجنونة.

طرحنا صور كورت على الأرض. وجلسنا امامها كما عهدنا في الايام الخوالي في حديقة أشجار البقس. صار عليّ أن أنظر لِلَحظةٍ نحو الاعلى إلى سقف الغرفة لأعرف أن كان ذلك البياض ليس سوى السماء.

ظهر النقيب بيله في الصورة الاخيرة وهو يمشي في ساحة ترايان. كان يحمل في يد رزمة صغيرة من الورق الأبيض ويقود

بيده الاخرى طفلا.

كان كورت قد كتب على ظهر الصورة:

الجد يشترى الكعك.

تمنيت لو أن النقيب بيله حمل كيساً يضمُّ كل الاموات من ضحاياه. وأن يطلق شعرُهُ المحلوق رائحةَ مقبرةٍ تمَّ حشُ أعشابها للتو. وان تبعث الجريمة برائحة نتنه بعد أن يفرغ من عمله ويجلس مع حفيده عند المائدة، وأن يتقزز الطفل من تلك الاصابع التي تقدم له الكعك.

أحسست بفمي يفتح ويغلق.

قال كورت مرةً: أن هؤلاء الاطفال شركاء في الجريمة. انهم يدركون حينما يقبلهم أهلهم مساءً بأن آباءَهم في المذبح يشربون الدم وان الاطفال انفسهم يرغبون في الذهاب إلى هناك أيضا.

هزّ إدغار رأسه كما لو كان يريد المشاركة في الكلام. لكنه لزم الصمت.

جلسنا امام الصور على الأرض. أخذت صورة الجد بيدي. نظرت إلى الطفل من مسافة قريبةٍ جدا. ثم نظرت إلى الرزمة البيضاء الصغيرة التي بعثها الجد لنا.

ما زلنا نقول حلاقي ومقص اظافري، بينما لا يفقد الأخرون زراً أبدا.

كانت ساقاي خدرتين من فرط الجلوس.

إذا لزمنا الصمت اثرنا الضجر، قال إدغار وإذا تكلمنا ضحكوا علينا.

آداب



يمكن تلخيص الموضوعة الأساسية لكتابة هيرتا مولر السردية بأنها قضية الحرية في المقام الأول. هناك من رأى بعد حصول الكاتبة على جائزة نوبل للآداب 2009 أنها تمثّل سرد الأقليات المعذبة، أو الغربة اللغوية، والاشتغال على التمركز القومي لكونها عاشت حقبة طويلة من حياتها وراء أسوار رومانيا تشاوشسكو؛ فكانت معاناتها من الدكتاتورية مضاعفة: كمواطنة وكألمانية في بلد آخر.

وعندما تتحدث مولر عن أدبها وعبر اهتماماتها المتعددة: روائية وقاصّة وشاعرة ومقالية ومترجمة تقول إنها تكتب عن الدكتاتورية لأنها (لم تعرف شيئاً آخر ولم تر شيئاً آخر).

كان عليها مثلاً أن تقابل مترجمة روسية محترفة لتصحح لها مفرداتها أثناء الدراسة، ولكن في غابة بعيداً عن الأنظار كي لا يراقبها احد.

بطلات روايتها هذه (حيوان القلب) هن أيضا يذهبن إلى الغابة ليلاقين عشاقهن، بعيداً عن الأعين، متعرضات للعقاب في أية لحظة ويغدو (الراندي فو) بترميز الفتيات وتشفيرهن للقاءات الغرامية عملاً فدائياً يمارسنه بسريّة وخوف.

مولر نفسها ستعمل مترجمة في مصنع، لكنها تضطر لترك عملها بسبب الاضطهاد والكبت ومحاولة إجبارها على التجسّس.

الدكتور حاتم الصكر

ISBN 978-9953-417-80-6



